

أدوينيس

الكتاب

أفيس المكنان الآن

II

منتدى مكتبة الاسكندرية www.alexandra.ahlamontada.com

علي مولا

الساقية

أدونيس

منتدى مكتبة الاسكندرية www.alexandra.ahlamontada.com

مخطوطة تنسب إلى المتكفي
يحقها وينشرها أدونيس
أحمد الحكيم الآن

مخطوطة تنسب إلى المتكفي
يحقها وينشرها أدونيس

الكتاب

أحمد الحكيم الآن



الكتاب

الكتاب

محمد سعيد الصكار
مدير عام

خطوط الغلاف: محمد سعيد الصكار

أد ونيس

الكتاب

أهس المك كان الآن

مخطوطة تُنسب إلى المتنبي
يُحقّقها وَيُنشرها أد ونيس



الساقية

London Office: 26 Waverley Grove, London W3 9RT
Tel: 0171-234 1171-234 1172

© دار الساقى
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى ١٩٩٨

ISBN 1 85516 740 9

دار الساقى
شاية شابت؁ شارع أمين منىمنة (نزلة السارولا)؁ الهمراء؁ ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت؁ لبنان
هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)؁ فاكس: ٦٠٢٣١٥ (٠١)

DAR AL SAQI
London Office: 26 Westbourne Grove, London W2 5RH
Tel: 0171-221 9347, Fax: 0171-229 7492

للمؤلف

مجموعات شعرية

- قصائد أولى، ١٩٥٧.
- أوراق في الرّيح، ١٩٥٨.
- أغاني مهيار الدمشقي، ١٩٦١.
- كتاب التحوّلات والهجرة في أقاليم النّهار واللّيل، ١٩٦٥.
- المسرح والمرايا، ١٩٦٨.
- هذا هو اسمي، ١٩٧١.
- مفرد بصيغة الجمع، ١٩٧٥.
- المطابقات والأوائل، ١٩٨٠.
- كتاب الحصار، ٨٢ - ٨٥، ١٩٨٥.
- شهرة تتقدّم في خرائط المادّة، ١٩٨٧.
- احتفاء بالأشياء الواضحة الغامضة، ١٩٨٨.
- أبجدية ثانية، ١٩٩٤.
- الكتاب - I ، دار الساقبي ١٩٩٥.

دراسات

- مقدّمة للشّعر العربي، ١٩٧١.
- زمن الشّعر، ١٩٧٢.
- فاتحة لنهايات القرن، ١٩٨٠.
- سياسة الشعر، ١٩٨٥.

- الشعرية العربية، ١٩٨٥.
- كلام البدايات، ١٩٨٩.
- الصوفية والسوريالية، ١٩٩٢.
- ها أنت أيها الوقت، ١٩٩٣.
- النظام والكلام، ١٩٩٣.
- النص القرآني وآفاق الكتابة، ١٩٩٣.

مختارات

- ديوان الشعر العربي (ثلاثة أجزاء، مقدمة) ١٩٦٤ - ١٩٦٨.
- مختارات من شعر السيّاب (مع مقدمة).
- مختارات من شعر يوسف الخال (مع مقدمة)، ١٩٦٢.
- مختارات من شعر شوقي (مع مقدمة)، ١٩٨٢.
- مختارات من نصوص الكواكبي (مع مقدمة)، ١٩٨٢.
- مختارات من نصوص محمد عبده (مع مقدمة)، ١٩٨٣.
- مختارات من نصوص محمد رشيد رضا (مع مقدمة)، ١٩٨٣.
- مختارات من شعر الزهاوي (مع مقدمة)، ١٩٨٣.
- مختارات من نصوص محمد بن عبد الوهاب (مع مقدمة)، ١٩٨٣.
- (الكتب الستة الأخيرة أُختيرت وقُدِّم لها، بالتعاون مع خالدة سعيد).

ترجمات

- الأعمال المسرحيّة الكاملة لجورج شحادة، ١٩٧٥.
- الأعمال الشعرية الكاملة لسان - جون بيرس، ١٩٧٦.
- الأعمال الشعرية الكاملة لإيف بونفوا، ١٩٨٦.
- مسرحيّة فيدر لراسين، ١٩٧٥.
- الشّقيقان العدوَّان لراسين، ١٩٧٥.

القسم الأول

I

خُذْ مَا تَرَاهُ، وَدَعْ شَيْئاً سَمِعْتَ بِهِ،
فِي طَلْعَةِ الشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ زُحْلِ .
المتنبي

- أ -

قال^(١) تأتي معي

حَلَبٌ تَتَهَيِّدُ أَيَّامَهَا

بالفتوح: الشمالُ

يتقلب في نارها

والجنوبُ قريبٌ

غريبٌ.

كيف لا أستجيب لهذا السؤالُ،

تاركاً سفنَ الليلِ

تُبحر في شمسِ أنطاكية؟

ألوداع الوداعِ لأنطاكية، -

أتراها ولادتي الثانيه؟

* يتنور أيامه:

كل شيءٍ ضياءٌ له ودليلٌ.

وجهه شمسُهُ،

وتباريحه

أفقٌ باذخٌ يتصاعدُ فيه.

- أ -

الجحيمُ التي كان للزأويه

أن يتوغل في نارها

دون أن يبلغ الهاوية،

فر من هولها إلي

يتقياً في مقلتي.

قال، تأتي وتأخذ فيها

مكاني،

ليلها غامرٌ

والضراط إليها

ضيقٌ، شائكٌ.

(١) القائل هو سيف الدولة،
عندما كان في أنطاكية. سنة
٣٣٧ هـ.

- ب -

يَلْتَقِي شَاعِرٌ وَأَمِيرٌ
 شَاعِرٌ يَقْرَأُ الْوَقْتَ فِي شَعْرِهِ
 أَمِيرٌ
 يَقْرَأُ الْوَقْتَ فِي صُحُفٍ مِنْ دِمَاءٍ،
 وَيُسِرُّ: «هَوَى غَامِضٌ شَدَّ
 قَلْبِي وَعَقْلِي إِلَيْهِ...»
 تُرَاهَا
 بِيْعَتِي، أَمْ تُرَاهَا
 بِيْعَةُ الْمَتْنَبِيِّ؟»

مَا أَمْرُ اللَّقَاءِ، وَمَا أَغْمَضَ اللَّقَاءُ، وَمَا أَعَذَبَ
 اللَّقَاءُ.

* صَوْتُهُ يَتَمَوَّجُ فِي أُذُنِ الْوَقْتِ وَالْوَقْتُ
 يُمْلِي أَعَاصِيرَهُ:
 نَسُغُ هَذَا الْفَضَاءَ
 سَائِلٌ يَتَقَطَّرُ مِنْ فَلَكِ الْكَبْرِيَاءِ.

- ٢ -

لَا أَجِيءُ، إِذَا كَانَ فِي كُلِّ دَرْبٍ
 دَلِيلٌ وَضَوْءٌ - أَجِيءُ،
 إِذَا انْطَفَأَ الضَّوُّ،
 وَارْتَطَمَ الْعَابِرُونَ الْحِيَارَى
 بِحِجَارَةٍ سَجَّيْلِهِمْ.

وَأَجِيءُ، إِذَا كَانَ لِي أَنْ
 أَشُقَّ طَرِيقَ الْجَحِيمِ،
 إِلَى آخِرِ الْجَحِيمِ.

- ج -

- جالساً^(١)، سوف أقرأ شعري بين
يديك، ولن أنحني
مثل غيري: أقتل بينهما الأرض،
لكنتني
سأعانقُ فيك السماء
وأقتل كلَّ علو.

- أأخاصمك الآن؟ لا، لن أخالف
ما قلت. خير.
لك ما شئتُه،
لم يشأه سِوَايَ ولا شاءه الشعراء.

* ربّما،

لاشفاء لجرحك إلاّ
في يدي ورْدَةٍ
لم تلامسهما يداك.

- ٣ -

حسناً

أتنوّر في سفري نحو نفسي،
ونحو المدائن والناس،
شعري، وأنبذ الراوية.

لا دليل سوى الشعر -

يبتكر الهاويه
ويصادق معراجها الكريم.

فليجيء نحوي الفضاء

ليجيء مثل طفل،

نقيًا وحرًا

لأخط عليه

ما روته النجوم لعيني هذا
المساء.

أَلَمَسَاءُ، صَدِيقُ الْعِنَادِلِ، يَتْرُكُ مَزْمَارَهُ
فِي يَدَيَّ، وَيَمْضِي
طَائِفًا، سَائِلًا.

أَثْرَانِي حَقًّا أَجُورُ، إِذَا
قُلْتُ مَا لَا يُقَالُ؟ وَلَكِنْ
كَيْفَ أَطْمَسُ مَا يَطْمَسُ
الْجَوْرُ وَالْبَغْيُ؟
مَا الشَّعْرُ إِنْ لَمْ يَرِ الْجَذْرُ،
إِنْ لَمْ يُضَيَّنَا؟ وَمَا الضُّوءُ
فِي الشَّعْرِ، إِنْ لَمْ يُنَوَّرْ
دُجَّةً أَيْمَانًا، وَيَزْلَزَلْ
وَهُمَ تَارِيخُنَا؟

كَزَرُوا مَا تَشَاوُونَ - أَنْتُمْ
لِلْعُرُوشِ وَأَهْوَانِهَا،

* عِنْدَمَا يُصْبِحُ الْغَيْبُ ثَوْبًا لَجْسَمِكَ،
وَالشَّمْسُ رِمَانَةً فِي يَدَيْكَ،
كَيْفَ لَا تُولَدُ الْأَرْضُ مِنْ أَوَّلٍ
فِي خَطَاكَ، وَفِي نَظَرِيكَ؟

ناقتي - أَتَغْلُغُلُ فِي وَخْدِهَا :

أَلْمَحُ الْمَوْجَ فِيهِ

وَالصَّحَارَى - أَرَى النَّخْلَ ، كَلَاً ،

وَخُدُّهَا حِيرَةً وَالتَّبَاسُ ،

وَدُرُوبٌ إِلَى

أَرْضِهَا ، خَفِيَّةٌ .

أُتْرَاهَا -

حَلَبٌ بَيْنَ أَهْدَابِهَا

أَمْ تُرَاهُ الْحَنِينُ إِلَى اللَّاذِقِيَّةِ ؟

* شَغْفِي أَنْ أَرَبِّي سِرِّي كَطْفَلٍ ،

شَغْفِي أَنْ أَفِيءَ إِلَى بُرْعَمِ

وَأَخْبِيءَ حَبِّي

فِي أَسَارِيرِهِ .

للسيوف التي تتناسل فيها ،

لأبنائها

وأبناء أبنائها ،

كزروا ، أنشدوا :

لَكَ حَشْدُ الْقِبَائِلِ ،

حَذُوُ الْقَوَافِلِ ،

وَالْعَالِيَاثُ الْقُصُورُ

وَأَنوَارُهَا السَّاطِعَةُ ،

وَأَتْرَكُونِي أَنَا لِضَلَالِي

لَنْ أَفِيءَ إِلَى ظِلِّكُمْ

وَذَخِرْتُ لَصَوْتِي هَوًى

آخِراً ،

وَمَدَى آخِراً

وَسَأَبْقَى رَفِيقاً أَمِيناً لِبِيدَائِي

الوَاسِعَةِ .

(١) أبو مخنف، سيف بن
عمر، ابن الكلبي: إخباريون
ومؤرخون قدامى.

أُتْرَاهُ شِعْرِي

نَجْمٌ رَحَالٌ

في صحراء المعنى -

يَتَعَهَّدُ واحِدٍ

ويشق مجاري في الأصوات وفي الكلمات؟

أُتْرَاهُ قلبي

قَمَرٌ بَطَالٌ

يَسْكُنُ في حَرَمِ الأحلام، ويبني

مُدُنًا لِلتَّيِّهِ وَلِلشَّهَوَاتِ؟

لائِنَ الكلبي، وسيف، وأبي
مُخَنَّفٌ^(١)،

تاريخ رمالٍ

يتأرجح في عرشٍ دامٍ،

في عِبَثٍ مُسْتَأْنَفٍ.

* لِلْفَضَاءِ طيُورٌ تَخْطُ السَّمَاءَ -

نُبُوتِهَا ورؤاها،

رُقْعٌ من سحابٍ يَلُونُ السَّلَامَ

كَلَّ طَيْرٌ قَلَمٌ.

- ز -

جَرَّتِ الشَّمْسُ أَرْدَانَهَا
فِي رَوَاقِ الْغُرُوبِ، وَأَعْطَتْ قَنَادِيلَهَا
لِلْمَسَاءِ.

أَلَسَّهَوْلُ خِيَامٍ
تَتَلَقَّحُ فِيهَا

شَهَوَاتُ الشَّجَرِ،
وَالنَّجُومُ كَمِثْلِ النَّسَاءِ
يَتَفَحَّضْنَ أَجْسَادَهُنَّ،
وَيَفْتَقْنَ ثَوْبَ الْقَمَرِ.

(١) هاشم بن حكيم،
المقنع. وقيل اسمه عطاء.
كان يتبرقع بحرير أخضر، أو
بوجه من الذهب. قيل أحرق
قلعته رافضاً الاستسلام. قائلاً
لمن معه:
«من أحب أن يرتفع معي إلى
السماء،
فلْيُلِقْ نفسه معي في هذه
النار».

يقول المعري، مشيراً إليه:
أَفِقْ، إِنَّمَا الْبَذْرُ الْمَقْنَعُ رَأْسُهُ
ضَلَالٌ وَغِيٌّ مِثْلُ بَذْرِ الْمَقْنَعِ.

- ٦ -

اتَّقَى، أَوْغَلَ فِي الْآثَارِ،
وَفِي التَّارِيخِ، وَفِي ذَاكِرَتِي -

- أ -

خُوصِرَ هَاشِمٌ^(١)، أَشْعَلَ نَارًا:
«لَنْ يَلْمَسَنِي سَيْفٌ
أَهْلِي وَنِسَائِي
سَيَمُوتُونَ كَمِثْلِي.
نَارٌ - الْطِفْ بَرْدٍ
فِي أَنْعَمِ دَارٍ».

- ب -

أَعْطَاهُمْ سُمًّا، أَوْ هَذَا
مَا أَخْبَرَ عَنْهُ، وَهَوَى كُلُّ

* أَتُرَى يَعْرِفُ الْمَاءُ أَنَّ الشَّرَرَ
وَحْيُهُ الْمُتَنَظَّرُ؟

- ح -

حَلَبٌ - أَثَرُهُ السَّحَابُ الَّذِي يَنْزِلُ
الآنَ عَنْ كَتْفِي، يَسِيرُ إِلَيْهَا؟
لَأَقُلَّ إِنَّهُ رَفِيقِي:
رَحِمٌ لِلتَّخِيلِ، أَمْ لِلْحَنِينِ؟
أَقُولُ لِيُظَنِّي تَمَهُّلُ
حَسْبِيَ الآنَ أَنِّي قَرِيبٌ إِلَيْهَا -
حَامِلٌ شَمْسَهَا
حَاضِنٌ ظِلَّهَا.

سَأَقُولُ لِهَذَا الْفَضَاءِ الْمُنَوَّرِ: كُنْ مِثْلَهَا.

* شهوة الشمس تُغْلِقُ شُبَّاكَهَا:
مِثْعَةً أَنْ نَرَى اللَّيْلَ يَأْوِي إِلَيْهِ
وَيُوشِوشُ قُضْبَانَهُ.

فِي اللَّهَبِ الصَّاعِدِ نَحْوَ اللَّهِ،
أَتَوُّهُ -

أَخْذُوهُ مَيْتًا، قَطِّعُوا الرَّأْسَ،
اسْتَبْشَارًا
وَمَضُوا. حَمَلُوهُ لِلْمَهْدِيِّ،
وَكَانَ مَقِيمًا فِي حَلَبٍ.

- ج -

هَاشِمُ كَانَ يَقُولُ: «إِلَهَ

يَتَجَسَّدُ فِيَّ، دَعُونِي

أَتَبَرِّقَ حَتَّى

يَكْمَلَ فِيَّ تَجَسُّدَهُ، ثُمَّ سَأَكْشِفُ
عَنْ ذَاتِي

لِتَرُونِي - سَأُبَيِّحُ لَكُمْ

مَا شِئْتُمْ».

- ط -

يكتب الشعرُ وَحْيَ الصَّدَاقَةِ
في كتبِ جامِحةٍ -

هذه آيةٌ :

فَجُرُ تاريخنا

قائِمٌ قاعدٌ،

هُوَ ذا يَنْحَنِي -

يَتَرَبَّعُ في أَوَّلِ العِطْرِ،

يَقْرَأُ للماءِ، لِلْعُشْبِ، لِلشَّجَرِ

الْفَاتِحَةِ .

- ٧ -

- أ -

خرجوا^(١)،

اسْتَبَسَلُوا،

أُيِدُوا .

- ب -

قُتِلَ اليَشْكُرِيُّ^(٢)، وَبُدِدَ أنصارُهُ
في الجزيرةِ،

وَدُمَ البربريُّ، ودحيةُ
والبرلسيُّ^(٣) يَسِيلُ على جَسَدِ
البيرةِ: الأَمِيرُ يُحِبُّ الرِّقَادَ على
جُثَّةِ الأَمِيرِ .

(١) إشارة إلى فرقة
المحمرة، الذين خرجوا في
جرجان، وقتلوا جميعاً، كما
يُروى .

(٢) عبد السلام بن هاشم
اليشكري، خرج على الخليفة
اسمهيدي وكان أنصاره
يتكاثرون في الجزيرة .

(٣) العباس البربري، دحية
الغساني، إبراهيم البرلسي،
خرجوا في البيرة، بالأندلس
على عبد الرحمن الداخل،
 وقتلوا مع عددٍ من أنصارهم .

* تعجب الأرض من ذلك الهباءِ
الذي يتحدَّرُ من آدمِ،
وتؤكد سُكْرًا بهِ :
لن أوجّه وجهي إلا إليه .

(١) قال ابن الأثير: «في السنة ١٦٣ هـ، جاء الخليفة المهدي إلى حلب، فأمر بجمع الزنادقة فيها، وفي نواحيها. جُمعوا وقُتلوا، وقُطعت كتبهم بالسكاكين».

زَفَرْتَنِي شَهيقاً

مُدُنٌ لَا تُحِبُّ السَّمَاءَ، وَلَكِنْ

لَمْ أَكُنْ قَادِراً بَعْدُ، أَنْ أَتَبَلَّغَ،

أَوْ أَنْ أُبَلِّغَ مَا وَسَّوَسَتْهُ

مَفَازَاتُهَا،

وَمَا رَمَزَتْهُ،

أَلْهَذَا تَأَسَّسْتُ فِي صَمْتِهَا، وَفِي وَحْيِهَا؟

- ٨ -

- أ -

الخليفة في حلب^(١) للتفقد: -

«أين الزنادقة؟ استخرجوهم

من مخابثهم، وأبيدوهم

واحدًا واحدًا.

قَطَّعُوا بالسكاكين أوراقهم،

قَرَّبُوها - أنا البادىء

كي يُقال: اصطفاؤه ثواباً

للنعيم وولدانه، البارىء».

* رحلة الرَّمْل لا تنتهي،

والبشارة تأتي من البحرِ

في جوفِ حُوتٍ.

- ب -

سنة دامية -

والزنادقة اليوم أكثر من أي وقت
مضى^(١)

عبرة لسواهم،

سأعدّد أسماء من قيل عنهم
زنادقة

وأبيدوا،

أو أحيطوا، لأمر خفي،

بعفو الخليفة، لكنني لن أبوح
بإمر ولا شاهد

حذراً من عتو اليد الباغية،

سأقول: أنا وحدي

الزاوية، -

أبان بن عبد الحميد الأحقي

- ك -

في كل مفترق صمتت يوسع لي
حدّ الكلام، ويؤمّيني إلى الفلك
لي في الكلام أساطير ولي سنن
ولي طيور صباباتي ولي شبكي
تقاطعت في رايات وأشرعة، -
غدي عروش
وشعري مالك الملك.

* غبطة أن يزاح ما بين أنفاسه
واضطراب الجناح،
ألهذا،
لم يكن مرة، طيعاً للرياح؟

(١) من أسلافهم:

الحمد بن درهم،

معبد الجهني،

غيلان الدمشقي،

عبد الصمد بن عبد الأعلى.

حَلَبٌ -

أَتُرَاكِ التَّوَهُّمَ، عَمَرْتُ وَقْتِي بِهِ؟

مَا يَكُونُ، إِذَنْ، وَعَدُنَا؟

مَا يَكُونُ اللَّقَاءُ الَّذِي نُشْرِكُ الْغَيْبَ فِيهِ؟

وَالِىَ أَيِّ شَمْسٍ سَأُوَكِّلُ لَيْلِي

عِنْدَمَا نَتَغَطَّى

بَصْبَابَاتِنَا؟

نَسْتَرُّ، أَمْ نَتَكْنَى؟

لَنْ أَصْرُحَ، لَكِنْ

هَلْ أَخُونُكَ إِنْ وَشَوَشْتَنِي نَفْسِي،

وَوَشَوَشْتُهَا؟

* لَا يَرِيدُ مِنَ الدَّرْبِ إِلَّا

أَنْ يَرَى كَيْفَ تُرْخِي جَدَائِلَ

أَحْلَامِهَا،

وَتَفْكَ، الْعَشِيَّةَ، زُنَّارَهَا.

ابن طالوت ابن شاعر

ابن ديصان ابنة يعقوب

ابنة مطيع أبو نؤاس

أبو العباس الناشء

أبو علي سعيد

أبو العتاهية

أبو عيسى الوراق

إبراهيم بن ستيابة

إسماعيل بن سليمان الجيهاني

إسحاق بن خلف بشار بن برد

البقلي^(١) الجرندى

جميل بن محفوظ

داؤد بن روح بن حاتم المهلبى

(١) كان يقول:

«الإنسان كالبقلة، إذا مات

لا يرجع».

كيف لي أن أطمئن هذا المشرّد

في دمي المشرّد -

هذا الغروب الشروق

الشروق الغروب؟

وأنا في رحيلي نحو المكان ونحوي

لم تقدني دروبي إلا

لمحو الدروب؟

وُدّة الشروي

والبة بن الحباب زوجة يعقوب

حمّاد الراوية حمّاد عَجْرَد

حمّاد الزبرقاني

حفص بن أبي وردة الحريري

يعقوب بن الفضل الهاشمي^(١)

يحيى بن زياد الحارثي

يزيد بن الفيض

يونس بن أبي فزوة

محمد بن أيوب المكي

محمد بن طيفق محمد بن النجم

محمد بن زياد محمد بن بادان

مطيع بن إياس^(٢)

* فُسْحَةٌ -

يَتَصَفَّحُ فِيهَا كِتَابَ النُّجُومِ، يَمْدُّ

الصَّبَاحَ،

يَمْدُّ الْمَسَاءَ، يَمْدُّ السَّهْرَ

بَيْنَ أَهْدَابِهِ وَالصُّورِ.

(١) قتله الهادي سرّاً وأعلن أنه مات ميتة طبيعية،

و «زوجة يعقوب»، و «ابنة يعقوب» هما زوجته وابنته.

(٢) «ابنة مطيع» هي ابنته.

(١) مات في السجن .

(٢) يقال إنه عارض القرآن الكريم .

نَدَى يُبَلِّلُ أَطْرَافِي ، مَدَى عَبَقُ

بِنَكْهَةٍ - أَتْرَاهَا نَكْهَةُ الْغَسَقِ؟

أَحَارُ: هل هي هَمْسُ الْغَيْبِ مُرْتَسِمًا

بَغَيْرِ حَبْرٍ، وَمَقْرُوءًا بِلَا وَرَقٍ؟

أَمْ نَكْهَةُ الضَّوِّ يَجْلُو جِبْهَةَ الْأَفُقِ؟

خُذْ الْغَوَايَةَ مِنْ عَيْنِي، يَا حُلَمِي

وَحُذْ طَرِيقَكَ، وَاتْرُكْنِي إِلَى طُرُقِي .

منقذ بن زياد الهلالي

محمد بن أبي عبيد الله

التعمان غبادة

عبد الله بن معاوية بن يسار

العباسي ابن داؤد بن علي (١)

عبد الكريم بن أبي العوجاء (٢)

عمارة بن حرببة

علي بن الخليل

صالح بن عبد القدوس

قاسم بن رنقطة .

* يدعو الأرض لتلعب نَزْدَ الدَّهْرِ

في ملكوتِ الشَّعْرِ .

- س -

شَرُّ الآن يَلْمَعُ فِي غِيْمَةِ الْأَمْسِ،
وَالْأَمْسُ يَغْمَسُ أَطْرَافَهُ

فِي بَحِيرَةِ فَجْرِ -

هَكَذَا تَتَجَمَّعُ فِي نَفْسِي الْأَزْمَنَةُ.

السَّمَاءُ تَلُمُّ تَقَاسِيمَهَا

مِنْ أَقَالِيمِ شِعْرِي: أَقَالِيمُهُ

مَوْعِدٌ لِفِرَادِيْسِهَا -

هَكَذَا تَتَمَرَّقُ فِي نَفْسِي الْأَمْكَنَةُ.

- ج -

أَوْصَى الْمَهْدِي ابْنَهُ الْهَادِي،
قَائِلًا:

«يَا بُنَيَّ، إِنْ صَارَ لَكَ هَذَا

الْأَمْرُ، فَتَجَرِّدْ لِهَذِهِ الْعَصَابَةِ
(...) فَارْفَعْ فِيهَا الْخَشَبَ،
وَجَرِّدْ فِيهَا السَّيْفَ، وَتَقَرَّبْ

بِأَمْرِهَا إِلَى اللَّهِ الَّذِي لَا شَرِيكَ
لَهُ.

فإِنِّي رَأَيْتُ جَدَّكَ الْعَبَّاسَ فِي
الْمَنَامِ قَلَّدَنِي

سَيْفِينَ، وَأَمَرَنِي بِقَتْلِ

أَصْحَابِ الْإِثْنَيْنِ».

* مَا أَبْرَكَ، يَا كَتِفَ الشَّاعِرِ،
تَحْمِلِينَ الصَّخُورَ وَتَارِيخَهُنَّ،
وَفَاءَ لِمَعْرَاجِهِ الْحَائِرِ.

- ع -

يَنْحَنِي جَسَدِي فَوْقَ أَعْضَائِهِ
وَيُجَاهِرُ: مَا أَبْعَدَ الْعُضْوُ عَنِّي،
وعن نفسه -

هل يقولُ لكم حيرتي؟
هل يقولُ يقيني؟
كيف أعرفُ؟

لكن
غَرَضِي، هَاهُنَا، نِتْرُ:
أَنْ أَقِيسَ الْمَسَافَاتِ بَيْنِي وَبَيْنِي
عندما أتوغلُ في غربة الضوءِ
عن أمسه،
وعن شمسهِ.

* قُمْ لِنَايِكَ، وَاسْتَأْنِفِ الْأُغْنِيَةَ:
شَاعِرٌ يَتَشَرَّدُ - أَجْمَلُ غَابَاتِهِ
فِي الطَّرِيقِ إِلَى نَفْسِهِ،
غَابَةُ الْمَعْصِيَةِ.

- ٩ -

تقاسيم على الوصية

- أ -

زَنَدِيقُ
مَنْ يَجْهَرُ بِالتَّأْوِيلِ خِلَافاً
لِلتَّنْزِيلِ
وَيَعْلَمُ: كُلَّ حَرَامٍ لِلتَّحْلِيلِ.

- ب -

زَنَدَكْرُ، -
يُولَدُ الْكُونُ مِنْ نَظْفَةِ الْمَاءِ
تَنْزَلُ فِي رَحِمٍ مِنْ مَدَرٍ.

- ف -

قَمَرٌ يَتَنَزَّهُ، يَحْمِلُ أَوْرَاقَهُ

فِي حَقَائِبِ سِرِّيَّةٍ.

أَلْتَجُومُ صَدِيقَاتَهُ

وَالْغُيُومُ ثِيَابٌ لَهُ.

قَمَرٌ عَاشِقٌ يُغْنِي:

حَلَبُ آيَةٍ

فِي كِتَابِ الْخَفَاءِ.

مَا يَكُونُ، غَدًا كَشْفُهَا؟

مَا يَكُونُ الْجَلَاءُ؟

- ج -

أَهْيَ الْمَانَوِيَّةُ؟

أَشْعَوِيَّةُ؟

أَلْعَنَاصِرُ تَسْخَرُ مِنْ ظُلْمَةِ
الْعُقُولِ،

وَتَحْزَنُ لِلْأَبْجَدِيَّةِ.

- د -

أُبْغِضُ. لَكِنْ،

إِنْ أُبْغِضُ شَيْئًا

لَا أُبْغِضُ أَهْلَهُ^(١)

أُنْحِبُ الْعَقْلَ،

وَنَكْرُهُ أَصْلَةٌ؟

(١) إشارة نقدية لكلام
للمجاحظ قال فيه: «فإنما عامة
من ارتاب بالإسلام، إنما
جاءه هذا عن طريق الشعوية.
فإذا أبغض شيئاً، أبغض
أهله».

(البيان والتبيين: ٣، ١٤).

* تَكْحَلُ الشَّمْسُ أَجْفَانَهَا بِالسَّوَادِ
كِي تُحَسِّنَ بِمَا حَوْلَهَا، وَتُحَسِّنَ
إِصْغَاءَهَا
لَأَنْيُنَ الرَّمَادِ.

أُتْرَى وَحْدَهَا تَتَلَاقَى الْمَنَارَاتُ؟ مَالِي

أَتَوْجَسُّ؟ قَلْبِي

يَتَفَلَّتُ مِنِّي، وَيَمْضِي وَحِيداً

عَالِياً عَالِياً،

وَدَائِي

أَنْنِي أَوْقِظُ الْأَرْضَ مِنْ نَوْمِهَا وَأُغَالِي،

أَنْنِي عَاشِقٌ

زَمَنَ الْكَوْفَةِ، الْفَرَاتِ وَأَحْزَانَهُ،

وَالْأَعَالِي.

- ه -

هُودًا يَهْذِي:

«لَيْسَ لِأَيِّ مِنْكُمْ أَنْ يُثْبِتَ
رَبًّا.

لَا إِثْبَاتُ

إِلَّا بِالْحَسَنِ، وَلَكِنْ

كَيْفَ يَكُونُ الْمَحْسُوسُ

الْمُثَبَّتُ رَبًّا؟

وَأَسْأَلُكُمْ.

مِنْ أَيْنَ لَنَا

أَنْ نُثَبِّتَ مَا لَا نُدْرِكُهُ؟»

* يَمْضِي، يَجِيءُ، يَرَى، يَشْتَاقُ،

يَنْكَسِرُ -

أَحْزَانُهُ قَبْرُ أَحْلَامٍ، وَحَيْرَتُهُ

غَيْمٌ عَلَى قَبْرِهَا، وَالشَّاهِدُ الْمَطَرُ.

- ق -

أَيَّامٌ لَيْسَتْ أَيَّاماً -

وَأَرَاهَا مِثْلَ ضَفَائِرِ مُسْتَرَسَلَةٍ

لِمَلَائِكَ لَا أَحْبَابَ لَهُمْ،

لَا يُنْمَوْنَ لِأَيِّ مَدِينَةٍ.

أَيَّامٌ -

كَلَّ امْرَأَةً

تَنْسُجُ مِنْهَا زُنَّاراً.

كَلَّ شَرِيدٍ

يَتَلَمَّسُ فِيهَا

حَبْلَ سَفِينَةٍ.

* العزيرُ المشرَّدُ يشكو لأوراقه:

«كاد أن يرجع الضوء مثلي، حزيناً،

لمجراته الأميئة.

ما أمر المسافات بيني وبين المدينة،

ما أبعد المدينة».

- و -

- أَلْسَلْخَفَاءُ أَقْصَرُ دَرْبٍ

لِلدَّخُولِ إِلَى مَلَكُوتِ الزَّمَانِ.

- إِتَّقِ اللَّهَ، هَذَا

رَأْيِي مَنْ قَالَ بِالذَّهْرِ،

وَالزُّنْدَقَاتُ لَهُ تُرْجَمَانُ.

- ز -

غَابَ يَزْدَانُ بَخْتٍ^(١)

فِي حَدِيقَةِ أَوْهَامِهِ،

لَمْ يَعُدْ بَعْدُ مِنْهَا.

- وَلِمَاذَا يَعُودُ

وَهُوَ مِلْءُ الْوُجُودِ؟

(١) أحد رؤساء المانوية في
العصر العباسي.

حَلَبٌ - وَقْتَنَا إِنْفَنَا

موكبٌ آخرٌ في ركائبِ أشواقنا
تتورّدُ، تقفُو، تجسّ، تُخَالِطُ أنْفاسنا
وأفراسنا،
تتزيّنا لنا

بهوى يُبتكز
وتؤالِفُ وسواسنا
وتخطّ وتمحو الصُّورَ.

حَلَبٌ - وَقْتَنَا إِنْفَنَا

فرسٌ لرؤانا
تتقدّمُ أفراسنا.

* هذا لسانُ غوايةٍ - ما أبلغه :

سِرْبٌ مِنَ الطَّيْرِ الغريب، يحومُ
في قَلْقٍ على جسدِ اللّغَةِ.

- ح -

لِرِنَادِقَةٍ

سَقُوا أَنْفُسَهُمْ

«إِخْوَانُ الصَّدَقِ»،

تتوهجُ سِرًّا

آفاقُ الشَّرْقِ.

- ط -

معجزاتٌ، مخاريقُ سِخْرِ
والشّياطين تسكن فيها.

- ي -

صيدوا «أصحاب الأهواء»^(١)،

سجنًا، قَتْلًا، حَرْقًا

صيدوهم

في كلِّ الأنحاء.

(١) من وصية الخليفة
المهدي.

و«أصحاب الأهواء» هم الفرق
التي كانت تُعَدّ في نظر
الخلافة ونظامها، منحرفة عن
الدين.

- ك -

لم يقولوا اسمها^(١)،
 ورووا أنها أعلنت مرّة
 وهي في حضرة الرّشيد
 أنها مانويّة.
 دُهِشَ النَّاسُ مِنْ أَمْرِهَا
 كيف، أتى لأنثى
 لا ترى، لا تريد
 غير ما يتأخى
 ظلاماً ونوراً
 في الحياة،
 وفي جسد الأبدية.

- ش -

لم يكن مرّة غريباً بلا ألفة
 لم يكن مرّة أليفاً بلا غربة.
 دائماً كان مثلي
 غريباً أليفاً معاً
 دائماً كان مثلي مكاناً
 لتأويله،
 لا لأقواله.

هوذا ذلك الرّفيق الصّديق الذي في،
 يخرج من ليله،
 حاملاً وردة
 كان قلبي تغنى بها.

* زهرة تخرج الآن من رحم في الهواء
 لتحيي معراجهُ
 وتقول لهذا الأثير الكلام الذي لم
 تقله السّماء.

(١) الإشارة إلى ابنة مطيع بن
 إلياس.

- ت -

أَتَخِيلُ شِعْرِي غَرِيباً يَرُودُ الْأَزَقَّةَ
 فِي حَلَبٍ، تَتَمَرَأَى
 فِي خَطَاهُ شَبَابِيكُهَا،
 وَلَهُ ظِلُّهُ قِلَاعٌ، وَلَهُ الْفَجْرُ بَيْتٌ،
 لَا يُقِيمُ، وَلَا فُسْحَةٌ تَحْتَوِيهِ.
 أَتَخِيلُ شِعْرِي يَتَنَقَّلُ فِي هَمِّهِ
 (هَمُّهُ أَنْ يَدَبَّرَ طُوفَانَهُ)
 عَشِيقُ الْأَرْضِ، حَبْرُ الْفُصُولِ، الرَّحِيلُ
 وَلَهُ فِيهِ حَظُّ الرِّيحِ،
 وَأَنْشُودُهُ الْمُسْتَحِيلُ.

- ل -

هذا كتاب المانوية:

وَرَقٌ صَقِيلٌ^(١)

وَالْحَبْرُ أَصْفَى مَا يَكُونُ، غِلَافُهُ
 نَقْشٌ وَزْرَكُشَةٌ - لِهَذَا
 رَدُّوا ذُبُوعَ الْمَانَوِيَّةِ،
 وَهِيَ الضَّلَالَةُ عَيْنُهَا
 لَا حِكْمَةَ فِيهَا،
 وَلَا مَثَلٌ، وَكَلَّ كَلَامُهَا
 يُشْتَقُّ مِنْ سَوَاءِ الطَّوِيَّةِ.

(١) وصف الجاحظ كتب
 المانوية، قائلاً:

«لا تفيد علماً ولا حكمةً
 وليست مثلاً سائراً، ولا خيراً
 ظريفاً، ولا صنعةً أدب،
 ولا حكمةً غريبة، ولا فلسفة
 ولا مسألة كلامية»

(...) «أجود ما تكون
 الكتب ورقاً يكتب عليه بالحبر
 الأسود البراق، ويُستجاذ له
 الخط».

(الحيوان، الجزء الأول).

* كلما قال: هذي طريقي
 إلى ناري الآتية،
 أجفل الضوء فيه،
 وتراءت له طرقٌ ثانية.

(١) سُمِّي الخليفة المهدي
«قَضَاب الزنادقة».

غَنَى لها

لهوائِها ولمائِها ولأَرْضِها،

غَنَى لكلِّ حروفِها:

صَوْتِي ذِرَاعُ

وهوأي خَاصِرَةُ الكَلَامِ.

لِمَ لَا تَكُونُ الْأَبْجَدِيَّةُ حُبَّهُ

وسريرُهُ،

ويكون حَارِسُهُ الْهُيَامُ؟

- م -

الْمَهْدِيُّ «القَضَابُ»^(١)

أَمِيرُ الْقَتْلَةِ:

هذا ما قالوه عنه.

وقالوا:

كان الإنسانُ أَحْسَنَ

وأدنى

بين يديه، مِنْ بَصْلَةٍ.

- ن -

مُرْسَلٌ أَنْتَ أَيْضاً؟

أَفَلَنْ تَفْهَمَ السَّمَاءَ

أَنْ وَجْهَ التَّخِيلِ وَوَجْهَ التَّجِيلِ،

على أَرْضِنَا،

سَوَاءٌ؟

* قال لِلشَّمْسِ: خذيني

طَيِّبٌ أَنْ نَدْخُلَ الْآنَ إِلَى وَاحِدَةٍ

نَخْلٍ،

وأرى جِسْمَكَ ظِلًّا،

وأرى جِسْمِي مَرْسُومًا عَلَى

أَغْصَانِهَا.

- س -

- «هل تجوزُ له الإستتابة؟»

- لا تصحُ

كما يأمرُ الشرعُ، إلّا...

- هُوَذَا طائرٌ

خُذْهُ واذْبَحْهُ. هذي

صُورَةٌ لِنَبِيِّكَ: أَبْصُقْ عَلَيْهَا وَعَلَى

الْمَانَوِيَّةِ - أَعْمَالِهَا،

وَأَقْوَالِهَا،

وَالْكِتَابَةِ»^(١).

- ع -

طلبَ الشاعرُ^(٢) العَفْوَ،

لكنهم قتلوه.

- خ -

أَخَذَ اللَّيْلُ مِنْ حَلَبٍ سَاعِدِيهَا

أَخَذَ الْفَجْرُ شُبَاكَهَا، -

سَفَرٌ

تَتَحَوَّلُ فِيهِ الْجِرَاحُ إِلَى أُغْنِيَاتٍ.

سَفَرٌ... .

سَنَقُولُ الصَّحَارَى سَقَتْنَا رَحِيقَ أُسَاطِيرِهَا

وَنَمْتُنَا فِضَاءَ أَثْهَا،

وَسَنَرْجُو،

بِأَسْمِ أَحْلَامِنَا،

أَنْ تَنَامَ التَّوَافِذُ عُزْيَانَةً،

وَتَسُوسَ السَّمَاءَ فِرَاشَاتِهَا.

* إِنَّهَا الشَّمْسُ تَوَاحِيهِ، وَتَسْتَرْسِلُ

فِي مَرْجٍ هَوَاهَا بِهَوَاهُ، -

مَا الَّذِي يَرْتَسِمُ الْآنَ عَلَى أَهْدَابِهِ،

مَا الَّذِي تَحْتَضِنُ الْآنَ يَدَاهُ؟

(١) يُرَوَى أَنَّ الْقَاضِي كَانَ
يَطْلُبُ مِنَ الْمَتَّهِمِ بِالزُّنْدَقَةِ فِي
اسْتِتَابَتِهِ، أَنْ يَبْصُقَ عَلَى
صُورَةِ مَانِي، وَأَنْ يَذْبَحَ
طَائِرًا، وَكَانَتِ الْمَانَوِيَّةُ تَحْرَمُ
ذَبْحَ الْحَيَوَانِ.

(٢) هُوَ صَالِحُ بْنُ
عَبْدِ الْقُدُّوسِ الَّذِي حُكِمَ
بِتَهْمَةِ أَنَّ شَعْرَهُ يَظْهَرُ الْحِكْمَةَ
وَالْفَضِيلَةَ، وَيُبْطِنُ الشَّنَوِيَّةَ
وَالزُّنْدَقَةَ. وَقَدْ طَلَبَ الْعَفْوَ،
لَكِنَّهُ قُتِلَ.

- ف -

- قل لي،

ما ذا تحفظ من آيات

القرآن؟

...-

- لاشيء؟ معاوي، قم

واقتل.

- ولدي! لا أقدر،

- قم يا عبد اقتله،

أقتل هذا الشيطان^(١).

- ص -

لا مأوى

لِلشُّكَّاءِ، وللخلعاء،

وأهل الكُفْرِ،

إلا القَبْرِ.

- ذ -

حَلَبٌ - أَتَخِيلُ أَيَّامَهَا

تَتَفَتَّحُ مِثْلَ الزَّهْرِ

في فضاءِ البَشَرِ

هو ذا عهدُنا، -

سَنَكُونُ لَهَا نَبْضُهَا

سَنَكُونُ لَهَا صَوْتُهَا.

باسم هذا اللَّهَبِ

سَأُسَمِّي السَّرَابَ تَرَاباً

والبِلَادَ وآفاقها حَلَبٌ.

* لا يقولُ لهذا الدَّمِ المتملِّمِ في

جسمه

المضطربِ

غيرَ ما قاله مراراً: إغْتَرِبْ، إغْتَرِبْ.

(١) حوار بين الخليفة
المهدي وعبد الله بن
معاوية بن يسار بحضور أبيه
معاوية وكان من وزراء
المهدي، حيث تم قتل الابن
بيد أحد العبيد.

- ض -

ما أقولُ لهذي الدُّروب، لِتلك

الدُّروب التي سَبَقَتْها، وما ذا أقولُ

لِذاك الورَق؟

لِلهُيام الذي مرَّ في حبره واحتَرَق؟

ما أقولُ لشعري فيها،

وهو المُلْتَقَى، وهو المُفْتَرَق؟

(١) هو آدم حفيد الخليفة
عمر بن عبد العزيز. ضربه
المهدي ثلاثمئة سوط بتهمة
الزندقة. كان يقول «والله
ما أشركتُ بالله طَرْفَةَ عين.
ومتى رأيت قرشياً تزندق؟
ولكنه طربُ غلبني، وشعرُ
طفح على قلبي، وأنا فتى من
فتيان قریش أشرب النِّبِذ،
وأقول على سبيل المجون».

(٢) إبراهيم بن سِيابة، كما
وصفه الأصفهاني.

- ق -

لم يكن آدم^(١) يتزندق،
ما قاله

جاء فيضاً على القلب،
من طربٍ واثِشاءٍ.

كان هذا مُجوناً،

ويؤكد أصحابه:

لم يكن آدم مُشركاً.

- ر -

كان خليعاً^(٢)

يَهوى العِلْمان

ويَعيش رفيقاً للمجان.

* لبسَ النُّورَ ليحيا في اللّيل بعيداً،

ولكي يَبْقَى

لامرئياً.

- ش -

سوف أصليهم كلهم^(١) -

نصبوا ألف جذع

كي يدلّوا

فوقها - واحداً واحداً.

- ت -

استثنى هارون^(٢) زنادقة

من عفو أضدره.

- ث -

لا أبدئي

إلا في موج الزائل

هات المعنى، ياسيد عمري،

واسكنه في هذا السائل.

- ظ -

يهبط الليل - أحلامنا

سرر وثياب له.

يشرق الفجر - أعمالنا

وأقوالنا

سفن وبحار له.

يربط الوقت أهدابه بميثاقنا.

هتيء الجبر، أنصت لما سنقول

وما نفعل،

أيها الزمن المقبل.

* هوذا يحمل روحين لكي يدخل في

دفء حلب:

روح ليل أشعل الكوفة قنديلاً،

وروحاً للغضب.

(١) نصب الهادي ألف جذع
لصلب الزنادقة قائلاً:لئن عشت لأقتلن هذه الفرقة
كلها، حتى لا أترك منها عيناً
تطرف.(٢) استثنى الخليفة الرشيد
الزنادقة من عفو عام أصدره
سنة ١٧٠ هـ = ٧٨٦ م.

- غ -

هذي، إذن حَلَبُ:

شهباء تضربُ فيها الشمسُ خيمتها

يحققها الثَّينُ والزيتونُ والعنبُ.

يا للبياض - صعدنا في مدارجه

نعلو، نُقَابِسُهُ

وَنَسْتَشِفُّ، وَنَسْتَصْفِي، وَنُخْتَلِبُ

تُضِيئنا نارُ جَبْرِ لا نَفَادَ لَهُ

وَتَسْتَضِيءُ به الأَقْلَامُ والكَتَبُ

في سَيْرِنَا من مراسي جمره لَهَبُ

وفي مسالِكنا مِنْ ضوئه شَهَبُ.

* شِعْرُ طِفْلٍ

يتشردُ في فَلَوَاتِ المعنى

العالمُ فيه فَرْدُ

والشاعرُ - حيناً جَمْعٌ، حيناً ثالوثُ،

حيناً مثنى.

- خ -

أَلَفَ ابْنُ عطاء^(١)«ألفَ مسألة» كي يردَ على
الزنادقة،هكذا فَعَلَ ابنُ الحَكَمِ^(٢)
ومحمد^(٣) والحسنُ الموسويُّ^(٤)
وأحمد^(٥) والليث^(٦)، ثم
أضافوا:الرازي^(٧)والمسعودي^(٨)وأبو عثمان الرقي^(٩).

(١) واصل بن عطاء.

(٢) هشام بن الحكم «الردَّ على الزنادقة»، «الردَّ على أصحاب الاثنين».

(٣) أبو علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي: «الردَّ على أصحاب التناسخ والخرمية».

(٤) أبو محمد الحسن بن موسى النوبختي: «الردَّ على أصحاب التناسخ».

(٥) أحمد بن حنبل: «كتاب الردَّ على الزنادقة والجهمية».

(٦) أبو الربيع محمد بن الليث الخطيب: «كتاب الردَّ على الزنادقة».

(٧) أبو بكر محمد بن زكريا الرازي. «الردَّ على المانوية».

(٨) المسعودي: «الإبانة في أصول الديانة».

(٩) أبو عثمان الرقي: «الردَّ على الملحدين وأصحاب الاثنين».

هوامش



أنا الغريقُ،
فما خَوْفي من البَلَلِ؟

المتنبي

رابعة العدوية

توفيت نحو سنة ١٣٥ هـ.

بيعت كمولاة لأحد التجار.
احترفت العزف والغناء، ثم
تصوّفت. قالت بفكرة «الحب
الإلهي» وأولت الوصف
الحسي الشهواني في القرآن،
رمزياً، وروحياً.

قُلْتُ أَضْنَاكَ جَمْرُ النُّحُولِ، وَلَكِنْ
أَهْنَاكَ لِلْحَبِّ ثَوْبُ
غَيْرِ مَا يَنْسُجُ النُّحُولُ.

السَّلامُ عَلَى بَرْي أَقْلَامِهِ،
وَالسَّلامُ لآثَارِهِ - لِدَوْرٍ
تَتَأَلَّفُ فِي ظِلِّهِ
وَتَقُومُ وَتَقْعُدُ فِي دَارِهِ.

عِطْرُكَ الْآنَ يَرْوِي أُسَاطِيرَ عُشَاقِنَا
وَرْدَةً وَرْدَةً،
فِي كِتَابِ الْحَقُولِ.

أبو دلالة

كوفي، اسمه زيد بن
الجون

كان كما يروون «عبدًا حبشيًا
فصيحًا، خليعًا ماجنًا». توفي
سنة ١٦١ هـ.

ذلك السيد الماكرُ الماجنُ :

شعره وجهه -

فيهما يصبح السوادُ بياضاً

والبياض سواداً،

وتُلَوَّنُ لِلْخَمْرِ قُمصانُها.

لم يُطَقْ كأسه السالفون، وأعرضَ عن لمسها

ماؤهم، -

ماؤهم آجنُ آسِنُ.

سفيان الثوري

توفي سنة ١٦١ هـ.

والنص قائم على حوار بينه
وبين الخليفة المهدي.

(١) أحد الأشخاص من بطانة
الخليفة.

- قل لماذا تفرّ هنا وهناك مِنّا؟

أتظنُّ بأنّا

لو أردناكَ نَعجزُ؟ قُلْ لي ماذا

نحكم الآنَ فيكَ؟

- إلهٌ قادرٌ عادِلُ

حاكِمٌ فيكَ: يَثبُتُ حَقُّ

وَيُزْهَقُ، في حكمه، الباطِلُ.

- ماله الجاهِلُ؟

أبهذا يُقابِلُ من كان مثلك؟ إِيذَنُ لَأُضْرِبَ^(١)...

- وَيلَكَ، أُسْكُتْ

لا يريدُ سوى ذاك: يمضي سعيداً

ونشقى نحن في قَتْلِهِ.

اكتبوا عهده قاضياً لا يُرَدُّ له أيُّ حُكْمٍ.

كتبوا عهده في كتابٍ، ولكنَّ سفيانَ فَرَّ، وألقى
بالكتابِ إلى دجلةِ.

إبراهيم بن أدهم

توفي سنة ١٦١ هـ. وهو
زاهد ومتصوف مشهور.

لا أريد قميصاً،

ولن أتعّم في الصيف. أمشي

حافياً مثل غيري من الفقراء، وأحيا

عاملاً في الحصاد، وفي الحمل والطحن، سُحقاً

للسلاطين والأغنياء.

لا أريد سوى فَرَوَةَ في الشتاء،

وأصومُ كأنّي لا مُلكَ، لاشيء في الأرض عندي،

سوى شمسها والهواء.

مطيع بن إياس

توفي سنة ١٦٩ هـ. أنهم
بالزندقة.

هَذَا الْوَلَهُ الْمَتَفَجِّرُ فِينَا لَكِي يَغْبِرُ

الْحَبُّ طَلَقًا

إِلَى هُوَّةِ الْفَجِيعَةِ،

أَوْ مُخْدَعِ الْحَبِيبَةِ، -

فَاغْفُرِي مَا تَقْدَمُ أَوْ مَا تَأْخُرُ مِنْ ذُنُوبِنَا

(إِنْ حَسِبْتَ خَطَانَا ذُنُوبًا)،

يَا جَسُورَ التَّعَقُّلِ، يَا هَذِهِ الْجَسُورَ الْغَرِيبَةَ.

السيد الحميري

توفي السيد الحميري
سنة ١٧٣ هـ.

لم يَتَلْ شعرة

في الرواية ما يَسْتَحِقُّ، وفُسِّرَ هذا:

«كان يَهْوَى بني هاشم». وأضافوا:

«كَانَ يُفْرِطُ فِي النَّيْلِ مِنْ بَعْضِهِمْ،

وَمِنْ بَعْضِهِنَّ - نِسَاءِ النَّبِيِّ،

وَصَحْبِ النَّبِيِّ».

(١) الناقد هو أبو عبيدة
معمربن المثنى.

وتقول الرواية عن ناقد كان من صفوة العارفين

أَنَّهُ قَالَ: «بَشَارُ وَالْحَمِيرِي

أَشْعَرُ الْمُحَدِّثِينَ»^(١).

الخيزران

ماتت في سنة ١٧٣ هـ.
أخذت العلم عن الإمام
الأوزاعي.

قُتل ابنها الهادي بأمرٍ منها:
جلست جواربه على وجهه
وخففته.

شهوة الخيزران

تسهر الأرض فيها، جحيمية الوقت،

فراسة المكان

وتؤسس فيها النساء

للهباء الذي لا يغني لغير الهباء.

أبو إسحاق الزُّهري

- ١ -

ضربَ العودَ غَنَى عليه، وأبَاحَ السَّماعَ
كان من علماء الحديث.. تولَّى القضاء ببغداد،
كان البخاري يروي له، وروى مسلمٌ له.
هكذا، سوف نمضي إليه، ونسألُ:

ماذا سنُعْصِي

وكيف نُطِيعُ الذي لا يُطَاعُ؟

- ٢ -

أَعْطِ الموسيقى

أَجْمَلُ ما يعطيه

رجلٌ لحبيبتِه.

نَاغِ العودَ أَطْعُهُ، واجمِخْ مَعَهُ، وأَبِخْ

شَهواتِ العَزْفِ، اصْأَعِذْ فيها، واهْبِطْ

أَنِّي شئتُ، وكيف تشاءُ

واغْبِطْ من غَنَى

من قال الموسيقى

لغةٌ أخرى للأشياءِ، وَأَرْضُ أخرى للأشياءِ.

موسيقار ومن العلماء
الثقات بالحديث. روى له
البخاري ومسلم. ولي القضاء
ببغداد. كان يبيع السَّماعَ،
ويضرب العودَ، ويغني عليه.
توفي سنة ١٨٤ هـ.

سَلَمُ الخاسر

مات سنة ١٨٦ هـ. ماجن
فاسق من تلامذة بشار وسمي
الخاسر لأنه ورث من أبيه
مصحفاً فباعه واشترى بثمانه
طنبوراً.

يقول بشار: من راقب الناس
لم يظفر بحاجته

وفاز بالطيبات الفاتك اللهب.

ويقول سلم الخاسر: من
راقب الناس مات غمماً/ وفاز
باللذة الجسور.

هي مفتونة، وأنا شهوة

وكلانا بلا مرفأ:

كيف نرسي معاً، ونفوض للموج أثقالنا؟

هي ذي نشوة

لذئاب تباريحنا

تتلقف أحشاءنا -

أتراها ستجتث أحزاننا ومراراتنا؟

أتراها ستمحو الدروب التي شقها الموت فينا؟

آه، طنبور تيهي صاخب حائر -

هو صنو الحياة، ورابح أقداحها

وأنا الخاسر.

جعفر البرمكي

(١) هذه الأبيات صياغة وتنويع.

فقد قال هارون الرشيد مرة،
بعد قتله جعفر البرمكي،
كلاماً بالمعنى نفسه.

قال هارونُ يرثيه (هل كان يضحكُ،

أم كان يبكي؟):

يا أخي^(١)، لا يُطيقُ الفلَّكُ

كوكبينِ يجيئانِ في زمنٍ واحدٍ

ويخطَّانِ وَجْهيهما بغدٍ واحدٍ،

ولذا أَسْتَمِيحُكَ عُذْرًا،

فلا بُدَّ أَنْ أَقْتَلَكَ.

دفاتر الفلك

سيمائي

لقيطُ النجوم

اسمه أبجد

(١) «التاريخ يوم ينسب إليه
ما يأتي بعده».
(المقريزي، الخطط، ص
٤٦٩).

*

«تاريخ كل شيء آخره،
وهو في الوقت غايته، يقال:
فلان تاريخ قومه، أي إليه
ينتهي شرفهم».

(قدامة بن جعفر،
الخراج: ذكره المقريزي،
الخطط، ص ٤٨٤).

*

«فأما التاريخ، فأول من
فعله في الإسلام عمر بن
الخطّاب».

(...) فقليل له: لو
أرّخت يا أمير المؤمنين لكنت
تعرف الأمور في أوقاتها.
فقال: وما التاريخ؟ فأعلم ما
كانت العجم تفعله. فقال:
أرّخوا».

(المبرد، الكامل: ١٤٣/٢).

*

(٢) بينهم علي بن دينار،
الشاعر والخطاط، الزاهي،
الشاعر والمتكلم، ابن نباتة،
الخطيب.

*

صديق للمتنبّي ونجّي لأهوائه

يعيش على قارعة الهواء في سفر دائم، يقرأ دفاتر
الفلك ويؤرّخ^(١) للمدن.

في حلب، انضمّ إلى حلقة الأصدقاء^(٢) الذين كانوا
يتدارسون شعر المتنبي في ضيعته، الصّف، قرب
المعرّة، أو في بيته، في سبعين، بباب حلب. كان
أبجد يسمر معهم الليل، ويروي لهم سيرة المدن التي
عرفها. وكان بين ما يرويه وشعر صديقه مطابقات
غريبة يحارون أحياناً في تأويلها. غير أنّ ما يرويه،
وهذا ما يعترف به، كان مليئاً بالرموز والإشارات،
وهو إذن، ليس سهلاً على الفهم.

دوّن علي بن دينار رواية أبجد كما سمعها، مضيفاً
إليها تأملات أبجد وانطباعاته الخاصة التي كان يدونها
في دفتر خاصّ سمّاه «دفتر الذكري»، نقله علي بن
دينار بخطه.

تنشر الرواية والمذكرات، هنا، للمرة الأولى طبقاً
لأصلها في المخطوطة التي تركها علي بن دينار.
الرواية مكتوبة بصيغة الضمير الغائب، هو.
والمذكرات مكتوبة بصيغة المتكلم، أنا.

زاد أدونيس على الرواية أشياء جدّت في العصور التالية
لعصر المتنبي، وأشياء رآها في العصر الحاضر،
خصوصاً في ما يتعلّق بمدينة حلب وقلعتها.

الرواية

I

القلعة^(١)، -

(١) «حلب، اسم كان في البدء لقباً للتل الذي تقوم عليه القلعة. ويروى أن سورية هي الشام الأولى، وهي حلب وما حولها من البلاد. وفي طرف حلب بناحية الأحص، مدينة عظيمة دائرة، وبها آثار قديمة يقال لها سورية، وإليها يتسب القلم السورياني.

وقيل كان إبراهيم الخليل، حين يمضي شمالاً، من الأرض المقدسة، ينتهي إلى ذلك التل - يضع أثقاله ويبت رعاة قطعانه من الغنم والماعز والبقر، إلى الفرات وما حوله، وإلى الجبل الأسود الذي هو جبل الأمانوس.

لا يجفّ دم الحرب، قَتَلها كمثَل إِبْر في يد الرّيح،
تخيَط لِلزّمن ثوبه الأكثرَ التصاقاً بجسده. قد يتغطى
هذا الدّم، حيناً، بالكلام. قد يختبئ، حيناً، تحت
غبارٍ ما. لكن يكفي أن ترى إلى المكان الذي سال
فيه، أو يكفي أن تتنبّه إلى كلمةٍ أو إشارةٍ أو حدث
حتّى ينبجس.

لا يجفّ دم الحرب

في المدن التي بنيت على صورة القلعة،

في القلعة التي بنيت على صورة المدينة الأولى.
كانت الملائكة قد جرّت الشّمس إلى باب القلعة.
ورأى أبجد في ضوئها، أنّها بدأت خطواتها في أيّام
سلوقس نيكادور، قبل المسيح بثلاث مئة واثنين عشرة
سنة. ولما صار فيها تلامذة للمسيح، أخذ يتعاش
تحت رايتها عابِدُو السّماء: يهوداً ونصارى،
والسّاجدون لوجه الحجر الذي كان يُسمّى صنماً،
والسّاجدون للنّار.

ثم هللت لخيول أبي عبيدة وسيوفه .

هكذا شعر أنه يجيء إلى القلعة من لا جهة،
أعني من تلك الجهات الخاصة حيث تبتكر الأسلحة
التي لاتشيخ، وحيث تظل النباتات في سهر دائم .
وكان قد نزع أقفال المتاهات وغير أسرارها .

- كيف ستواجه، إذن، سبعة آلاف من السنين؟ سألته،
من بعيد، حجارة كلسية بيضاء .

تلك هي أزمان، كما يقول رقيم من إيبلا .

وهي نفسها حلب، كما يقول رقيم من ماري .

وهي نفسها بيروا، مسقط رأسه - عنيت والد الإسكندر
المقدوني،

أسماء كثيرة لحجر واحد!

قال في نفسه: استأذن أرسطو تلميذه الإسكندر للبقاء
فيها حتى يشفى، فمن تراني استأذن لكي أدخل إليها؟

كان مضطرباً كمن يشاهد ذاكرته تنتقل في غابة كمثل
يمامة خائفة . لم يبح لأحد باضطرابه . وكانت اللغة
تغلغل هاربة منه، في الأشياء، التي تتغلغل في أحشاء
القلعة .

وقيل كان الفقراء يجيئون
إليه من كل ناحية في
الشمال . كان يأمر الرعاة
بحلب ما معهم طول النهار،
وإعداد الطعام ووضع هذا كله
في الطرق التي تحيط بالتل .
وكان الفقراء الوافدون
يهللون، قائلين:

حلب إبراهيم!

وقيل إن إبراهيم لما قطع
الفرات من حران (عرفت
أسماء عديدة: أوديسة،
أداسا، الرها، أورفة - اليوم)،
وكانت مدينته الأولى، وفيها
رُمي بالنار، أخذ يتصدق على
الكنعانيين من قطعانه . وفي
أرض حلب، حفر لهم الآبار
والأعين، ومنها العين التي
سُميت باسمه، وهي التي
بنت عليها مدينة حلب .

وفي رواية أن بطليموس
هو الذي بنى مدينة حلب
وسماها أشمونيت، ومعناها
عين الماء . ورأى الأعين التي
بحيلان وهي من قرى حلب
العامرة، فأمر المهندسين أن
ينوا المدينة، وأن يجرّوا هذه
الأعين إليها في قساطل .
وآخر ما بني فيها باب
أنطاكية .

أخذته نشوة الكتابة : لا يهبط الإنسان في الشيء
إلا وهو يهبط في نفسه .

هل سينبش القلعة ويقولها، كأنه ينبش جسده
والمدن التي زارها؟ إذن، سوف يستأذن القلم - أول
الخلق .

احرسه، أيها الشعر .

وسوس له القلم : اقرأ، اقرأ أولاً أحشاء المدن
وأكبادها كما كان يفعل جدك المنجم الأول .

روى السلف الصالح «أن إبراهيم عرج إلى السماء،
فنظر إلى الأرض، واختار موضع المدينة الأولى،
الحرم، أو البيت الحرام . هبط، وبنى . جاء بالحجارة
من سبعة جبال، وقيل من خمسة : حراء، ثبير، لبنان،
الطور، الجبل الأحمر .

الملائكة هي التي نقلت الحجارة .

لما فرغ إبراهيم من بناء البيت الحرام^(١)، المدينة
الأولى، جاء جبرائيل وقال له :

- طُف به سُبْعاً .

طاف إبراهيم وابنه إسماعيل معه سُبْعاً، واستلما
الأركان سبع مرّات، ثم صلّيا خلف المقام ركعتين .
ثم أراهما جبريل المناسك : الصفا، المروة، منى،

وفي رواية «أن بلوكوس
الموصلّي هو أول من بنى
هذه المدينة . ويسميه
اليونانيون سردينيلبوس،
وخلفته على العرش ابنته
أطوسا المسماة سميرام .
وشاهد بعضهم على ظهر
كتاب عتيق في حلب على
باب أنطاكية كتابة باليونانية
هذه ترجمتها : «بنى هذه
المدينة صاحب الموصل،
والطالع العقرب والمشتري
فيه، وعطارذ يليه، ولله
الحمد كثيراً» .

(١) «جاء جبريل إلى النبي
(ص) وعليه عصاة حمراء،
وقيل خضراء، علاها الغبار :
- ما هذا الغبار، أيها
الروح الأمين؟

- زرت البيت . كانت
الملائكة مزدحمة على الركن،
وهذا غبار أثارته أجنحتها» .

*

«قال عمر بن الخطاب
لكعب :

- أخبرني عن البيت
الحرام .
قال :

- أنزله الله من السماء مع
آدم . قال له : هذا بيتي أنزلته

مُزْدَلِفَةً، عَرَفَةَ .

لَمَّا دَخَلَ إِبْرَاهِيمُ مِنْى هَابِطاً مِنَ الْعَقْبَةِ تَمَثَّلَ لَهُ إِبْلِيسُ
عِنْدَ جَمْرَةِ الْعَقْبَةِ .

قَالَ لَهُ جَبْرِيلُ :

- إِرْمِهِ .

رَمَاهُ إِبْرَاهِيمُ بِسَبْعِ حَصِيَّاتٍ، فَغَابَ عَنْهُ .

ثُمَّ بَرَزَ لَهُ عِنْدَ الْجَمْرَةِ الْوَسْطَى، فَقَالَ جَبْرِيلُ :

- إِرْمِهِ .

رَمَاهُ إِبْرَاهِيمُ بِسَبْعِ حَصِيَّاتٍ فَغَابَ عَنْهُ .

ثُمَّ بَرَزَ لَهُ عِنْدَ الْجَمْرَةِ السُّفْلَى، فَقَالَ جَبْرِيلُ :

- إِرْمِهِ .

رَمَاهُ إِبْرَاهِيمُ بِسَبْعِ حَصِيَّاتٍ فَغَابَ عَنْهُ .

مَضَى إِبْرَاهِيمُ فِي حَجَّهِ، يَرِافِقُهُ جَبْرِيلُ، وَيَعْلَمُهُ
الْمَنَاسِكَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى عَرَفَةَ .

- أَعْرِفْتَ مَنَاسِكَكَ؟

- نَعَمْ .

وَبِذَلِكَ سُمِّيتِ عَرَفَاتُ .

مَعَكَ، يَطَافُ حَوْلَهُ،
وَيُصَلِّي، كَمَا يُطَافُ حَوْلَ
عَرْشِي وَيُصَلِّي، وَالْمَلَائِكَةُ
هِيَ الَّتِي رَفَعَتْ قَوَاعِدَهُ .

(١) «قَالَ النَّبِيُّ (ص) لِعَائِشَةَ،
وَهِيَ تَطُوفُ مَعَهُ بِالْكَعْبَةِ،
حِينَ اسْتَلِمَ الرُّكْنَ: «لَوْلَا
مَا طَبَعَ عَلَى هَذَا الْحَجَرِ، يَا
عَائِشَةُ مِنْ أَرْجَاسِ الْجَاهِلِيَّةِ
وَأَنْجَاسِهَا، إِذَا لَا شَيْءُ فِيَّ بِهِ
مِنْ كُلِّ عَاهَةٍ. وَإِذَا، لِأَلْفِي
الْيَوْمِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ أَنْزَلَهُ اللَّهُ.
وَلَكِنْ اللَّهُ غَيَّرَهُ بِمَعْصِيَةِ
الْعَاصِينَ، وَسَتَرَ زِينَتَهُ عَنِ
الظُّلْمَةِ وَالْأَثَمَةِ، لِأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي
لَهُمْ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى شَيْءٍ كَانَ
بَدْءُهُ مِنَ الْجَنَّةِ» .

✽

«عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ:

خَرَجْنَا مَعَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ
إِلَى مَكَّةَ. لَمَّا دَخَلْنَا الطَّوْفَ،
قَامَ عِنْدَ الْحَجَرِ (الرُّكْنِ)
وَقَالَ: «أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ
لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَوْلَا أَنِّي
رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقْبَلُكَ مَا
قَبَّلْتُكَ» .

ثُمَّ قَبَّلَهُ، وَمَضَى فِي
الطَّوْفِ» .

✽

ثُمَّ أَمَرَ إِبْرَاهِيمَ أَنْ يُوْذَنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ . قَالَ :

- يَا رَبِّ ، صَوْتِي لَا يَبْلُغُ .

- أَذْنٌ ، وَعَلَيَّ الْبَلَاغُ .

عَلَى إِبْرَاهِيمَ الْمَقَامَ . أَشْرَفَ بِهِ حَتَّى صَارَ أَرْفَعَ الْجِبَالِ
وَأَطْوَلُهَا . جُمِعَتْ لَهُ الْأَرْضُ يَوْمَئِذٍ : سَهْلُهَا وَجِبْلُهَا ،
بَرُّهَا وَبَحْرُهَا ، إِنْسُهَا وَجِنُّهَا ، حَتَّى أَسْمَعَهُمْ جَمِيعاً .
أَدْخَلَ إِبْرَاهِيمَ فِي أُذُنِهِ . أَقْبَلَ بِوَجْهِهِ يَمِيناً شَمَالاً شَرْقاً
غَرْباً . قَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْحَجُّ إِلَى الْبَيْتِ
الْعَتِيقِ . أَجِيبُوا رَبَّكُمْ . أَجَابُوهُ مِنْ تَحْتِ التَّخُومِ
السَّبْعَةِ ، وَمَنْ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ
كُلِّهَا : لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ .

كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَحْجُ كُلَّ سَنَةٍ عَلَى الْبُرَاقِ .

وَقِيلَ حَجٌّ هُوَ وَإِسْمَاعِيلُ ، مَاشِيَيْنَ . بَعْدَ ذَلِكَ ، حَجَّتْ
الْأَنْبِيَاءُ وَالْأُمَمُ .

بَيْنَ الرُّكْنِ^(١) وَالْمَقَامِ وَزَمْزَمَ قُبُورُ تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ نَبِيًّا
جَاءُوا حُجَّاجًا . مَاتَ فِيهَا آدَمُ وَنُوحٌ وَهُودٌ وَصَالِحٌ
وَشُعَيْبٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ وَإِسْحَاقُ وَيَعْقُوبُ .

حَجَّ مُوسَى عَلَى جَمَلٍ أَحْمَرَ .

«كُنَّا جُلُوسًا فِي الْحَجَرِ ،
وَإِذَا نَحْنُ بِبَرِيقِ حَيَّةٍ ذَكْرٍ .
اِشْرَأَبْتُ لَهُ أَعْيُنَ النَّاسِ . طَافَ
بِالْبَيْتِ سَبْعًا . صَلَّى رَكَعَتَيْنِ .
قُلْنَا لَهُ : أَيُّهَا الْمَغْتَمِرُ ، قَضَى
اللَّهُ تُسْكُوكَ . بِأَرْضِنَا عَبِيدُ
وَسَفَهَاءِ نَخْشَى عَلَيْكَ مِنْهُمْ .
كُومَ بِرَأْسِهِ كُومَةً بِطَحَاءِ ،
وَضَعَ ذَنْبَهُ عَلَيْهَا ، وَسَمَا فِي
السَّمَاءِ» .

(١) قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ :
«جَمَعَ جِبْرَائِيلُ لَأَدَمَ ، الْحَجَرَ
وَالْحَدِيدَ . قَدَحَهُمَا ، فَخَرَجَتْ
النَّارُ . وَعَلَّمَهُ صَنْعَةَ الْجِرَائَةِ :
أَنْزَلَ إِلَيْهِ نُورًا كَأَن يَحْرُثُ
عَلَيْهِ ، قِيلَ هُوَ الشَّقَاءُ» .

*

(٢) مِنْ أَسْمَاءِ مَكَّةَ : بَكَّةُ ، أُمُّ
رَحِمٍ ، أُمُّ الْقُرَى ، صَلاَحُ ،
كُوْنُ ، الْبَاسَةُ ، الْحَاطِمَةُ .

«سَمَّيْتُ الْكَعْبَةَ لِأَنَّهَا
مَكْعَبَةٌ عَلَى خَلْقَةِ الْكَعْبِ .
وَسَمَّيْتُ بَكَّةَ لِاجْتِمَاعِ الرِّجَالِ
وَالنِّسَاءِ فِيهَا . أَوْ لِأَنَّ النَّاسَ
يَبْكُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي
الطَّوَافِ . أَوْ لِأَنَّهَا تَبْكُ أَعْنَاقَ
الْجَابِرَةِ» .

*

حَجَّ ذُو الْقَرْنَيْنِ مَاشِياً.

لَمَّا أَغْرَقَ اللَّهُ قَوْمَ نُوحٍ، رَفَعَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ^(١) إِلَى السَّمَاءِ. قَبْلَ إِغْرَاقِهِمْ، وَوَفْقاً لِرَوَايَةِ السَّلَفِ، لَمَّا تَابَ الرَّبُّ عَلَى آدَمَ، أَمَرَهُ أَنْ يَسِيرَ إِلَى مَكَّةَ^(٢). طَوَى لَهُ الْأَرْضَ، فَجَعَلَهَا خَطْوَةً. كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ حَزِيناً يَبْكِي. وَكَانَتِ الْمَلَائِكَةُ تَحْزَنُ لِحُزْنِهِ وَتَبْكِي لِبَكَائِهِ. عَزَاهُ الرَّبُّ بِخِيَمَةٍ مِنْ خِيَامِ الْجَنَّةِ وَضَعَهَا لَهُ فِي مَكَّةَ فِي مَوْضِعِ الْحَرَمِ. كَانَتِ الْخِيَمَةُ، كَمَا يُؤَكِّدُ السَّلَفُ الصَّالِحُ، يَاقُوتَةَ حُمْرَاءَ تَحْرُسُهَا الْمَلَائِكَةُ مِنْ سُكَّانِ الْأَرْضِ آنَ ذَاكَ: الْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ. وَمَنْ أَجَلَ الْمَلَائِكَةُ، حُرِّمَ الْحَرَمُ، خُصُوصاً عَلَى حَوَّاءَ، لِمَعْصِيَتِهَا. لَكِنْ اسْتَمَرَ آدَمُ يَلْتَقِي بِهَا. وَكَانَ إِذَا أَرَادَ لِقَاءَهَا خَرَجَ مِنَ الْحَرَمِ.»

✱

«فِي أَعْلَى مَكَّةَ مَسْجِدٌ يُقَالُ لَهُ مَسْجِدُ الْجِنِّ. يَسْمِيهِ أَهْلُ مَكَّةَ مَسْجِدَ الْحَرَسِ. وَيُسَمَّى مَسْجِدَ الْبَيْعَةِ، إِذْ يُقَالُ إِنَّ الْجِنَّ بَايَعُوا الرَّسُولَ (ص) فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ. وَقُرْبَهُ مَسْجِدُ الشَّجَرَةِ، يُقَالُ إِنَّ الرَّسُولَ (ص) دَعَا شَجَرَةً كَانَتْ فِي مَوْضِعِهِ، لِيَسْأَلَهَا عَنْ شَيْءٍ، فَأَقْبَلَتْ تَخْطُ بِأَصْلِهَا وَعُرُوقِهَا الْأَرْضَ حَتَّى وَقَفَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ. سَأَلَهَا عَمَّا يَرِيدُ، ثُمَّ أَمَرَهَا، فَرَجَعَتْ إِلَى مَوْضِعِهَا.»

✱

- أَدْرَكْتُ فِي الْبَيْتِ،
تَمَثَّلَ مَرْيَمَ وَعِيسَى؟

- «نَعَمْ، أَدْرَكْتُ تَمَثَّلَ
مَرْيَمَ مَرْوَقاً، وَفِي حَجَرِهَا
عِيسَى ابْنُهَا، قَاعِداً مَرْوَقاً.
وَكَانَتْ فِي الْبَيْتِ سِتَّةَ أَعْمَدَةٍ.
وَكَانَ تَمَثَّلَ عِيسَى وَمَرْيَمَ فِي
الْعَمُودِ الَّذِي يَلِي الْبَابَ.»
(حِوَارِ بَيْنَ ابْنِ جَرِيْجَ
وَسَلِيمَانَ بْنِ مُوسَى الشَّامِيِّ
وَعَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ).

✱

✱

«كانت الكعبة مبنية
برَضَم يابس ليس بمدر. كان
بابها بالأرض، ولم يكن لها
سقف وكانت الكسوة تُدلى
على الجدران من خارج
وتُربط من أعلى. كان في
بطنها إلى يمين من دخلها،
جُبٌ يوضع فيه ما يُهدى إليها
من مالٍ وجِلِيٍّ. على ذلك
الجُب حَيَّة تحرسه بعثها الله
منذ جرهم، ذلك أنه عدا عليه
قومٌ منهم سرقوا ما فيه مرة
بعد مرة. حرسته الحَيَّة
بعد ذلك خمسمئة سنة حتى
زمن قريش. وكان قرنا
الكبش الذي ذبحه إبراهيم
معلقين في بطن الكعبة. ثم
إن امرأة ذهبت تجمر الكعبة،
طارت من مجمرتها شرارة
أحرقت كسوتها. ثم جاء سيل
عظيم دخل الكعبة وصدَّع
جدرانها... إلخ».

✱

«كان عمر بن الخطاب،
إذا رأى البيت. قال: اللَّهُمَّ
أنت السَّلام، ومنك السَّلام،
فحَيِّنا رَبيَّنا بالسَّلام».

✱

كان البيت يدعى قادساً،
وناذراً، والقرية القديمة،
والعتيق».

«مرض آدم قبل أن يموت. لم يطل مرضه أكثر من
أحد عشر عاماً. قبيل موته، أوصى بعلمه كله إلى ابنه
شيث. أوصاه كذلك أن يخفي هذا العلم عن قابيل
وأبنائه لأنه قتل هابيل.»

(رواية ابن الأثير)

روى أبو هريرة أن الله قبض يديه، وقال لآدم:

«- اختر يا آدم.

قال آدم:

- أحببتُ يمين ربِّي، وكلتا يديه يمين.

فتح الله قبضته اليمنى، فإذا فيها صورة آدم
وذريته كلهم، وإذا كل رجل منهم قد كتب عنده
أجله.

وكان مكتوباً لآدم أن يعيش ألف سنة.»

(رواية ابن الأثير)

«عاشت حواء بعد آدم سنة واحدة.

لَمَّا ماتت، دفنت معه في غار في جبل أبي قبيس يقال
له غار الكنز. بقيا معاً حتى جاء الطوفان. أخذهما

نوح،

وضعهما في تابوت وحملهما في السفينة.

عندما غاضت الماء وانتهى الطوفان، ردهما نوح
إلى الغار وكانت حواء قد غزلت ونسجت وخبزت
وعملت أعمال النساء.»

(رواية ابن الأثير)

✽

«أزيل الحجر الأسود من مكانه مراراً. من جرهم
والعمالقة وخزاعة. وآخر من أزاله القرامطة، في السنة
٣١٩هـ. (وقيل ٣٢٠هـ.)، قلعوه وذهبوا به إلى
البحرين. أعاده الخليفة العباسي المطيع لله إلى
مكانه، ووضع له طوقين من الفضة.»

✽

«بنيت الكعبة إحدى عشر مرة:

بناية الملائكة، بناية آدم، بناية شيث، بناية إبراهيم
وإسماعيل، بناية العمالقة، بناية جرهم، بناية قصي،
بناية قريش، بناية ابن الزبير، بناية الحجاج. وبنيت
للمرة الحادية عشرة في السنة ١٣٠٩هـ، في عهد
السّلطان مراد.»

✽

«عن ابن عباس: «الركن
يمين الله في الأرض يصافح
بها عباده، كما يصافح أحدكم
أخاه.»

✽

«نزل آدم من الجنة ومعه
الحجر الأسود. لولا أن الله
طمس ضوؤه، لما استطاع
أحد أن ينظر إليه.»

✽

«عن عكرمة: «الحجر
الأسود يمين الله في الأرض،
فمن لم يدرك بيعة
رسول الله، فمسخ الحجر،
فقد بايع الله ورسوله.»

✽

«عن ابن عباس: «نزل
الركن وهو أشدّ بياضاً من
الفضة. ليس في الأرض من
الجنة إلا الركن الأسود
والمقام. هما جوهرتان من
جواهر الجنة. لولا ما متّهما
من أهل الشرك، ما متّهما ذو
عاهة إلا شفاه الله.»

✽

«يبعث الله الركن
الأسود، له عينان يبصر بهما،
ولسان ينطق به، يشهد لمن
استلمه بالحق.» (حديث).

✽

❖

قال سعيد بن المسيّب:
«أحلف بالله، ما أكل آدم من
الشجرة وهو يعقل. سقته
حواء الخمر حتى سكر، ثم
قادتة إليها، فأكل».

(١) ورد ما يشابه ذلك في
رواية على لسان النبي (ص):

«... خرجت مرة، فإذا

بجبرائيل على الشمس، جناح
له بالمشرق وجناح له
بالمغرب. فجئت مسرعاً،

فإذا هو بيني وبين الباب،

فكلّمني حتى أنست به. ثم

وعدني موعداً، فجئت له،

فأبطأ عليّ، فأردت أن أرجع،

فإذا أنا به وميكائيل قد سدا

الأفق. فهبط جبرائيل وبقي

ميكائيل بين السماء والأرض.

فأخذني جبرائيل، ثم شقّ عن

قلبي فاستخرجه، ثم استخرج

منه ما شاء الله أن يستخرج.

ثم غسله في طست من ذهب

بماء زمزم. ثم أعاده مكانه.

ثم لأمة. ثم ختم في ظهري

حتى وجدت مس الخاتم في

قلبي. ثم قال: اقرأ... .

فجعلت لا يلقاني حجرٌ

ولا شجرٌ إلّا قال: السّلام

عليك».

❖

قال كعب الأحبار (وقيل سليمان الفارسي): «شكت
الكعبة إلى ربّها ما نُصب حولها من الأصنام، فأوحى
الله إليها إني منزلٌ نوراً وخالقٌ بشراً يحثّون إليك حنين
الحمام إلى بيته. فسئل:

- وهل للكعبة لسان؟

قال:

- نعم، ولها أذانان وشفقتان.»

❖

«النظر إلى الكعبة عبادة. الدّخول فيها دخولٌ في
حسنة، والخروج منها خروجٌ من سيئة.»

❖

«من نظر إلى الكعبة إيماناً وتصديقاً، خرج من الخطايا
كيوم ولدته أمّه.»

❖

«إني لأعرف حجراً بمكة، كان يُسلم عليّ قبل أن
أُبْعَث»^(١). (حديث برواية مسلم)

❖

الذِّكْرَى

I

المدينة ألف

✱

في المدينة ألف،
يُضيف الصيادون إلى خيوط شباكهم خيوط أحلامهم:
لهذه ألوان الوقت،
ولتلك ألوان الموت.

✱

بعضهم يريد أن يصنع جثة للحرية
لكن بكلمات
لا يقدر هو نفسه أن يتفوّه بها.

✱

في المدينة ألف،
تكفي تعويذة واحدة - يُكتبُ الأبدُ على وجهها الأول،
والأزل على وجهها الثاني،
لكي يتموّج البحر في سُمّ الخياط،
ولكي تنبت للحجر أجنحة.

✱

حَجَرٌ في المدينة ألف، وجد نفسه فجأة أنه رأس
آدمي.

هذا الرأس وجد نفسه فجأة أنه مسخرٌ لقراءة كتاب في
مدح التاج. منذ تلك اللحظة تتبارى الرؤوس كلها في هذه
القراءة.

✱

كلا، لن أصف المدينة ألف بما كانت عليه، مثلاً،
مدينة الاسكندرية. كانت هذه المدينة توصف بأنها من الأمكنة
التي يباح فيها كل شيء، والتي يسافر إليها الإنسان لكي
يمارس حريته، دون أي قيد أو أي عائق.
كلا، لن أصف المدينة ألف بأنها «العاهرة الكبيرة»، أو
بأنها، كمثّل مدينة سدوم، رمز للحرية القصوى التي تتحول
إلى عبودية قصوى، والتي لا يمكن أن يطهرها إلا المطر الذي
يسيل ناراً... كلا، لن...

✱

المحو هو الهاجس الأول للمدينة ألف، لكنها تنسى
دائماً أن المحو، هو أيضاً، كتابة.

✱

تتسع المدينة ألف لكل شيء، إلا لذلك العضو الصغير
الجميل: القلب.

✱

يقال:

تخرج كلمات من أقفاص تملأ البيوت والشوارع في
المدينة ألف، - كلمات طويلة كالحبال،

ويقال :

ينطق بهذه الكلمات أشخاص لا يتحدثون إلا مع أشباح
تتقاسم المدينة ألف، كأنها أسرة ومقاصير.

بعضها، مثلاً: أيها الشقاء ستكون اسماً لهذا الوقت.
وبعضها: لم تعد تقدر أية نجمة أن تتسلل إلى غرفة
الشاعر. وبعض هذه الأسماء، مثلاً أخيراً: عبثاً، تفرع هذا
الباب الذي يسميه غيرك المستقبل.

※

يُروى أن للنهار والليل في المدينة ألف اشكالاً خاصة
بهما، لا يعرفهما النهار والليل في أية مدينة أخرى.

من ذلك، مثلاً، ان النهار يبدأ في المدينة ألف كأنه قيدُ
موصول بقيد آخر. صحيح أن له قدمين، لكنهما مأخوذتان
بتسلق جدران غير مرئية. أما يدها فترتقان دون توقف، ثوباً
منسوجاً من تلك الخيوط التي يعرفها أهل الاختصاص، والتي
تصل الرمل بالرمل. من ذلك أيضاً، أن له اذنين لا تسمعان
إلا الكلمات التي تنفخها شفتاه كمثّل الأنابيب، حيناً،
والكرات حيناً آخر، ولا تعرف عيناه أن تنظرا إلى أي شيء،
إلا بدءاً من النظر في مرآة الموت (وفي رواية ثانية: مرآة
الموتى). هكذا تعيش الحرية والحقيقة والحب والنور، وراء
حجاب. وحين تظهر، بين فترة وأخرى، تظهر إما مضرّجة
بالدم، أو مغمورة بالخجل.

ومن ذلك أن المدينة ألف ترفع هذا النهار علماً يخفق

على قصورها، وفي شوارعها.
هذا قليل من أشياء كثيرة تروى عن النهار في المدينة
ألف.

أما الليل فهو لا يوصف، أو لنقل: ليس في الحديث
عنه غير الحرج.

※

للأطفال في المدينة ألف غذاء خاص وغريب تستخرج
مادته من مسحوق الرعب. ولهم أسرة متقلبة تشبه الكهوف.

※

هل تعرف كيف ترتفع جدران الدم؟ كيف تتجاوز، أو
كيف تتنافر؟ أنت في المدينة ألف لا تتخيلها، بل تصطدم
بها.

※

حطت خوذة على خريطة المدينة ألف (الخريطة التي
بدت كمثال صورة بحجم التاريخ) وصاحت بملء معدتها:
أيتها الصورة، أنا المعنى.

المدينة باء

✱

تبدو الحياة في المدينة باء
ثوباً منشوراً على حبال من الكلام.

✱

مكتبة، في المدينة باء،
لا يرى الداخل إليها غير محابر لا حبر فيها، وغير
أقلام لا تكتب، وغير كراسٍ تجلس عليها دُمى بألوان زاهية
ومتنوعة. مكتبة، صممت على شكل ممحاة.

✱

قتل الأب في المدينة باء ظاهرة عامة. لكن معظم
الأبناء ينتحرون فيما يحاولون قتل آبائهم. ذلك أن معايير
هؤلاء الأبناء، ومرجعياتهم وبنابيع إلهامهم ولغتهم، الآباء
أنفسهم. والمشكلة، حقاً، في هذه المدينة هي انتحار الابن،
لا مقتل الأب.

✱

هل سأبدو مجنوناً، إن أكدت لمن يقرأونني الآن، أن
للكلمة في المدينة باء، وجهاً وقامةً وأطرافاً. أن لها باختصار
شكل الإنسان؟

✱

«الإنسان حيوان ناطق»، يقول أرسطو.

ويقول بهلول المدينة باء: «صحيح أن الإنسان حيوان
ناطق، لكنه لا ينطق إلا كذباً: إما لتحسين نفسه، وإما لتقبيح
غيره».

✱

هل تريد، حقاً، أن توقظ الآخر في المدينة باء، وأن
تفصح عن حقيقته؟
إذن أيقظ نفسك، وأفصح عن حقيقتك أولاً.

✱

لا يعرف الشاعر في المدينة باء، إن كان عليه أن يفرح
أو أن يحزن:

كلماته تُحرق، كل يوم،
وكلما نضجت جلودها بُدلت غيرها.

✱

المهم في الشعر، بالنسبة إلى المدينة باء، هو رؤية
أسنانه، خصوصاً الأنياب. عندما تراها، يسهل عليها - كما
تقول - فهمه وتقويمه.

✱

لابد من شكر خاص لسياسة الطبيعة في المدينة باء.
فهي تنزل المطر من غيمٍ كمثل غشاء البكارة.

✱

مدينة - صحراء لا ينقطع بريدھا
وليس في الرسائل غير الرمل .

✱

هینّ على اللذة جسد هذه المدينة،
ألهذا تُداهن الرّغبة الرّغبة،
ويغشّ العضو العضو؟

✱

عجباً! كلّ جميل في هذه المدينة يموت لحظة الولادة.
والقتل فيها نشيد لا تتسع لغيره حنجرة الريح .

✱

كلاً. أنت في المدينة باء لا تقيم بين جدار وآخر، بل
بين لحظةٍ وأخرى .

✱

تحت كل شارع في المدينة باء، شارع آخر
وفوقهما يد الغبار، -
مدينةٌ يسوسُها الغبارُ بغلمانه .

✱

كلّ في المدينة باء يحاول أن يتشبّه بالحجر، لكي يقدر
أن يتّسع، كمثله، لحضور الموت .

✱

خلسةً، كلّ ليلة،
تتسلل إلى المدينة باء أشباح من عالم آخر،
ملّت الجلوس في بيوتاتها.

✱

أقول لك، أيتها المدينة باء:
ليس جسدك إلا بذرة تُرمى في تربة جسد آخر.
وليست الروح إلا مظلة تسهر على الجسد وأحواله.
وأقول لك:
اسمك ممحوّ بك، مكتوبٌ بغيرك.
ولا تسلي عن الملح الذي يتكدس في أحشائك التي
تكاد أن تتحوّل إلى مملحة تتسع لأقطار الأرض.
لهذا لا تحب هذه المدينة الشعر إلا بشرط واحد: أن
يحملَ مطرقةً ويدور في الشوارع.

✱

من الأرض جاء كل شيء،
لكن بحيلة ما دبّرتها هذه المدينة، أو بعنفٍ ما تنازلت الأرضُ
للسماء عن حقوق ابتكاراتها جميعاً.
هكذا، كلّ يوم،
تعيد السماء تكوين هذه المدينة، وها هي صورتها،
اليوم:

جَسَدُ كمثل الإصبع
ينام في حضن كمثل الخاتم.

✱

للسهول التي تزنر المدينة باء،
لهياكل نباتاتها التي يرفعها في الهواء طقس الزرع
والحصاد، لآنية البخور التي تشكلها أنفاس البشر في لازورد
الأيثر، للأبواب والنوافذ التي تفتحها يد الشمس في فضاء
الشجر والسنابل،
لهذه جميعاً،

أقدم طبيعتي أنا الحائر المحير، وأتوسل للرعء أن يأخذ
بيدي. لعل في هذا ما يؤكد لك، أيتها المدينة، أن صوتي
فيما يتراجع عنك، يتقدم نحوك، وأنه فيما ينفصل عنك،
يتصل بك - لكن في طرف آخر لتاريخ آخر.

المدينة جيم

✱

الموت هو الذي استأثر بوضع قدميه على عنق هذه
المدينة،

والحياة هي التي أذنت له .

هكذا تعزف المدينة جيم حياتها على قيثار الموت .

✱

«رَدَّد آخر كلماتك . ضعها إداماً على رغيف اللحظات
التي بقيت لك» :

تلك هي لازمة لا تتوقف عن تكرارها أصوات غامضة
في فضاء المدينة جيم .

✱

لا تتميز المدينة جيم بالسلاسل التي تختص بالسهر على
الشفاه والأيدي والأقدام، فهذه سلاسل تعرفها معظم المدن .
السلاسل التي تتميز بها المدينة جيم نوع من السائل
الذي يجري في الكلمات، وفي النظر، وفي التَّبْصُر - أحياناً .
يتحول الخارج، بجهاته الأربع، إلى مستنقع تختلط به
هذه السلاسل وتتمازج . وغالباً، يتعذر التمييز بينها وبين
الهواء .

✱

لم أكد أتخيل حضوري في المدينة جيم، حتى خرج
مني عضو من أعضائي. خرج نافراً، غاضباً.
أكتب الآن لكي أعذر له، ولكي أعيده إلى مكانه.

✱

«ليس في الإمكان أحسن مما كان» تقول المدينة جيم.
لذلك ليس العالم، بالنسبة إليها، موضوع تغيير.
المسألة، كما ترى، هي أن يتآلف الإنسان مع العالم،
أن يتركه في سيورته، وأن يسايره.

✱

قرأت يوميات شاعر في هذه المدينة، اخترت منها هذه
الخواطر:

- أ - للكلمات في المدينة جيم رؤوس وأيدي وأرجل،
وليس لك أن تسألها، بل أن تتبعها.
- ب - يجب أن تُعطى للفكر في هذه المدينة وظيفة النار.
- ج - لا تأمل في فضاء آخر، ما دمتَ مُسجوناً في فضاء
الكلام.
- د - يكتب صديقي الشاعر بطريقة يبدو فيها كأنه هو
نفسه باريء اللغة.
- التحية له.
- يقول أيضاً مؤكداً أنّ الكلمات في المدينة جيم تهتيء
ثورتها الخاصة:

تنبتق لا من المعاجم، بل من قاع الجسد وأغواره،
من زواياه، ودوائره ومهاويه،
ثم تدخل في العالم وتدخله فيها - في عرس دائم.
حيث الغياب أجمل صورة للحضور،
حيث المحو نفسه تسمية جديدة للأشياء.
و - تأخرت كثيراً لكي اكتشف أن السماء ليست خارج
جسد الإنسان، بل في داخله.
ز - أقول لليقين أينما رأيت: شفتاك غيم،
وإن كان رأسك حجراً.
ح - كمثل السراب يتحرك الواقع في المدينة جيم.
لذلك لم يعد فيها مكان للحلم.
ط - كيف أغوي الأشياء لكي تذكرني بالكلمات التي
تقدر أن تفصح عنها؟
ي - كلا، لا يجوز أن يكون الشعر مصنوعاً من قبل
الناس أجمعين، ولا مصنوعاً من أجلهم، بل يجب أن يكون
مصنوعاً بهم.
ك - رأسي سجنٌ يغلق أبوابه على سجناء كثيرين، -
كيف أحرر غيري منه، إن لم أحرر أنا نفسي؟

*

الرهان، في كل تجربة كتابية عظيمة، خصوصاً في
المدينة جيم، ليس الكتابة، بل التاريخ.

*

احتفاءً بنفي الشاعر (وقيل بموته)،
عقدت السماء منديلاً أخضر حول خاصرتها، وأخذت
تراقص المدينة جيم.

المدينة دال

※

شكل الشيء في المدينة دال هو الشيء نفسه . والكلمة هي حروفها . أنت ، أيها المقيم فيها ، المأخوذ بالمعنى ، لا مدينة لك غير المجاز .

※

العلماء في المدينة دال يحملون دائماً فؤوساً تحمل علومهم . يربطون في الأزقة ، في الزوايا ، في الساحات ، وفي الأسرة - أحياناً . الرؤوس التي يسيطرون عليها ، يفصلونها عن رقابها ، ثم يصلونها ثانية . ويصح ، غالباً ، ظنهم : تنقلب هذه الرؤوس إلى فؤوس ، هي أيضاً .

هكذا نرى أن ما يسمى بالفكر في هذه المدينة مقبول لدى سكانها جميعاً ، خصوصاً أن رسالته هي أن يخلق التآلف بينهم وبين ما يسود .

هكذا تعود المواطن في المدينة دال أن يعمل الأعمال الباطلة وأن يكرر الأقوال الفاسدة .

مع ذلك ، لا تخلو الشوارع في المدينة دال ، بين حين وآخر ، من منشورات سرية ، يطيب لي أنا العابر ، أن أجازف فأثبت للقارئ بعضاً منها :

أ - منشور سري : « العمل حرية . من لا يعمل لا كيان له . باطل ، إذن ، كل عمل عمله لا يزيد في طاقتك ،

وفاسد كل يوم تعيشه لا يزيد في حريتك ومعرفتك».

ب - منشور آخر: «كل مواطن في المدينة دال ينصب نفسه ربّ عملٍ للوطن، بدلاً من أن يكون عاملاً. كأنّ المدينة عرش، وكل مواطن لا يبشّر بها إلا بوصفه الجالس على هذا العرش، أو بوصفه، وحده، الوليّ عليه. من أين لهذه السياسة العمياء أن تصنع مدينة بصيرة؟».

ج - منشور ثالث: «رفض الروماني سيللا^(١) (Sylla) أن يحكم شعباً من العبيد - كانت روما في أوج عظمتها. لم يكن يريد الحكم لمجرد الحكم. ولم يكن يريد أن يحكم، هو الحر، إلا أحراراً مثله».

※

ثمة في المدينة دال لحظات ميتة لها رائحة الحياة. وثمة لحظات حيّة لها رائحة الموت. ولماذا، أيتها المدينة التي اكتست بغبار السنايك عصوراً - لماذا تزدادين غباراً؟

كلا، لن أجلس حكمتك على سريري.

كلا، لن أداعب طفل الحاضر الذي تداعبينه.

※

من أين يجيء هذا الصراخ في المدينة دال؟ (ما أقوله هنا ينطبق على المدينة باء)، كيف يحدث أنك تحسه، تراه تلمسه، ولا تكاد أن تسمعه؟ للجدران هي أيضاً زفيرها، والفضاء نفسه شهيق.

تمحو السماء الأسئلة، ويرسو الزمن قرب العتبات
كمثل أقدام أضناها السفر.

ضعي كاحلك، أيتها المدينة، فوق الحروف. والتبس،
يا جسدها، بالكلام والصوت. يبدو أن السماء نثرت بذارها
فيك، مرة أخيرة وإلى الأبد.

※

أسدل الجسد ستاره المهدّب. أخذت كل نافذة في
المدينة دال ترهف أذنيها. وبدأ الليل يقطع الخيوط التي تربطه
بالكواكب وبساتينها. إن كانت هناك سعادة فهي بين فخذيك،
أيها الإنسان: تقول المدينة دال، وكان ليها الصوت الأول
الذي بشر بذلك.

※

المدينة دال (ما أقوله هنا ينطبق أيضاً وبشكل خاص
على المدينة باء)، مثقلة بأزل المعرفة، لكنها مع ذلك الريشة
والدخان. مولودة مع الماء الأول، لكنها مع ذلك المتقلبة أبداً
في رمل الموت. طالعة ضوءاً أول في سديم العالم، لكنها مع
ذلك التائهة في الظلمات.

لكن، لكن كم سأكون هائلاً عندما تقدر كلماتي أن
تصعد السلم الذي تصعد عليه مراراتها،
لكن، لكن سأظل أتنور بها.
وسأظل أناديها في هذا الرماد الغامر: أيها اللهب
العمودي!

✱

طريقُكَ في المدينة دال (وفي كل مدينة) لا تعطى .
وهي ليست طريق الآخر . طريقك هي بحثك عن الطريق .

✱

لا أستطيع أن أسقط إلا في حوض الدقيقة التي
أعيشها . وكل دقيقة سماء موصولة بسماء أخرى :
لا أستطيع إلا أن أعلو ، هكذا يقول الوحيد المتشرد
خارج المدينة دال .

✱

ستظلُّ طريقي هشة ومتعددة ،
ذلك أنها لن تمتد إلا بين المضيء والأكثر إضاءة .

✱

ما أكمل نظام المدينة دال ، وما أقوى أمنها :
وأكمل وأقوى ما فيهما ، الأرامل والكلاب ، -
الأرامل لتزين الشوارع
والكلاب للحراسة .

II

يقولون لي: ما أنت؟ في كل بلدة
وما تبتغي؟ ما أبتغي جلاً أن يُسمى.

المتنبي

- أ -

(١) إبراهيم الخليل.

حَلَبْ دَارُ هِجْرَتِي الْآنَ، كَانَ الْخَلِيلُ^(١)، كَمَا
 قِيلَ، يَأْتِي إِلَيْهَا مِنَ الْقُدْسِ، يَمْكُثُ فِي تَلَّهَا.
 تَلَّهَا قَلْعَةً - فِيهِ، قَالَ الرِّوَاةُ الثَّقَاتُ: بَنُوا
 لِلْخَلِيلِ مَقَامًا، وَلَهُ فِي الْمَقَامِ، كَمَا قِيلَ،
 جَزُنْ كَانَ يَحْلُبُ أَغْنَامَهُ فِيهِ - قَالُوا: مِنْ هُنَا
 سُمِّيَتْ حَلَبٌ بِاسْمِهَا، وَأَضَافُوا: حَلَبٌ قَلْبُ
 هَذِهِ الْبِلَادِ الَّتِي سُمِّيَتْ شَامًا، وَهِيَ مِنْ عَيْنِهَا
 النَّبِيَّةُ إِنْسَانُهَا. وَقَالُوا: بُنِيَتْ هَذِهِ الْمَدِينَةُ
 وَالطَّلَعَ الْعَقْرُبُ

وَعُطَارِدُ وَالْمَشْتَرِي فِيهِ . . .

- كُلُّ الْكَوَاكِبِ تَرْنُو لَصَوْتِكَ، يَا أَيُّهَا
 الْكَوْكَبُ.

- ذ -

إِبْتَدَغُ

تَتَزَنَّدَقُ،

أَوْ تَمْنَطُقُ

إِذَا شِئْتَ أَنْ تَتَزَنَّدَقَ.

- ض -

إِعْشَقِ امْرَأَةً

مِثْلَمَا يَعْشَقُ الْعَطَرُ أَكْمَامَهُ،

خَارِجَ الْقَيْدِ،

أَيَّا يَكُنْ، تَتَزَنَّدَقُ.

- ظ -

اكَتَبِ الْمَاءَ، مَاءَ الْحَيَاةِ، كَمَا

يَتَفَجَّرُ فِي صَدْرِهَا،

تَتَزَنَّدَقُ.

* كُلُّ مَا قَالَهُ،

كُلُّ مَا لَمْ يَقُلْهُ، وَمَا لَنْ يَقُولَ

كَتَبَتْهُ الْأَصُولُ، وَتُفْصِحُ عَمَّا تَسِرُ
 مِنْهُ -

الْحَقُولُ الرِّيحُ الْفُصُولُ.

- ب -

حَلَبٌ - نهرها، التلال، الأزقة،

أبوابها

وساحاتها

صور ولغات،

ودمي تُرجمان.

إِفْتَحِ البابَ كي تَلَمَسَ الضَّوءَ
والظِّلَّ معتنقين، وراء الشقوق
التي تتموج في ليله،
تترنّدق.

جسدي مائل

فوق ذاك الهبوب الخفي

الذي ينسج الزمان وأسراره

بخيوط المكان.

عَنُ للكوكب الذي يتلأأ في
غَيْهِبِ الشعر كي تتفتّح في
نوره،
تترنّدق.

قل: مللتُ من الغَيْبِ يُملِي عليّ
خرافاته، وأهواءه،
تترنّدق.

* يجلس الحلم في حلب، كلّ ليلٍ

معه نخلة

تجلس القرفصاء

كي تُمشطَ شَعْرَ السَّمَاءِ.

- غ -

إن تقل: شِغْرُ ابنِ جُرَيْجٍ وبني
فارس،

أَرَقُّ وأَجْمَلُ مِن شِغْرِ ابنِ كِلَابٍ
وبني مُرَّة،

تَتَزَنَّدَقُ.

أو تقل: لستُ أَذْبَحُ طيراً،

أو تقل: هذه الأرضُ ليست
بساطاً، ولكنها كُرَّة،

تَتَزَنَّدَقُ.

شُقُّ صَدْرِ الكلام،

لِتَعْرِفَ أَسْرَارَهُ،

تَتَزَنَّدَقُ.

- ج -

حَلَبٌ - شَهْرُ زَادِ الْأَسِيرَةِ

بَيْنَ مِيثَاقِهَا وَأَشْوَاقِهَا

أَسْلَمْتَنِي إِلَى نَارِهَا الْأَمِيرَةِ

وإِلَى نُورِهَا،

كَيْفَ أَرْجُو خَلَاصاً

مِنَ بَهَاءِ مَدَارَاتِهَا؟

وَأَنَا لَمْ أَكُنْ، مَرَّةً،

كوكِباً تَابِعاً - لَنْ أَكُونَ

جَسَدِي سُفْنٌ جَارِيَاتٌ

وَرُبَّانُهُنَّ الْجَنُونُ.

* حَبٌّ - لُغَةٌ:

كُلُّ حُرُوفِ الْعَلَّةِ فِيهَا، أَعْضَاءُ

وَسِوَاكُنْهَا

فُرُشٌ وَوَسَائِدٌ، وَالْأَيَّامُ نِقَاطٌ.

الرَّيِّعُ الَّذِي كَانَ يَبْنِي لِنَهْرِ قَوَيْقٍ

مُدْنًا مِنْ رِيَّاحِينِهِ

مَاتَ مُسْتَوْحِشًا:

هَكَذَا، كَانَ يَهْمِسُ لِي بَعْضُهُمْ،

وَيُثْنُونَ: كَلَّا،

لَمْ يُلَوِّخْ لَهُ أَيُّ بَابٍ، وَلَمْ تَتَقَدَّمْ

زَهْرَةٌ كَيْ تَقُولَ: وَدَاعًا.

وَحْدَهُ، تَمَّتَّ الشَّعْرُ: أَرْفَعُ هَذَا الرَّيِّعَ

إِلَى ذُرَوَاتِي

لِيَكُونَ مَلِيكًا عَلَيْهَا، وَرَفِيقًا لَهَا.

جَدَّ عَنْ السُّمُوتِ، سَمَتِ
العروشِ، وأبواقِها وتعاليمِها،
تترنّدق.

وَحُذِ الشَّمْسُ مِنْ خَارِجِ الحُرُوفِ
التي تتعقّن في حبرها،
تترنّدق،

واغترب، واضطرب وانخطف،
واجتهذ،
تترنّدق.

* زُرْقَةُ الصَّحْرَاءِ تَحْنِي رَأْسَهَا
وَتُحْيِي اللَّيْلَ: بَسْتَانُ نَجُومٍ
نَائِمٌ، وَالسُّحْبُ الْبَيْضُ لِحَافٌ.

كيف أَصَحُّ، وكيف أَصَحُّ نفسي؟
تَاهَتْ لَغْتِي
في حنجرتي.

(١) بين ١٦٤ - ١٦٥ هـ
شبت في سرقسطة حروب
مات فيها الكثير وقيل إن
الشخص الذي قاد هذه
الحروب ضد عبد الرحمن
الداخل واسمه الحسين بن
يحيى قُتِلَ «بطريقة بالغة
الوحشية».

- ١٠ -

سَرْقِسْطَةُ^(١) ميدانُ حَرْبٍ
بين أبنائها وأبنائها.
الأميرُ يُصَلِّي لِأَسْيَافِهَا
الماضية
والحسينُ بْنُ يَحْيَى -
بعضُ أَشْلَاقِهِ رَمَادٌ
بعضُهَا حَطَبٌ وَشَرَاذُ.

لا خيار:

تكونُ مع العرشِ،
أو في فم الهاوية.

أُتْرَاهُ الشَّعْرُ يَفْكَكَ جَسْمِي
وَيُبَغِّثُهُ
في أجسامٍ أُخْرَى؟
أُتْرَاهُ شِعْرِي مَوْتِي؟

* شُهْبٌ من كلامٍ أُحْرِقَتْ جِبْرُهَا،
غير أنَّ الورقَ
لم يَقْلُ كيف غَنَّى لها، وهَوَى
مثلها، واخْتَرَقَ؟

(١) يعقوب بن داؤد.
استوزره المهدي، ثم سجنه
وسجن عماله وأصحابه.

فِي يَدَي حَلَبٍ
يَتَقَلَّبُ مِثْلِي حَبْرُ الهمومِ،
والتَّجُومُ وبعض التَّسَاءِ
رِسُومٌ لَهُ،
وَمَرَايَا.

هَكَذَا تَهْجِسُ الشَّمْسُ فِيَّ،
وَتَهْجِسُ تِلْكَ التُّخُومُ
الَّتِي تَتَطَاوَلُ فِيمَا وَرَاءَ التُّخُومِ.

- ١١ -

- أ -

«وَضَعُونِي فِي جُوفِ بَثْرٍ،
طَالَ شُعْرِي وَاسْتَرَسَلَا
كَدْتُ أَفْقَدُ عَيْنِي» - هَذَا مَا حَكَاهُ
ابْنُ دَاوُدَ^(١) عَنْ سَجْنِهِ.

- ب -

حِينَ أُخْرِجُ مِنْ سَجْنِهِ، قَالَ:
«لَمْ يَبْقَ مُسْتَمْتَعٌ لشيءٍ،
فَخَذُونِي إِلَى مَكَّةَ».

* هُوَ، مِنْ يَاءِ هَذَا الزَّمَانِ إِلَى
الْأَلْفِ الْأَوَّلِ
قَلَقٌ ذَاهِبٌ
يَتَأَمَّلُ فِي قَلَقٍ مُقْبِلٍ.

- ز -

جامع موعِدْ

لطيوف تَجِيءُ بلا موعِدِ .

والمدينة شَحَاذَةٌ

تتمدّد في بابهِ ،

ضَفَرَتْ حُزْنَهَا أَكَالِيلَ غَطَّتْ بِهَا

كتفِئها .

وَجْهَهَا سَاهِمٌ يَتَسَاءَلُ :

ما ذلك المخبأ ،

مِنْ أَيْنَ يَأْتِي ،

وكيف سيأتي ؟

- ج -

وَضَعُوهُ عَلَى نَاقَةٍ وَإِلَى مَكَّةِ
أَرْسَلًا .

مَاتَ فِيهَا ،

تَهَكَّمُهُ شَاعِرٌ :

« قَدْغَ عَنْكَ يَعْقُوبَ بْنَ دَاوُدَ ،
جَانِبًا

وَأَقْبَلَ عَلَى صَهْبَاءَ طَيِّبَةِ النَّشْرِ » .

* أَخَذَتْهُ الرِّيحَانِ فِي حِضْنِهَا

شَرِبَتْ وَجَدَهُ وَسَقَتْهُ -

لَا يَزَالُ كَمَا تَرَكَتُهُ .

- ح -

أَحَدٌ: لَا أَذَانٌ، وَلَكِنْ

نَعَمْ آخَرٌ -

أَقُولُ لِأَجْرَاسِهِ:

أَمْسِكِي بِيَدَيَّ، خُذِينِي

مِثْلَ طِفْلِ يَسَافِرُ فِي ظَنِّهِ

وَيَجْرُ السُّهُولَ، يَجْرُ الْجِبَالَ،

بِأَعْتَةِ أَشْوَاقِهِ،

وَيَجْرُ الْخِيَالَ.

- ١٢ -

- أ -

أَوَّلُ الْمُحَدِّثِينَ ابْنُ بُزْدٍ^(١): هَكَذَا
أَجْمَعُوا.نَسَبَهُ إِلَى امْرَأَةٍ أَعْتَقَتْهُ مِنَ الرِّقِّ،
وَاتَّهَمُوهُ

بِالْفُجُورِ، وَبِالزُّنْدُقَةِ -

مَاتَ جَلْدًا: تَأَسَّسَ شِعْرُ

الْحَدَاثَةِ فِي مَخْرَقَةٍ.

(١) بشار بن برد. كان، فيما يُروى، يفضّل النار على التراب، ويصوّب رأي إبليس في امتناعه عن السجود لآدم. وذلك ما اعتمد عليه في اتهامه بالزندقة، وقتله. يقول: «الأرض مظلمة والنار مشرقة»
والنار معبودة منذ كانت النار.

* طمست جسدنا وجبر طفولتنا

لغة زائدة -

ألهذا، لم تصل بيننا

(كلّ تلك الجسور التي بيننا)، مرّة

واحدة؟

- ب -

راح يَهْذِي صَدِيقُ لَهُ:

«عَنْ يَمِينِي،

أَنْفُلْ بِاسْمِكَ، بَشَارُ،

أَنْفُلْ أَيْضاً

عَنْ يَسَارِي - أَسْجُدْ

لِلنَّارِ مِثْلَكَ، لَا لِلْمَلَائِكَةِ،

أَوْ آدَمَ».

- ط -

حَلَبٌ - أَلْفُ مُهْرٍ مِنَ الرُّومِ،

تَأْتِي إِلَيْهَا

هَرْباً، كُلَّ يَوْمٍ

كِي تُسَبِّحَ فُزْسَانَهَا

وَهِيَ تَهْرَبُ مِنْ نَفْسِهَا

كِي تُسَافِرَ فِي كُنْهِ أَحْوَالِهَا.

أَهْنَأْ، أَهْنَأْكَ مَنْ يَعْرِفُ الْكَلِمَاتِ الَّتِي تَتَشَهَّدُ
فِيهَا؟

أَهْنَأْ، أَهْنَأْكَ مَنْ يَتَفَهَّمُ عِطْرَ

الْجِرَاحِ، الَّذِي يَتَخَيَّرُ أَرْدَانَهَا؟

* فِكْرَةٌ تَتَوَهَّجُ فِي رَأْسِهِ:

نَجْمَةٌ تَضْحَكُ.

فَلِمَاذَا يُسَمَّى هُنَا مَانَوِيًّا،

أَوْ يُقَالُ هُنَاكَ لَهُ: مُشْرِكُ؟

- ١٣ -

قتل الأموي^(١) المغيرة -

ابن أخيه،

وأصحابه.

قيل: كانوا يُغنون -

لا بُدَّ أن ينزل العرشُ

في حين،

ويكون لنا ظلُّنا،

ويَفِيَّ إليه الذين أتوا قبلنا،

والذين يجيئون مِن بَعْدِنَا،

ويَقِثُوا إلينا.

- ي -

تُرَابُهَا صَوْتُهَا - إِثْمًا وَمَغْفِرَةً

غَنَّى، زَهَا لَاعِبًا، يُوْحِي وَيُوقِظُنِي

وَيُوقِظُ الْحَبَرَ وَالْأَقْلَامَ وَالْكُتُبَا

فَصِرْتُ أَقْرَأُ أَيَّامِي بِحِكْمَتِهِ

مُنَوَّرًا أَتْمَاهِي بِاسْمِهِ وَبِهِ

حَتَّى كَأَنِّي مَن غَنَّى وَمَن لَّعِبَا.

(١) هو عبد الرحمن الداخل.

قتل ابن أخيه المغيرة
ابن الوليد بن معاوية بن
هشام، وقتل معه آخرين بتهمة
إجماعهم على خلعِهِ.

* له مع الشعر للترحالِ قافلةٌ

لا تعرف القربَ إلَّا وهي تبتعدُ، -

لَن يَمْنَعُ الموجُ إِن ألقى مَرَّاسِيَهُ

فيها، وَلَن يَبْدَ النَّارَ التي تَلِدُ.

- ك -

(١) ياسين الخارجي الذي
خرج في الموصل على
ال خليفة المهدي وقُتل.

(٢) موسى بن مصعب
الخشعمي الذي كان والياً
للمهدي على مصر.

أُتراني هنا راحلٌ، وأنا قاعدٌ؟
ولماذا أرى في الغيوم وسائد، في
الريح بيتاً
ولماذا أحسّ كأنّ الفضاء
مثل جبانة؟

أيها الفجر، مهلاً
أضيأوك هذا الضياء
أم ترى... عفوك الآن،
صف لي،
أيهذا الغبار الأمين الصديق
صف ليخطوي، لشعري هذا الطريق.

* أترانا سنطحن آلامنا مثل قمح،
ونخبز ما يتيسر منها، ونعيش عليها
مرة ثانية
طول أيامنا الباقية؟

- ١٤ -

- أ -

خرّض الموصلا
كي تفيق وكي تعمل.

- ب -

كان^(٢) ظلوماً شريراً.

قتلوه - قالوا:

حق أن يقتص الناس من الشرير
الحاكم

حق أن نعمل كي لا يحكم فينا
إلا الرجل العدل العالم.

- ١٥ -

- أ -

جارية حرة،

بِسْمِهَا

مات^(١) على زندها.

- ب -

فَلْيَقْتُلْنِي^(٢) اللَّهُ

إن لم أقتلك: سواء عندي

سِرُّ الخَلْقِ،

وسِرُّ الموتِ، وسِرُّ البَاءِ.

- ج -

جاء حسين^(٣) مكة، قال:

«العبدُ المنضمُّ إلينا، حُرٌّ».

- ل -

حَلَبٌ - والهواء تَخَارِيمُ تكسو

النوافذ، والضوء نَسَاجُهَا.

أَتَشَرَّدُ، شعري فراث

وجسمي ذبولٌ.

قَلَقٌ في يديّ وفي نظراتي

قَلَقٌ في عروقي -

آه، يا قَلَقِي، يا صديقي؟

أَتُرَاهَا خُطَايَ خُطَايَ،

تُرَاهَا طَرِيقِي طَرِيقِي؟

* أَلَصَّوَاعِقُ تَأْتِي - تُدَلِّي قَنَادِيلَهَا

بخيوط المطر

كي تودّع إقليمها،

قبل أن تُحْتَضِرُ.

(١) الخليفة المهدي. بلغت الحملة على الزنادقة أوجها في عهده، سنة ١٦٦ هـ. (٧٨٢ م) وقد أنشأ من أجل قتلهم ديواناً سَمَّاه «ديوان الزنادقة».

(٢) الكلام لخالد البربري العامل العباسي، مخاطباً الحسين، المعروف بـ «صاحب فخ».

(٣) صاحب فخ. وهو الحسين بن عليّ بن الحسن، وينتهي نسبه إلى علي بن أبي طالب.

- ١٦ -

- أ -

قطعوا رأسَ حسينٍ في فُخٍّ،
لكن، أَفَلَتِ إدريسُ^(١)

أخفاه واضِخٌ مِثْلَ كتابٍ
بِبريدِ المغربِ -
واضِخٌ يُقْتَلُ صَلياً.

- ب -

أَلْزَمَانُ كما شئتُه^(٢)، والمكانُ
بهجةٌ وانسِراحٌ.

هذه كَأْسُكَ الآنَ، خُذْها:
عَسَلٌ طَيِّبٌ.

كان سَمَاءً، ومات الربيعُ.
الخليفةُ في غبطةٍ:

ما الذي سوف نفعلُ
بالخيزران؟

- م -

حَلَبٌ - كم تَمَرَّدَتِ، كم ضَرَبَ السَّيْفُ أعناقَ
أبنائكِ الغاضبينَ،

كم خَلَطَتِ المحبِّينَ بالمبغضينَ،
المقيمينَ بالراحلينَ.

حَلَبٌ - كم حَضَّتِ الطُّغَاةُ
أين تُذْيَالُك؟ مِن أين يبدأُ

في صدركِ الموتُ؟ مِن أين
يبدأُ ماءُ الحياة؟

* أَرْضُهَا تَتَفَجَّرُ، تلبس طوفانها، -
أَلَسَّهولُ تَوَاسِي جراحَاتِها
والجبالُ تسامِرُ أحزانها.

(١) فَخٌّ مكان قريب مكة
ويقال إن رؤوس القتلى كانت
تربو على المثة. ظلّوا أياماً
دون أن يُوازوا فأكلتهم السباع
والطير. وإدريس هو مؤسس
دولة الأدارسة، الدولة
المغربية الأولى. هَرَبَهِ في
البريد شخص اسمه واضح
كان يتولّى البريد إلى
المغرب. وهو مولى
صالح بن المنصور فقتله
الهادي صلياً.

(٢) الكلام بلسان الخليفة
الهادي وهو يقتل الربيع متهماً
إياه بأمة الخيزران.

- ١٧ -

الْخَلِيفَةُ^(١) يَبْرَأُ مِنْهُ الزَّمَانُ، وَيَبْرَأُ
مِنْهُ الْمَكَانُ

قَتَلَتْهُ جَوَارِيهِ خَفَقًا:

جَلَسْنَ عَلَى وَجْهِهِ مِثْلَمَا شَاءَتْ
الْخِيزْرَانُ.

قَتَلَهُ كَانَ عَيْدًا تَغْنَى بِهِ
الْمَاجِنُونَ، وَقَالُوا احْتِفَاءً بِهِ:

كَيْ تُعِيدَ الْحَيَاةُ إِلَى سِيرِهَا صِدْقَهُ
وَالِى وَجْهِهَا رَوْنَقَهُ

يَنْبَغِي أَنْ تَوْسَعَ أَحْشَاءُهَا
وَأَنْحَاءُهَا

لِلْمَجُونِ وَلِلزَّانِقَةِ.

- ن -

لَا أَبْشُرُ، أَهْوَى

أَنْ أَرَى كَيْفَ تَمْضِي الْعُرُوشُ

إِلَى مَوْتِهَا،

وَأَحَبَّ رَمَادًا تَوَوَّلَ إِلَيْهِ.

لَا أَبْشُرُ، أَهْوَى

أَنْ يُقَادَ الطَّغَاةُ إِلَى مَوْتِهِمْ صَاغِرِينَ

أَنْ أَرَاهُمْ أَمَامَ الَّذِينَ يَسُوسُونَهُمْ

رُكْعًا، ضَارِعِينَ

وَأَرَى كَيْفَ يَجْرُونَ، يَمْضُونَ كَالْقَشِّ

فِي لُجَجِ الثَّائِرِينَ.

* مِنْذَ مَاتَ أَمْرُ الْقَيْسِ شَوْقًا إِلَيْهِ -

إِلَى مَلِكِهِ الْمُنْتَظَرِ،

أَلْفَتْنَا طَيُورُ السَّفَرِ.

(١) الهادي الذي خنقته جواريه بأمر من أمه الخيزران، وخلفه ابنها الرشيد. وعلى إثر موته، ظهر الزنادقة الذين استتروا، واشتهر بينهم، على الأخص، يونس بن أبي فروة ويزيد بن الفيض.

أطفالُ شُبُه عُرَاةٍ

يزدحمونَ أَمَامِي، حولي،

هذي حَلَبٌ - أهَي الكوفةُ؟ أذكرُ،

أَغْلُو،

وأجددُ عَهْدِي.

لِبَرِيقٍ يَخْبُو فِي أَعْيُنِهِمْ

لِنَدَاءٍ يَذْمِي فِي أَيْدِيهِمْ،

يَتَقَحَّمُ شَعْرِي، يَنْتَهِكُ

كِي يَتَغَيَّرُ هَذَا الْفَلَكُ.

- ١٨ -

- أ -

صَخَصَحْ^(١) يَهْزُمُ الْجَنْدَ، جُنْدَ

الرَّشِيدِ، وَيَقْتُلُ مِنْهُمْ جَمُوعاً.

الرَّشِيدُ يُوَجِّهُ جَيْشاً كَبِيراً:

قَتَلُوا صَخَصَحاً،

وَتَفَرَّقَ أَصْحَابُهُ.

قَتَلُوا عَامِلَ الْجَزِيرَةِ ابْنَ فَرُوحٍ^(٢)

عِبْرَةً وَعِقَاباً.

- ب -

سَأَلُوهُ^(٣) لِمَاذَا

تُخْرِجُ الطَّالِبِينَ مِنْ دُورِهِمْ،

وَتُفَرِّغُ بَغْدَادَ مِنْهُمْ؟

* مَزَجَ الْمَوْتُ وَالْفَقْرُ

أَبْنَاءَ تِلْكَ الْقُرَى،

بِأَبْنَاءِ هَذِي الْقُرَى -

غَصَصُ آسِرٍ، زَمَنُ يُزْدَرَى.

(١) الصَّخَصَحُ الخارجي.

(٢) أبو هريرة، محمد،
عامل الرشيد على الجزيرة.
والرشيد هو الذي قتله.

(٣) الإشارة إلى الخليفة
الرشيد.

- ع -

لا أشاهدُ إلا ظلاماً يرينُ على صدرِ
آدمَ، -

تلك الجنانُ التي سحرتهُ وتلك
الجحيمُ

لم تعلّمهُ حتى الوفاءَ إلى طينه الكريمِ.

- ١٩ -

بين الإخوة^(١) حربٌ :
فاز هشامٌ ونفى أخويه.

ليس رأسي غراباً

ولا أرضَ مَنْ وسلوى

ولا صلواتٍ ولا أدعيةً،

رأسي الكونُ : آدمُ زرعُ له

والحصادُ هو المعصية.

* «إمض، لا تتمهل» :

حكمةٌ دائمةٌ

للنجوم التي تتوغل في جبل الليل،
نشوانةٌ هائمةٌ.

(١) هشام بن عبد الرحمن
الداخل، وأخواه سليمان
وعبد الله. أعطاهما مالا،
ونفاهما.

- ف -

«لا مُثَنَّى» :

تهمس الأشياء في أذني -
حقاً،

كل ما في حلبِ فَرْدٌ بشطرين،
ولا لُحمة ما بينهما؟

هكذا يُوغِلُ في غُرْبته نَهْرُ قُويقِ
ناجِلاً منكسراً في الضفَّتَيْنِ
مثلاً تنكسرُ الشَّهوةُ في أَوْجِ
التحامِ الجسدينِ.

* قلبه حَسَرَاتُ

تَتَنَقَّلُ مخنوقةُ الهواءِ
في فُصولِ البكاءِ.

(١) بلغ الرشيد أن بشر
المريسي يقول بخلق القرآن،
فقال إذا ظفرت به سأضرب
عنقه.

(٢) قال أبو معاوية الضَّرِيرُ
«حدثت الرشيد يوماً حديث
«احتج آدم وموسى»، وعنده
رجل من وجوه قريش. قال
هذا الرجل - أين الثقيفا؟
فغضب الرشيد وقال: - النطع
والسيف! زنديقٌ يطعن في
حديث.

- ٢٠ -

- أ -

«سوف أضرب عُنُقَهُ»^(١) -
ماحيًا خَلْقَهُ وخُلُقَهُ.

- ب -

موسى، آدم: أين الثقيفا؟^(٢)
- أتشك؟
- معاذَ الله، ولكن
أسأل: كيف؟
- هَاتُوا النُّطْعَ، وهَاتُوا
السَّيْفَ.

أَشْتَهِي لِقْوِي

مَا أَشْتَهَيْتُ لِنَفْسِي :

أَنْ تَظِلَّ الْعَيُونُ الَّتِي تَقْتَفِيهِ

تَتَأَلَّأُ مَأْخُودَةً

بِفَقَاعَاتِهِ .

أَشْتَهِي لِقْوِي

أَنْ يَظِلَّ النَّذِيرَ الْمُنَوَّرَ، حَيْثُ الزَّمَانُ

مَرِيضٌ، وَالْمَكَانُ يَنْوُءُ بِأَشْلَائِهِ .

أَشْتَهِي لِقْوِي

أَنْ يَظِلَّ كَمَا رَسَمَتْهُ خُطَاهُ :

لَا سَرِيرٌ لَهُ غَيْرُ أَمْوَاجِهِ .

* يَتَغَلَّغُلُ فِي كُلِّ شَيْءٍ

نَفْسًا مِنْ هَبَاءٍ :

لَا يُرِيدُ الصُّعُودَ عَلَى سُلَّمِ الْأَنْبِيَاءِ .

- ٢١ -

الرَّشِيدُ يُؤَلِّي الْأَمِينَ ابْنَهُ،

وَهُوَ فِي الْخَامِسَةِ،

هَلَّلَ النَّاسُ لِلطَّمَسِ يَمْحُوهُمْ

وَلَايَاتِهِ،

وَأَعْرَاسِهَا،

وَأَسْيَافِهَا،

وَلِكُلِّ تَقَالِيدِهِ الطَّامِسَةِ .

- ق -

في البيت. البابُ حديدٌ
والشباكُ الضيقُ في الزاويةِ
اليسرى لم أفتحه.
من أين تجيء الريح، إذن؟

ريحٌ،
كلّ حطام الأرض يُصلصلُ فيها.

- ٢٢ -

- أ -

عربٌ: ذا يمانٍ، وذا مُضَرِّي
والشأمُ لكلّ منهما

ساحةٌ للقتالِ،

وأيامها

جزرٌ من دمٍ.

- ب -

في نصيبين والموصلِ،
قتلِ الفضل^(١) مع صحبه،
لا تقل: كيف؟ لا تسأل.

* خُذْ يدي في يدك:

يومنا واحدٌ

وغدي لا يُسافرُ إلا طالِعاً من غدك.

كَادَ أَنْ يَتَمَزَّقَ وَجْهَكَ يَالَيْلُ، بَيْنَ
يَدَيَّ، وَأَنْ يَتَمَزَّقَ فِيهِ الْقِنَاعُ
كَدْتُ أَنْ أَرْفَعَ الْمَزَّقَ الْحُمْرَ فِي مَوْجِ
يَاسِيٍ مِثْلَ الشَّرَاعِ،
آسِفًا:

لَيْسَ لِلْأَرْضِ شَكْلُ الزَّمَانِ
كِي أَطَابَقَ مَا بَيْنَ جَسْمِي وَحُلْمِي،
غَيْرَ أَنِّي سَأَوْغِلُ فِي شَهَوَاتِي
وَأَتَابِعُ هَذَا الرَّهَانَ.

- ٢٣ -

- أ -

إِنِّهَا مِنْ جَدِيدِ
نِزَارِيَّةٍ وَيْمَانِيَّةٍ،
مُدَّ هَذَا الشَّبَكِ
أَيُّهَا الدَّهْرُ، وَاعْمُرْ
بِتَخَارِيمِهِ الْقَلْبَ.

- ب -

الرَّؤُوسُ، نِزَارِيَّةٍ وَيْمَانِيَّةٍ،
كَالسَّنَابِلِ، حَصَادُهَا
مَرَّةً، رَجُلٌ عَاقِلٌ دُونَ دِينِ
مَرَّةً،
رَجُلٌ دِينٌ دُونَ عَقْلِ.

* تَسْكُرُ الرِّيحُ: هَذَا كَوْوَسُ الْغُبَارِ
فَرَعَتْ، وَالتَّهَارُ
أَخَذَتْهُ يَدُ اللَّيْلِ، وَالثَّلْجُ أَغْلَقَ
حَانُوتَهُ.

- ش -

مَنْ يُصَدِّقُ أَنِّي أَمُوتُ

لكي أكتب القصيدة؟

مَنْ يُصَدِّقُ أَنِّي أَخْطِئُ فِي كُلِّ حَرْفٍ،

وفي كل شيء؟

وأكرر ما كنت ردّدته:

خطأي أزلّي

خطأ خالد -

وليس كما قيل عنه.

خطأي أنّ ضوئي قريبٌ وشمسي بعيدة.

* قَصْبُ الماءِ، زَهْرُ الجنائن،

خَشْخَاش هذا الزّمان - مَزِيحٌ

يتعلّم أسرارَه، ويفكّ الرّموز التي

أقفلتُه،

ويرفع منها سقوفاً

لأَيّامه، ولأحلامه.

- ٢٧ -

- أ -

قال المهدّي^(١): رأيتُ كائني

أعطيتُ قضييًّا للهادي

ولهارونَ قضييًّا.

الأوّل أوزقَ في أعلاه

والثاني أوزقَ من أسفله

حتى أعلاه.

- الملكُ قصيرٌ للهادي،

ولهارونَ

يطولُ الملكُ: تكونُ

له أتبهى أيام.

(١) الحكيم بن إسحاق
الضيمري، هو الذي فسر
للمهدي منامه.

- ب -

أهل أفريقيا

يقتلون ابنَ رَوْحٍ^(١).ليس بين الرعايا والولاة الذين
يسوسونهم،

غير أوجاعهم وأسئلتهم.

- ج -

هل كل نظام يتأسس سُمِّ

مُهَرَّقٌ

من جسد الماضي؟^(٢)

- ت -

كان ذلك ليلاً، والخريف يسيرُ على ضفّة
النهر - ليلاً. قمرٌ يغطّي بأهدابه،

زقاقٌ

يَقِظُ يَتَمَرَّأى في الشعاع الذي كان يرسمُ
حُرَّاسَ أبوابها.

كان ذلك ليلاً، والنجوم زهورٌ

تتناثرُ في حَيْثَا - في المداخلِ، في
الشُرُفَاتِ

وفي العتباتِ المدينةُ بيتٌ لها،

وأنا عابرٌ

أتنشقُ عِطراً يَجِيءُ ويذهب في كلِّ فَجٍّ.

هكذا - وأنا أتبعثر مُسْتَسْلِماً لحصاراتها

أخذتني المدينة بين يَدَيْهَا إليها

- كان ذلك

ليلاً، والخريف يُبْلِلُ سِرْوَالَهُ

بمياه قُويِقٍ.

* لا كنيسةَ جاءت، لا كنيسٌ ولا جامعٌ:

لامجيبٌ ولا سامِعٌ.

(١) الفضل بن روح

ابن حاتم والي الرشيد على
أفريقية.(٢) الإشارة إلى إدريس بن
عبد الله، مؤسس دولة
الآدارسة في المغرب، والذي
مات مسموماً سنة ١٧٧ هـ.

- ٢٥ -

- أ -

كتب الرشيد إلى يزيد^(١) :

«لأوجهن إليك

من يأتي برأسك،

إن تأخر في المجيء

إلي رأس التغلبي».

- ب -

قتل الوليد التغلبي،

رثته ليلي:

«أيا شجر الخابور، مالك

مورق؟

كأنك لم تجزع على ابن

طريف».

- ث -

قلتُ لنفسي، وأنا أتفكر في ما يجري حولي:

أشغلُ فكري وأضللهُ

كي لا يعرف شيئاً عني

ولكي ينأى

أم أتركه يقتصُّ خطائي؟

حولي غابةٌ حبّ:

أصواتٌ في أوراق الغابة، رقصٌ، -

أهوى آخر يأتي؟ أم أشباح

تتحرك، ترصد ما يتوالد مني

في آثار خطائي،

وفي أنقاض هوائي؟

* شاهدُ الشعر يملي رؤاه على شاهدِ

السنوات العجاف،

ألغروش سكاكين أو هامنا

والشعوب الخراف.

(١) يزيد بن يزيد الشيباني،
والإشارة إلى الوليد بن طريف
التغلبي الذي خرج على
الرشيد في الجزيرة، ويلي
هي أخت الوليد.

- خ -

نَهْرُ قَوَيْقٍ

جِسْرُ مَاتٍ، وَجِسْرُ

لَمْ يُولَدْ.

ما بينهما

لغة تتمرأى في ماءٍ عابِرٍ -

مِنْ أَيِّ أُتِيَتْ؟ وَكَيْفَ سَتَمْضِي

يَا هَذَا الشَّاعِرُ؟

- ٢٦ -

بَرَبْرُ تَاكَزَتَا^(١)

ثَارُوا، خَلَعُوا الطَّاعَةَ،

أَفْتَاهُمْ

جَيْشُ هِشَامٍ.

قَالُوا: بَقِيَتْ تَاكَزَتَا

سَبْعَ سَنِينَ، لَا يَسْكُنُهَا إِنْسِي،

لَا يَدْخُلُهَا إِنْسِي.

(١) من أقاليم الأندلس التي كانت خاضعة آنذاك لهشام بن عبد الرحمن الداخل.

* أَوَّلُ الشَّعْرِ مَاءٌ - (فِي قَوَيْقٍ تَمَوَّجُ مَاءٍ لَهُ رَغَبَاتٌ لَمْ يَفْهَنْ بِأَسْمَائِهِنَّ لَغِيرِ الضُّفَافِ)

وَأَنَا لَا أُرِيدُ الْقَطَافَ: أُرِيدُ الدَّرُوبَ الَّتِي سَلَكَتُهَا الثَّمَارُ إِلَى مُسْتَهْلِ الْقَطَافِ.

- ذ -

أَسْتَشْرِفُ الشَّعَرَ: فِي عَيْنِيهِ قَافِلَةٌ

ضَلَّتْ، وَقَافِلَةٌ تَحْيَا بِلَا وَطَنِ

دُرُوبُهَا الضَّوُّ - مَمْزُوجًا بِحَيْرَتِهَا

وَحَبْرُهَا الدَّمْعُ مَسْكُوبًا عَلَى الدَّمَنِ

أُضِلُّ فِيهَا وَأَهْدِي: أَيُّ وَسْوسَةٍ

تَقُولُ مَوْجِيَّ مَحْمُولٌ عَلَى سُفْنِي؟

أَرْضِي كَلَامِي، - كَلَامِي جَنَّتِي عَشَقْتُ

وَجَهَ الْجَحِيمِ، وَرَبِّي - حَاضِنًا وَثْنِي.

- ٢٧ -

- أ -

فِي الْجَزِيرَةِ، ثَارَ خُرَاشَةُ^(١).
قَالُوا:

- بَدَّدَ اللَّهُ جَمْعَ الْخَوَارِجِ،

قَالُوا:

أَطْفَأَ اللَّهُ نِيرَانَهُمْ.

- ب -

الْمَحْمَرَّةُ اسْتَبَسَلُوا مِنْ جَدِيدِ

بِقِيَادَةِ عَمْرٍو^(٢). وَقَالُوا:

بُدِّدُوا. وَأَضَافُوا:

أَطْفَأَ اللَّهُ نِيرَانَهُمْ.

(١) خُرَاشَةُ الشَّيْبَانِي
الْخَارِجِي.(٢) عَمْرُو بْنُ مُحَمَّدٍ
الْعَمْرُكِيُّ، وَقُتِلَ فِي مَرْو.* آه، مَنْ أَيْنَ يَخْرُجُ هَذَا الْفَرَاغُ
الَّذِي يُمْسِكُ الْأَرْضَ مِنْ عُنُقِهَا؟

- ض -

قال لي، وهو يَشْرَبُ - يَهْذِي وَيَبْكِي :
لستَ لي، يا أخي، مثلاً.

إنني أتمثل بالحارث بن مُضاض^(١)، -
سأقول: تَقَمَّضْتُ فِيهِ

مِثْلُهُ أَتَطَوَّحُ فَوْقَ التُّرَابِ كَأَنِّي
تُرَابٌ،

وَأَعِيشُ عَلَى الْأَرْضِ فِي غُرْبَةٍ.

مثله أَتَقَدَّمُ، أَمْزِجُ فِي ذَاتِ نَفْسِي،

وَفِي كَلِمَاتِي وَفِي خَطَوَاتِي

بَيْنَ وَجْهِ السَّمَاءِ وَوَجْهِ السَّرَابِ.

(١) رجلٌ شبه أسطوري .
يقال إنه من ملوك العرب قبل
الإسلام وضربت الأمثال به
لاغترابه وطوافه في أنحاء
الأرض . ويقال إنه حارب بني
إسرائيل .

(٢) مخلد بن مرة الأزدي
وعمران ابنه . ثارا على
إبراهيم بن الأغلب . وكان
قائد التمرد في تونس ، رجل
يدعى حمديس ، قبل قتل من
أنصاره عشرة آلاف .

وفي طليطلة كان المتمرد
عبدة بن حميد ، وقتل مع
آلاف من أنصاره ، كما
يروى . وحملت رؤوسهم
جميعاً وطرحت أمام «صاحب
الأندلس» .

- ٢٨ -

- أ -

إِبْنُ مُرَّةٍ^(٢) يُذْبَحُ فِي الْقَيْرَوَانِ،
وَعِمْرَانُ يُقْتَلُ مِنْ بَعْدِهِ،

وَالْتَمَرْدُ فِي تُونِسٍ أَثَرٌ بَعْدَ عَيْنٍ .
وَطَلِيطْلَةُ تَحْتَفِي

بِالرُّؤُوسِ الَّتِي قُطِعَتْ وَسِيقَتْ
إِلَى رَبِّهَا، كَالْتَدْوَزِ -

هَتَفُوا، أَنْشَدُوا حَوْلَهَا:

هَكَذَا تَسْتَقِيمُ الْأُمُورُ!

* يحيا قريباً إلى أحلامه الأول،
كأنه العطرُ - مَسْكُوباً، يطوف على
وجه المكان، وَيَسْتَجْلِي أَقَاصِيَهُ
بلا اكتراث، بلا يأس، بلا أمل.

- ٢٩ -

رجلٌ غامضٌ - يسأل الناسُ عنه،
 يجهلون اسمه
 والدُّروب التي جاء منها،
 ويُحبُّونه: يتمون إليه بأحلامهم.
 ويُحيِّونه بالصفات التي ميَّزته:

«لم يَضغْ مرَّةً

جراحاته على المائدة،
 ليس من هذه اللغات،
 ويجهل هذا الصَّراطُ،
 وينبذ ما ترسمُ القاعِدة».

- ظ -

كم أخاصِّمُ نفسي، أسأَلُ نفسي:
 - لماذا نُزوعكِ دوماً إلى وطنٍ آخر؟

ولماذا

كلَّما جئتِ أرضاً صبوتِ إلى غيرها؟
 كيف لي أن أدجِّنَ فيك انفجاركِ -
 ذاك الهديرَ، وذاك الشَّراز؟

- إنه وَلَهُ الشَّاعرُ

إنها فتنةُ الرِّحيلِ إلى لا قَرَار.

* قدماه هما تيههُ الأوَّلُ:

كيف لا يصعد الوحي فيه،
 كيف لا ينزلُ؟

- ٣٠ -

- أ -

مات الكاظم^(١)

في السجن - وقالوا:

أرسل للسجان^(٢) يقول:

«بلائي يمضي،

ورخاؤك يمضي،

لكن الخاسر أنت،

فأنت الظالم».

- ب -

كيف تعارض يا بهلول^(٣)؟

كأنك، حقاً، بهلول.

رَفُضَكَ سِجْنٌ -

تُرمى فيه، لا عودة منه

أو تُقتل فيه.

- ج -

قيدوه، اسجنوه، أله أن يخالف

رأيي؟»

- د -

مات من أثر السجن، في بيته.

- غ -

عند باب بُزَاغا

فاجأتني خطاها

فاجأتني صفائر أوجاعها

مُسَدَّلاتٍ على كتفيها.

لم أكن أتوقع أن التَّعب

جسدٌ آخرٌ

تتناسخ فيه حَلْبٌ.

(١) موسى الكاظم، ومات في سجن الرَشِيد. لُقِّب بالكاظم لأنه كان يُحسن إلى من يسيء إليه، كاظماً غيظه.

(٢) الخليفة الرشيد.

(٣) البهلُول بن راشد، كان عالماً راهداً عارضَ أمير أفريقية (وكان آنذاك محمد بن مقاتل العُكَيّ)، في إرساله النحاس والحديد والسلاح إلى ملك أسبانيا فضربه الأمير وجسه.

* أَلْعَزِيزُ الْمَشْرَدُ - في قدميه
جَبَلٌ رَاكِعٌ، وفي راحتيه
وَجْهُ أَيْقُونَةٍ.

غ - ١ / طَلْسَمَات

يَجْرِي مِنْ بَابِ بُزَاغَا

نَهْرٌ ذَهَبٌ

يَتَجَمَّدُ مِلْحًا، لَكِنْ فِي طَعْمٍ مُعْتَدِلٍ.

*

حَجَرٌ أَسْوَدٌ فَوْقَ بِلَاطٍ أَسْوَدَ - قَالُوا:

لَمَّا نَزَعُوهُ مِنْ مَوْضِعِهِ

انْهَارَتْ

أَسْوَارُ الْقَلْعَةِ سُورًا سُورًا،

وَأَنْهَارَ الْجَامِعِ فِيهَا.

*

حَجَرٌ حَدٌّ

حِينَ يَغْتَرِ مَوْضِعُهُ

تَتَبَرَّجُ كُلُّ نِسَاءِ الْحَيِّ، وَتَأْخُذُهُنَّ الشُّهُوهُ

وَيَجَامِعُنَّ، اسْتِمْتَاعًا

جَهْرًا، أَوْ فِي خَلْوَةٍ.

*

ماء -

إِنْ قَطَرَتْ مِنْهُ قَطْرَةٌ
فَوْقَ الْعَقْرِبِ مَاتَ . وَقَالُوا ، اسْتَطْرَادًا :
قَرْيَةً يَحْمُولُ
لَا يَحْيَا الْعَقْرِبُ فِيهَا ،
وَإِذَا جَاءَ إِلَيْهَا مَاتَ .

✱

حِينَ يَفِيضُ قَوْيُقُ
يَحْمَرُّ الْمَاءُ وَتَبْدُو فِيهِ
صُورٌ ، وَتَمَائِيلُ نَحَاسٍ .

✱

عَيْنُ كَبْرِيتَةٍ
يَأْتِي النَّاسُ إِلَيْهَا
مِنْ كُلِّ الْآفَاقِ ، وَتَشْفِي الْأَمْرَاضَ جَمِيعًا .
لَا يَدْرِي أَحَدٌ
مِنْ أَيْنَ يَجِيءُ الْمَاءُ ، وَكَيْفَ ، وَأَيْنَ يَرُوحُ ؟
قَالُوا : جَرَحُ

يتطهر فيه
كون مجروح.

✱

جزن
لدماء سَلاحفَ تَشفي المصروعين ، وَتَشفي
كل الأوجاع السَريّة .

✱

بالروميّة
كُتبت أسماء المقبورين :
هذا نورٌ من عند الله ، وهذا في عُلّين .
مقبرةٌ - يغمرها نورٌ
لا يَسْطَعُ إلّا في اللّيل ، وحين يجيء الناس إليه ،
يَخْفَى .

غ - ٢ / أبواب

في التاريخ أن الدخول
إلى مدينة حلب، كان يتم من
أبواب متعددة، يعود أقدمها
إلى القرن الثاني عشر
الميلادي، ويعود أحدثها إلى
بداية القرن السادس عشر.

بَابُ النَّصْرِ، -

غَزْلَانُ فِرَاقٍ وَمَرَارَاتٍ
تَتَقَاظَرُ مِنْ أَسْوَارِ الْقَصْرِ.

*

بَابُ أَنْطَاكِيَّةَ، -

الأبواب التي زالت ولم
يبق لها أي أثر، هي: باب
العراق، باب العدل، باب
الفراديس، باب السعادة، باب
السلام، باب العافية، باب
الأربعين، باب القناة، باب
الأحمر. الأبواب التي زالت
وبقي اسمها. هي: باب
الفرج، باب الجنان، باب
الثيرب. الأبواب الباقية هي:
باب أنطاكية، باب النصر،
باب قنسرين، باب المقام،
باب الحديد.

رَأْسُ قَدَيْسَةٍ

تَتَفَتَّحُ فِيهِ وَرُودٌ

لَا يَرَاهَا سِوَى عِطْرِهَا.

*

بَابُ قَنْسَرِينَ، -

فِي يَدَيْهِ ثَلَاثُ نَجُومٍ

يَتَفَقَّدُنْ أَضْوَاءَهُنَّ، عَلَى رَأْسِهِ

قَمَرٌ هَائِمٌ؛

*

بابُ الحديد، -
لا تَسْلُنِي،
وقلْ أيُّ شيءٍ.

✱

باب المقام، -
ذَبْحُ،
وإبراهيم يَسْكُبُ في المقام
دَمْعَ الكلامِ - دَمَ الكلامِ.

✱

باب العراق، -
يعشَق الضَّوءُ ليلَ الرِّحيلِ،
كيف مالت أبايِلُهُ، يميلُ.

✱

باب العدل، -
ما أَصْفاه، ما أوهنَهُ هذا النَّبْعُ:
نسجته الحيرة في الأحشاءِ بخيطِ الدَّمْعِ.

✱

باب الفراديس ، -

وجه عشتار فوق المدينة، رُدّوا
عن وجوه النوافذ أَسْتَارَهَا.

✱

باب السعادة، -

موسيقى ماء
تتَجَسُّ مِنْ كَبِدِ الصَّحْرَاءِ.

✱

باب السّلام، -

إرحل، أو لا تَرَحَلْ
بابُ الغرب كباب الشرق، فماذا تأمل؟

✱

باب العافية، -

وضع الدّاء يديه
في ماءٍ بارِدٍ.

✱

باب الأربعين، -

هِيَ قَافِلَةٌ لِلْبِكَاءِ
تَتَفَتَّحُ فِيهَا السَّمَاءُ.

✱

باب القناة، -

بِأَنْفُسَاءٍ تَحْفَظُ أَسْمَاءَ مَنْ مَرَّ فِيهَا
وَتَقُولُ دَفْنَا
لَيْلَ أَحْزَانِنَا
فِي شَذَى وَرْدَةٍ.

✱

باب الأحمر، -

مَرْكَبٌ مِنْ شَرَارٍ يَسَافِرُ فِي لُجَّةٍ مِنْ شَرَارٍ
بَيْنَ هَذَا الْجِدَارِ وَذَاكَ الْجِدَارِ.

✱

باب الفرج، -

شَارِعٌ يَتَغَطَّى حَيَاءً مِنَ الضَّوءِ،
يَخْجُلُ مِنْ عُزْيِهِ.

✱

باب الجنان، -

آه، ما أجمل الأغنية

في فم المعصية

✱

باب الثيرب، -

طِفْلٌ

يتخيل وجه الله ويغفو

في إضطبل.

✱

باب لا اسم له، -

لبس الماء كثائه

كلّ خيط له شكل ناي

والعناكب أوتاره.

هوامش



شَرُّ البلادِ
مَكَانٌ لَا صَدِيقَ بِهِ .

المتنبي

بهلول المجنون

مات سنة ١٩٠ هـ.

بومتانِ على عُصْنِ واحدٍ:

قَالَ خَيْرَ -

جَسَدٌ لَا يَنَامُ

وَالسَّرِيرُ الْكَلَامُ.

بُومَتَانِ عَلَى عُصْنِ وَاحِدٍ:

حُبُّنَا وَرَدَّتَانُ

لَكُمَا، أَيُّهَا الْعَاشِقَانُ.

لغة - فتنه

غير أن بنيتها وأحفادهم

أسلموا جسمها

لرطوبة أيامهم.

شري موثق بأحوالها وناري في سفر كاسر

كي أعاشير أسرارها،

أتقصي مداها

في هوى أسير.

أبو نواس

مات سنة ١٩٥ هـ.
وكان في التاسعة والخمسين
من عمره.

- أ -

«هو للمُحدثينُ

كامريء القيسِ للأقدمينُ» (أبو عبيدة)

- ب -

«ليته لم يكن ماجناً

إذن، كنت آخذ علمي منه» (الإمام الشافعي)

- ج -

.....

أول من أخرج الشعر من داره البدويّة،

أعطاه سراً جديداً، وسحراً جديداً.

وهو بدءٌ لهذا الأبد.

- د -

«لو تقدّم في الجاهليّة:

لم يتقدّم عليه أحد» (عمرو بن كلثوم العتابي)

جابر بن حيان

كوفي، له حوالي ٢٣٢
كتاباً. منها: أسرار الكيمياء،
علم الهيئة، تصحيحات كتب
أفلاطون، الخمائر، صندوق
الحكمة، الرحمة، العهد في
الكيمياء... وهو أول من
وصف أعمال التقطير،
والتبليز، والتذويب،
والتحويل. مات سنة
٢٠٠ هـ.

إِهْدِنَا صَنْعَةَ الْكِيمِيَاءِ

إِهْدِنَا لِهَوَاهَا، لِإِكْسِيرِهَا النَّبِيلِ -

زُبُقًا، بَوْرَقًا

حَطْبًا وَمَنَافَخَ، فَحْمًا

وَأَنَابِيْقَ مِنْ كُلِّ فَنٍّ.

إِهْدِنَا لِلْخَدَاعِ الْجَمِيلِ

وَلِتَقْطِيرِهَا، وَلِتَحْوِيلِهَا.

إِهْدِنَا صَنْعَةَ الْكِيمِيَاءِ

لِنُحَوِّلَ هَذَا التَّرَابَ الْجَمِيلَ، جِنَانًا

وَأَنْهَارَ شَعْرِ وَحْبٍ

لأَحْبَائِنَا وَلَأَعْدَائِنَا،

مَنْ عَلَى الْأَرْضِ مِنْهُمْ، وَمَنْ فِي السَّمَاءِ.

الإمام الشافعي

مات سنة ٢٠٤ هـ.

لغة الشَّرْع في رَأْسِهِ،
لغة الشُّعْر في رِئْتِهِ وفي شَفْتَيْهِ؛

الأَقَالِيمُ فَيَحَاءُ في وَجْهِهِ،
غَيْرَ أَنَّ المَدَائِنَ تَعْنُو وترزحُ مَقْطُورَةً،
تَتَقَلَّبُ في فِقْهِهِ.

هشام الكلبي

النسابة، وصاحب كتاب
«الأصنام». مات سنة
٢٠٤ هـ.

لا تَزَالُ إِلَى الْآنَ أَصْنَامُكَ الرَّاسِخَةُ
تَتَوَهَّجُ فِي لَيْلِنَا.
لَا نَزَالَ نَنَامُ عَلَى دَفْنِهَا،
فِي أَسْرَةِ أَطْيَافِهَا الْبَاذِخَةِ
لَا نَزَالَ إِلَى الْآنَ نَشْرَبُ مِنْ ضَرْعِهَا:
كَيْفَ ضَاعَتْ وَضِيعُنَا، وَهَا زَرْعُنَا
يَتَنَاسَلُ مِنْ جَذْعِهَا
وَيَعُودُ إِلَى زَرْعِهَا.

الفرّاء النحوي

كان يُسمّى «أمير
المؤمنين» في النحو. وكان
مؤدّباً لابني المأمون اللذين
كانا يقذفان له نعليه،
احتراماً. مات سنة ٢٠٧ هـ.

لغة تتساءل عن حالها:

ما الذي نسجته عن الشيء، ماذا
يعرف الشيء منها؟ وأيّ جسورٍ
نُصبت بين أواجه وأواجهها؟

لغة تتساءل عما ترى

عن مرايا تقول لها ما ترى،
والمرايا ضياعٌ
مثلها، وسؤالٌ.

أحمد بن صدقة

قُتل سنة ٢١٠ هـ.

طُنبوريّ حَذَقَ الصَّنْعَةَ، غَنَّى :
غَنَّى رَمَلاً، هَزَجاً - يشكو
لِلصَّخْرَةِ قَلْبَ حَبِيبَتِهِ، وَيؤاسي
وَزْدَةَ حَبِّ تَذْوِي .
هوذا يَمْضِي، يَرْجُو أَنْ يَلْقَى الْأَحْبَابَ
فِي الشَّامِ، يَحَادِثُ طَيْراً
يَتَفَيَّأُ غَيْمًا .
صَخَبٌ، أَصْوَاتٌ - بَعْضُ الْأَعْرَابِ
يَلْتَفُّونَ عَلَيْهِ :
أَخَذُوا مَا مَعَهُ - قَتَلُوهُ .

موسيقى طنبورٍ
تَتَغَلَّغُلُ فِي صَمْتِ الْأَعْشَابِ .

بشر بن المعتمر

توفي سنة ٢١٠ هـ. له،
كما يُروى، قصيدة في أربعين
ألف بيت يردّ فيها على
خصوم المعتزلة.

- I -

معتزلاً رائداً،
جَمَعَ آراءه وأفكاره
وصاغها قصيدةً واحدة،
ينقد أعداءه
طرائقاً، ولغةً فاسده.

- II -

الأفكار ظلالٌ تأتي وتروح - فأين الجدوى
في أن تُقنع رأساً ليصير يميناً،
وهو شمالٌ
ليصير شمالاً وهو يمينٌ.
ليس الفكر وريداً أو شرياناً.
والأفكار عباءةٌ راعٍ
يتوهم أن الأشجارَ قطعٌ.

عَلِيَّةُ بِنْتُ الْمَهْدِيِّ

ماتت سنة ٢١٠ هـ.
«كانت من أجمل النساء،
وأظرفهن وأكملهن، أدباً
وعقلاً».

(رسالة عن رجلٍ أحبَّته)

منذ أن لبس الوقتُ قُفْطَانَهُ

وتبخرتِ تيهاً بهِ،

لم يعد يتذكَّر أوقَاتَنَا

لم نعد نتلاقى

لم يعد بيننا

غير ذاك المكان الذي كان يحنو علينا

حين كنَّا نفيءُ إليه -

يُلبس حُزْنِي،

وَالأَبْسُ أَفْرَاحَهُ.

الرواية

III - II

(...)

- «خُذِ الشعر، أنت أيها المأخوذ بالمرئي ارفعه بيتاً وأقم فيه سيكون حتماً عليك آنذاك أن تسكن في الجانب الآخر غير المرئي حيث يهدر دم العناصر حيث الماء والهواء التراب والنار ثدي واحد آنذاك، ربّما عانقك الشقاء طويلاً طويلاً ولن تقدر أن تؤاويك حتى أحلامك لن تقدر شجيرات الفستق، بحقولها الفسيحة كلّها أن تظللّك لن يجديك عبق البرتقال أو حنان الزيتون والتين».

(...) هذا ما جهر به لفضاء القلعة توهماً منه أنّه سيفهمه، ولم يكن يريد منه أيّ شيء قال ذلك لوجه القول، ربّما لأنه كان يشعر أن جسده تلك اللحظة طافح بحكمة القلق والوحدة، ألاّ قدرة له تقريباً على النطق. دائماً يملأ فمه بماء كلما جهد أن يفرغه ملئاً بماء آخر (...).

(...) قرأ:

«اهتمّ الملوك بعمارة القلعة وتحصينها» -

أ - كُتب على جانب الباب الأوسط في القلعة:

«بالإشارة العالية، المولوية، الأمرية،
الشمسية، قرأ سنقر الجوكندار المنصوري
الأشرفي كامل المملكة الحلبية، أعزّ الله
نصره».

ب - كُتب على زنار باب القلعة:

«أمر بعمارته بعد إهماله وإشرافه على الدثور،
في أيام مولانا، السلطان الأعظم، الملك
الأشرف، صلاح الدنيا والدين، ناصر الإسلام
والمسلمين، عماد الدولة، ركن الملة، مجبر
الأمة، ظهير الخلافة، نصير الإمامة، سيد
الملوك والسلاطين، سلطان جيوش
الموحدين، ناصر الحق بالبراهين، محيي
العدل في العالمين».

ج - كُتب على برج القلعة الشمالي:

«جدّد هذا السور المبارك مولانا السلطان الملك
الأشرف قانصوه، عزّ نصره في أيام المقر
الأشرفي الأمير السيفي عين مقدم الألو

بالديار المصرية سييبي الأشرفي نائب القلعة
المنصورة بحلب عز نصره سنة ٩١٥هـ.

هل ذلك البخار لهاث؟

هل تلك الحفرة سرير؟

نثار خشب، نبات شبه ذابل شجرات تكاد أن تبكي
ركام حصي وغبار أشباح ذاكرة تتكىء حاسرة
الرأس على عجيزة القلعة القلعة أم فقدت جميع
أبنائها تنحني على شرفات تطل على صحراء
الذكرى. حولها طرق يرسمها فراغ الخطوات،
أشخاص يخرجون لتوهم من أنقاض التاريخ^(١)،
مهزومين يحملهم اليأس على أطراف أظافره.

(١) التاريخ جسد خراب، -
كيف يدخل فيه وروحه أكثر
خراباً؟ لكن كيف يهرب منه،
هو الذي يتقلب بين يديه؟

استحضر سراً شبح الموت وعجب من نفسه كيف
أخذت تتحدث معه وتتنزه خفية خارج جسده، بين
يديه وعينييه.

لم يلمح طفلاً أم ترى شبه له أن الأطفال هنا كلهم
رجال قبل الأوان؟

لم يلمح كتاباً أم ترى شبه له أن الكلمات هنا
أخشاب ومسامير؟

غير أنه سمع من يقول: ينبغي أن تكون القصيدة
قناة ينبغي أن يكون الكتاب رغيماً

وَحُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّ الْأَبْجَدِيَّةَ طِفْلَةٌ مُتَشَرِّدَةٌ لَا مَكَانَ لَهَا مَعَ
أَنَّهَا تَقِيمُ فِي الْمَتَحَفِ دَاخِلَ قَفْصٍ، وَأَنَّهُ أَخَذَ يَتَشَرَّدُ
وَرَاءَهَا لِكَيْ يَطْبُقَ عَلَيْهَا حَنَانَ ذِرَاعِيهِ.

قَرَأَ كِتَابَةً بِأَبْجَدِيَّةٍ ثَانِيَةٍ عَلَى بَابِ أَنْطَاكِيَّةٍ، -
«بِسْمِ اللَّهِ

أَمَرَ بِعِمَارَةِ الْبَابِ وَالْأَسْوَارِ بَعْدَ خَرَابِهَا وَدَثُورِهَا وَمَحْوِ
رَسُومِهَا،

مَوْلَانَا السُّلْطَانَ الْأَعْظَمَ مَالِكَ رِقَابِ الْأُمَمِ سَيِّدَ
سُلَاطِينِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ سُلْطَانَ الْبَرِّينِ وَخَاقَانَ
الْبَحْرَيْنِ وَخَادِمَ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ سُلْطَانَ الْإِسْلَامِ
وَالْمُسْلِمِينَ نَازِلَ الْغَزَاةِ وَالْمُجَاهِدِينَ الْعَالَمِ الْكَامِلِ
الْمَلِكِ الْمُؤَيَّدِ الْمَنْصُورِ خَلَّدَ اللَّهُ مَلِكَهُ

فِي كِفَالَةِ الْمُقَرَّرِ الْأَشْرَفِيِّ السَّيْفِيِّ»

(. . . .) («هنا،

كَانَ يَتَدَرَّبُ عَلَى الْمَوْتِ فِي قَلْعَةٍ ثَانِيَةٍ تَلَّةٌ عَالِيَةٌ
تَشْرَفُ عَلَى الْمَدِينَةِ لَيْسَ فِيهَا إِلَّا الصَّرَاخُ وَإِلَّا قَدُورُ
الطَّعَامِ الَّتِي يَغْطِيهَا الذَّبَابُ

كَأَنَّهُ يَرَى الْآنَ ذَلِكَ الطَّاهِي عَابِسًا ضَاحِكًا مَعًا يَكْشِطُ
بِمِغْرَفَتِهِ الْخَشَبِيَّةِ الضَّخْمَةِ الذَّبَابَ عَنْ وَجْهِ الْقَدْرِ
ثُمَّ يَمْلَأُ بِالْمِغْرَفَةِ ذَاتَهَا صَحْنَهُ النُّحَاسِيَّ الصَّدِيقَ.

وكان يأكل كغيره كان في الطعام رغم كل شيء
وربما بفضل كل شيء لذة ومتعة .

كان الجنون توأم الخبز والرأس فريسة القدم
ولم يكن لديه آنذاك شيء يقوله لأي شخص
لكن كان أحياناً يجروء على التنهد خفيةً
وهمساً» .

قرأ كتابةً على باب الحديد، -

«أمر بعمارة هذا الحصن المنيع الباب
مولانا السلطان الملك قانصوه الغوري
عز نصره

بولاية مملوكه أبرك مقدم الألوף بالديار
المصريّة وشاد الشرايات والخانات الشريفة، ونائب
القلعة المنصورة بحلب المحروسة، أعز الله أنصاره
سنة ٩١٥» .

وقرأ كتابةً على قُضطلٍ شباذق : -

«أمر بإنشاء هذا السبيل المبارك المقرّ الأشرف العالي
المولوي المالكي المخدومي الكاملّي السيفي يلبغا
الصالحى كافل المملكة الحليّة المحروسة أعز الله

أنصاره، من ماله، ابتغاء لوجه الله تعالى يقيه العطش
الأكبر يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب
سليم، في ربيع الأول سنة ٧٤٦هـ.

وقال أبجد:

رأيت أيامي كأنها تخرج من الحجارة^(١)، وتندلق
أمامي. حاولت أن أقول لذلك النهار: اذهب
واتركني. حاولت أن أقول لشمسه: كوني يدي
اليمنى، ولو مرة واحدة، واكتبي ما أمليه عليك.

لم تسمعني الشمس. كانت تعطي أذنيها لصوت آخر.
وخيل إلي كأنني غيمة لا تعرف من أين جاءت ولماذا
وكيف؟ تراها غيمة عشقت «حارة الجب»؟ تراها
لا تزال في «ساحة فرحات»؟ أم لعلها آثرت البقاء في
«سوق الحراج»؟

تنهدت: «أيتها الغيمة أنا أنت، وأنت لست أنا».

قرأ كتابة على خان القصايتية، -

«أنشأ هذا الخان المبارك في أيام السلطان الملك
الأشرف أبي النصر، قانصوه الغوري عز نصره، المقر
الأشرف السيفي في عين مقدم الألوف بالديار
المصرية،

(١) «لما ضاقت مكة على
بني إسماعيل وجرهم،
تفسحوا في البلاد يلتمسون
المعاش. كان لا يرحل واحد
منهم إلا حمل معه حجراً من
الحرم، تعظيماً له، وصباية
بمكة وبالكعبة، يضعه حيثما
حل، يطوف به طوافه
بالكعبة.

ثم أخذ الناس يعبدون
ما استحسوا من الحجارة».

*

«كان عمرو بن لحي أول
من غيّر دين إبراهيم
واسماعيل، ونصب الأوثان.

*

«رأيت عمرو بن لحي،
يجر أمعاءه في النار، على
رأسه قروة». (حديث).

*

«قدم عمرو بن لحي
بصنم يقال له هُبَل، من
هيت، من أرض الجزيرة،
نصبه على البئر في بطن
الكعبة، وأمر الناس بعبادته.
كان الرجل إذا قدم من سفر
بدأ به على أهله، بعد طوافه
بالبیت، وحلق رأسه عنده».

*

وشاد الشّراب خاناه الشريفه بها ونائب القلعة المنصورة الحليّة المحروسة أعزّ الله أنصاره، ابتغاء لوجه الله تعالى. ومن تعرّض إليه كان الله ورسوله خصمه، وذلك في شعبان المكرّم سنة ٩١٦هـ.

«كان عند هبل في الكعبة سبعة قِداح، كلّ قدح في كتاب.

العقل نعم لا منكم (وسيط)، مُلصّق (لا نسب له) من غيركم (حليف) المياه».

※

«دخل رجلٌ من جرهم بامرأة منهم إلى الكعبة فَجَر بها.

اسم الرّجل أساف اسم المرأة نائلة، مُسِخا حجرين. أخرجا من الكعبة. نُصب أحدهما على الصّفا والآخر على المروة. لم يزل الأمر يتقادَم حتّى صار يتمسّح بهما مَنْ وقّف على الصّفا والمروة، ثم صارا وثنين يعبدان، وكان يُنَحَر عندهما».

※

«دخل الرسول مكة، يوم الفتح، وفيها ثلاثمئة وستون صنماً شَدها إبليس بالرّصاص. وكان بيد الرّسول قُضيب، كان يقوم عليها ويقول: جاء الحق وزهق الباطل. ثم يشير إليها بقضيبيه، فتتساقط على ظهورها. ثم جمعت وكُثرت

هكذا يجلس الزمن في القلعة على كرسيّ يَسع التّراب والهواء. حين يعمل تبرد الشمس وتمدّد على الأرض. تخرج رياح كثيرة تسير خارج القلعة أشجاراً أشجاراً. تهيج هذه الرّياح أجزاء الكون، فينحني جسده قوساً تضطرب وتلتهب وتكون المسافة التي نسمّيها المدينة قد تحوّلت إلى جرّة مملوءة عطشاً. وترطب النّفس ثم تيس ثم تنصدع، ويعلو منها بخارٌ برقة النسيم يدغدغ الشجر وما يختبئ وراءه وفي تقاطيعه من غاباتٍ ونباييع.

للشمس في هذه المسافات خيوطٌ حين تنقطع تتحوّل إلى غيوم. وكلّ نجمة فيها طريقٌ تنزل منها ألوان تختلط بالتراب، فيتحوّل كلّ شيء: الندى مطرٌ يمشي، والثلج مطرٌ ينام.

وقال أبجد:

- رأيت في هذه المسافة حجراً أسود يسقط من السّماء، يتكئ عليه شيخٌ، والغربان تطير فوق رأسه تنتظر موته.

ورأيت جنازةً ترافقها المشاعل والمزامير،
وكنت أسمع تسبيحَ الشجر.

وحرقت بالنار. خرجت من
أحد الأصنام المكسورة
المحروقة امرأة سوداء شمطاء
عريانة تخمش وجهها وتدعو
بالويل. قيل للرسول الخبر.
قال: تلك نائلة».

*

«رَنَ إبليس ثلاث رَنَات:
رَنة حين لُعن، فتغيرت
صورته عن صورة الملائكة،
ورَنة حين رأى الرسول قائماً
بمكة يُصلي، ورَنة حين افتتح
الرسول مكة.

اجتمعت إليه ذريته،
قال:

- عبناً تردون أمة محمد
إلى الشرك، لكن أفضوا فيهم
الثراح والشعر».

(١) «تقول طائفة من أهل
الكلام إن العرش فلك مستديرٌ
يحيط بالعالم. لكن ثبت في
الشرع أن العرش سريرٌ ذو
قوائم تحمله الملائكة. وهو
كالقبة على العالم، أو هو
سقف المخلوقات»
(الحافظ بن كثير الدمشقي).

قلتُ: بُنيت القلعة في تطابقٍ تامٍّ مع المدينة الأولى.
وسألتُ القلمَ أولَ الخلق عن تكوين المدينة الأولى
فاستجاب. قال:

«خلق الخالقُ غماماً تحته هواء فوقه هواء
خلق الماء

جعل عرشه^(١) على الماء

جعل الماء على مثن الرّيح

أخرج من الماء دخاناً ارتفع فسماه السماء

أيّس الماء أرضاً واحدةً - فتقها سبعاً

وضع الأرض على الحوت

الماء على حجرٍ عريضٍ أملس

الحجرَ على ظهر مَلَك

الملَك على الصخرة التي ذكرها

لقمان (ليست في السماء ولا في الأرض)

الصخرة على الرّيح

تحرك الحوت

اضطربت الأرض وتزلزلت
أرسي عليها الخالق الجبال فقرّت (لهذا تفخر
الجبال على الأرض).
خلق الخالقُ اللَّيل قبل النَّهار
خلق الشَّمسَ والقمر على عجلتين، لكلّ عجلة ثلاث
مئة وستون عروة، يجزّها ثلاث مئة وستون ملاكاً،
يسقط الشمس والقمر في بَحْرِ بين السَّمَاء والأرض،
وهذا كسوفهما
تخرجهما الملائكةُ جَرّاً، وهذا شروقهما».

✱

(...)

«أيتها الغيمة، أنا أنت، وأنتِ لستِ أنا».

✱

ربّما، بفعل هذه الغيمة، لم يزر عمود سمعان لم
يكن في حاجة إلى أن يحوّل حياته إلى عمود آخر
لم يكن في حاجة إلى أن يرى السَّمَاء جريدةً والشجر
أقلاماً كان انحيازه مريباً ولم تكن فضّة المدينة
كلاماً ولم يكن ذهبها صمتاً.

كان النَّهار يتوكأ على طفولة المساء
الشمس تنام إيداناً بصلحها مع المُتعبين والليل
يتهايم ليملاً جيوبه برؤوس العشاق

في مثل هذا الوقت الذي ينسج المدينة وتنسجه،
والذي هو صيفٌ ربيعٌ كأنه الخريف،
خطر له أن يتساءل: هل الكتابة هي، وحدها،
الشتاء؟

وخطر له أن يضع مكان التاء حرفاً آخر، لا لأن
الأشياء في أوج وضوحها لا لأن التخيل يفارقه
وينأى لا لأنه يعيش حقيقة ما ظنه خيالاً،

بل لأن الكتابة في مثل ذلك الوقت تُشبه التيمم في
أرضٍ يغمرها ماء المعنى

هذا ما كان يقوله الشيخ فيه،

هل للطفل فيه نزوعٌ آخر لا يتبينه؟

ماذا تريد، إذن، أيها الطفل؟

قلت له مرّة: «الأفكار سُرعانَ ما تموت»، ولم يُضغ
كان الحقّ معك هي ذي يراها كمثّل ثمارٍ
تتساقط ولا يأبه لها حتّى البستانيّ الذي أمضى حياته
ساهرّاً عليها.

الآن، ماذا تريد أيها الطفل؟ لك كلّ شيءٍ إلا أن
تُحاولَ إغراءه بأن يشارك في لهوك الفردوسي.

أنت أيضاً تخطيء أحياناً أيها الطفل.

قلت له مراراً: «أينما ذهبت في أنحاء المدينة ستري
المتنبي».

ربّما لن ترى أثراً لسيف الدولة لكن ستجد في كلّ
زاوية أثراً من صديقك المتنبي».

قَلْبُ الشَّوَارِعِ نَقَبٌ فِي الْأَزَقَةِ تَقْرَى الجدران
تَسْلُقُ جبال الهواء أمسك بجبال الشمس لا أثر
كلّاً لا أثر.

أنت أيضاً تخطيء كثيراً أيها الطفل.

ليست السّماء زرقاء فوق المدينة وليست رمادية ليس
للسّماء لون، للسّماء رائحة وليس هناك مصدر تستطيع
أن تقول عنه بيقين: هوذا أصل الرائحة. وعندما
تحاول أن تسأل الشمس أو ناحية في الفضاء، لا يأتيك
جواب تزداد حيرتك وتشطّ بك البلبلة

منشارٌ بعلو السّماء يغوص في جسد المدينة

أهو أصل الرائحة؟

كلّاً، قالت له حجارة تتوجت بالنقوش وجاهر
بالكلمة ذاتها خطّ كوفيٍّ موزّق.

غضب على قدميه لأنهما لم تتعبا غضبت عليه
مئذنة جامع الأطروش لأنه لم يعرف، هو الذي يقول
برؤية ما لا يرى، أن يقرأ وجهها ولا أن يقرأ ما وراءه.

«سعيدة بهذا الفراغ الذي أتلاًأ فيه»: قالت له مئذنة
جامع التوتة وكان قد سلّم على جامع القيقان في حيّ
العقبة وشعر منذ وقعت عليه عيناه كأنه هو الذي يقبل
نحوه آتياً من سفرٍ في أقاليمٍ ممّا قبل التاريخ.

حيّ التلّ، -

في حيّ التلّ، سار وسط أريج ينبعث من ثياب النساء
وأعناقهن دافقاً كمثّل طوفانٍ أخضر أريجٌ أحسّ
كأنه يجعله، بسحرٍ ما، كائناً غير مرئيٍ يمضي وقته في
صناعة الغيم

لم يفهم كيف يلبس الفضاء هنا ثوباً مليئاً بالثقوب. لم
يفهم كيف أنّ الكلام هو الذي يفتح هذه الثقوب.
هل يقدر الكلام أن يتحوّل إلى نملٍ طائر؟.

لكن، أصغوا.

بحر قائم في الهواء

«كانت المدينة ألف قبل تكوينها جوهرة خضراء،
نظر إليها الخالق نظرة هَيَّيَّة، فصارت ماءً.
نظر إلى الماء غَلَى وتصاعد منه دخانٌ وزبد
صار الزبد أرض المدينة والدخان سماءها
شَدَّها الخالق بالجبال لكي لا تهوي أو تميد،
وجعلها مَسْكَنًا لِلرَّيَّاح والماء والشجر وحجارة
الكبريت والإنسان أحياناً.
وزيَّنها بالأزمنة ووعدَها بأن تتحوَّل إلى أرض ثانية،
بيضاء - جميلة كالخبز ووضع في سمائها شَمْساً
من ضوئه تتدلَّى منها عجلةٌ بثلاثمئة وستين عروة
يتأرجح فيها ثلاثمئة وستون ملاكاً لكلِّ ملاكٍ وجهان
الأول يُسمَّى النهار والثاني يُسمَّى الليل
وسوَّر السَّماء ببحرٍ قائم في الهواء تسكن فيه النُّجوم
ويدور حول نفسه سريعاً كالسَّهم ومنح لكلِّ ما
فيها نعمة الكلام، -

كان النَّسر يَأْتِي إلى الحوت في البحر فيخبره بما في
البرِّ، ويَأْتِي الحوت إلى النَّسر فيخبره بما في البحر».

الشمس والقمر

«كانت الشمس في المدينة ألف تسقط أحياناً من
عجلتها، وتسود، تخويفاً للناس .

وكثيراً، كانت تُحبس هي والقمر، تأديباً، -

وكانا يسجدان ويُصليان ويستأذنان بالشروق، فلا يُؤذنُ
لهما، إلا بعد انقضاء ثلاث ليالٍ حيث يكونان في سُرة
السّماء،

ويأتي إليهما ملاكٌ يأخذ بقرونهما، ويطلعهما من
الشرق، من باب التوبة.»

تكوين

(المدينة ألف)

«نَصَبَ بانيها أخشاباً

شَدَّها بحبالٍ طويلة تتدلَّى منها أجراسٌ صغيرة ووصلها
بعمودٍ من الرّخام علق على العمود جرساً كبيراً
أمر البنائين أن يضعوا أساساتها دفعةً واحدة من سائر
أقطارها حين تتحرك الحبال ويرنّ الجرس .

ثم أخذهُ النوم

في نومه

جاء غرابٌ أسودٌ أبيض جلس على حبل
الجرس حرّكه رنّ الجرس الكبير وتحركت
الحبال وخفقت أجراسها الصغيرة آنذاك وضع
البنّاؤون الأساسَ دفعةً واحدة
وتَمَّ هذا كله بحيلٍ
وحركاتٍ فلسفيةٍ .

كان بناء المدينة طبقاتٍ بقناطر عالية يسير تحتها
الفارس ، رافعاً رمحه وكان لهذه القناطر والطبقات
ثقوبٌ للضوء ومنافذ للهواء وقيل إن المدينة بنيت
على مثال مدينة أخرى تجلس على كرسيٍّ من الزجاج
بهيئة السرطان في جوف البحر - مليئة بالتمثيل :
تمثالٌ يشير بسبابة يده اليمنى نحو الشمس أينما كانت
تعلو الشمس فتعلو السبابة وتنخفض فتخفض .

تمثالٌ يُنبئ بالعدوّ -

حين يدنو من المدينة
يسمع للتمثال صفيّرٌ هائل .

تمثال يقيس الوقت : يستقبل كلّ ساعةٍ تجيء بصوتٍ
يختلف عن صوته الذي استقبل به الساعة التي مضت .

مصادفةً مرّ أبجد في ناحيةٍ من المدينة ألف يقال
لها ، شجرة الزقوم . تمتد هذه الناحية بين جهتين
- وفُسر ذلك بأن ساكنيها لا يعرفون المستطيل أو
المربع أو المثلث أو متوازي الأضلاع أو غيرها من
مثل هذه الاشكال هي خطّ مستقيم أو متعرج أو
منحنٍ أو لولبي : خطّ له بداية محدّدة ونهاية محدّدة .

الإنسان في هذه الناحية جهتان : أبيض أو أسود ،
قصير أو طويل ، فقير أو غني . الكون كذلك جهتان :
واق وويق . لذلك نادراً ما تتحدث عن شيء اسمه
البرّ أو البحر وهي إن تحدّثت عن البحر تسمّيه جهنّم ،
وإن تحدّثت عن البرّ أو اليابسة سمّتها الفانية .

في هذه الناحية تسير الجبال سير السحاب فتكون سراباً
وترتج الأشجار فتكون كالسفن في البحر أو كمثل
القناديل المعلقة في الرّيح

وفيها صوّر

ينفخ نفخة الفزع

ونفخة الصّعق

ونفخة القيام للربّ ،

فيطير الناس هاربين من الرعب، فتلقاهم الملائكة
وتضرب وجوههم.

وفي هذه الناحية،

تطلع الشمس من المغرب قصّة ذلك أنّها كلّما
غربت جاءت إلى العرش سجدت استأذنت
في الرجوع يأذن لها وحين يقرّر العرش أن
تطلع من المغرب تستأذن في الرجوع فلا يسمح لها
يطول الليل تعرف أنّها وإن أُذِنَ لها لن تدرك
المشرق تجيء إلى العرش وتقول:

رَبِّ، ما أبعد المشرق! مَنْ لي بالناس؟

وحين يصير الأفق مثل الطّوق، تستأذن في الرجوع،
فيقال لها:

- ارجعي واطلعي من مكانك هكذا تطلع على
الناس من المغرب

وفي ناحية أخرى رأى شجرة الزقوم كانت تفصله
عنها أمة هي بين الأمم كالشجرة البيضاء في الثور
الأسود (وقال آخرون: كالشجرة السوداء في الثور
الأبيض)

حول شجرة الزقوم سوق لا يُباع فيها ولا يُشترى إلا
صور النساء والرجال مَنْ يشتهي صورة يدخل فيها

ثم تجيء ریح تهبّ في الثوب والوجه، فيرجع
المسافر إلى زوجته أجمل وأشهى
ويكون الصخر كافوراً،
والمسك عالياً كالجبال.

رأى كرسياً أخذ يكلمه، وليس بينهما ترجمان.
كان عنده حوض، وعند الحوض ميزان
ورأى رجلاً في كفة فيها تسعة وتسعون سجلاً لذنوبه
وخطاياهم وفي الكفة الثانية بطاقة كالأثملة فيها كلام
كانت الكفة التي تحمل البطاقة هي الراجعة.
كان حول الميزان بقرة كمثّل الغمامة، والكتب تتطاير.
وقيل له هنا تبدأ مدينة الواقع.

التفت رأى حشداً يسير على خيط رفيع يقال له
الشعرة يستجدّ حتى يصبح كشفرة السيف ويستحضر
حتى يكون كمثّل الجمر كان الجميع صامتين إلا
واحداً يركب ناقه وآخر يغني بصوت يشبه الأذان
مروا على الشعرة غراً محجلين -

واحدٌ كمثل انقضاض الكوكب،

واحدٌ كمثل الرّيح،

آخر كمثل شدّ الرّجل - يُزْمِلُ رَمَلاً.

حين رأى الخالق، ما رأى، أمر الملائكة أن يرشّوا ماءً
يقال له ماء الحياة أخذ النّاجون ينبتون كما ينبت الحَبُّ
في السّيل الجميل، ويخرجون كأنّهم اللؤلؤ وفي
رقابهم عقودٌ وخواتيم.

سمع أحدهم يقول:

لكلّ شخص في مدينة الواق خيمة من لؤلؤة واحدة،
مجوّفة، طولها ستون ميلاً.

ولكلّ رجل في مدينة الواق اثنتان وسبعون زوجة
يدخل في كلّ واحدة دَحْماً دَحْماً.

وفي مدينة الواق فرسٌ من ياقوتة حمراء لها جناحان
تحمّل الرّجل وتطير به حيث يريد.

وفيها شجرة تخرج الثياب من أكمامها، وهي ثيابٌ لا
تَبْلَى، وفيها سحائب لا تُسأل شيئاً إلاّ أمطرته حتى
أنّ بعضهم يقول للسحابة: أمطرينا نساءً، فتمطرهم
نساءً.

وعنقود العنب فيها لا ينتهي يظل صاحبه يأكل منه
حتى نهاية العالم وهو كبير بقدر مسيرة شهر
للغراب

وفيه شجرة يقال لها الظل الممدود يسير الإنسان في
ظلها مئة عام. وليس في الواق شجرة إلا ساقها من
ذهب^(١).»

(١) روى أحدهم، قال:
«رأيت في هذه المدينة صنماً
عظيماً رجلاه في الأرض،
ورأسه في السماء. أعلاه من
ذهب، وأوسطه من فضة،
وأسفله من نحاس. وساقاه
من حديد ورجلاه من فخار.
فبينما أنا أنظر إليه قد أعجبني
حسنه، وإحكام صنعته، قذفه
الله بحجر من السماء، فوقع
على قمة رأسه، فدقته حتى
طحنه. فاختلط ذهبه وفضته
ونحاسه وحديدته وفخاره حتى
تخليل إليّ لو اجتمع جميع
الإنس والجن على أن يميزوا
بعضه من بعض، لم يقدرُوا
على ذلك، ولو هبت ريح
لأذنته. ونظرت إلى الحجر
الذي قذف به، يربو ويعظم
حتى ملأ الأرض كلها.
فصرت لا أرى إلا السماء
والحجر...».

فيما أخذ يفكر في هذه المدينة العجيبة خرج عنق من
النار وبدأ يتكلم كان رجل يتجه نحو العنق
سمع العنق يزفر ورآه ينزوي وينقبض ثم يشهق
إليه شهقة الناقة إلى بغيرها وكان قعر النار سبعين
خريفاً.

وعرف أن هذه مدينة الويق.

أصغى سمع الرجل يتحدث مع الخالق أو يتحدث
إلى نفسه:

- «مَسْتَنِي رِيحُهَا يَا رَبِّ، وَأَحْرَقْنِي حَرَّهَا.

(أزاحها الرب عن وجهي).

- يارب، قَرَّبْنِي إِلَى بَابِ الْوَاقِ.

(قَرَّبَنِي قَائِلًا : لَا تَسْأَلْنِي غَيْرَ ذَلِكَ)

سَكَتَ قَلِيلًا ، ثُمَّ قَالَ :

- يَا رَبِّ ، أَدْخِلْنِي مَدِينَةَ الْوَاقِ .

(قَالَ : أَلَمْ تَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْأَلَنِي ؟ مَا أَغْدِرُكَ ، يَا بَنَ آدَمَ
لَكِنْ ، مَا زَالَ يَسْأَلُهُ وَيَدْعُوهُ حَتَّى ضَحَكَ . حِينَ
ضَحَكَ عَرَفَ أَنَّهُ سَيَأْذَنُ لَهُ بِالْدَّخُولِ إِلَيْهَا .

(أَدْخَلَنِي وَقَالَ : اشْتَهِيَ كُلَّ شَيْءٍ !)

اشْتَهَيْتُ كُلَّ شَيْءٍ وَحَضَرَ بَيْنَ يَدَيَّ كُلُّ مَا
اشْتَهَيْتُ .

وَقَالَ لِي : خَلَّصِ اللَّبَنَ مِنَ الْمَاءِ !»

«مَدِينَةُ الْوَيْقِ نَارٌ كُلُّهَا ،

النَّارُ الَّتِي نَعْرِفُهَا جِزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ مِنْهَا ضَرَبَتْ بِالْبَحْرِ
مَرَّتَيْنِ ، وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ فِيهَا مَنْفَعَةٌ لِأَحَدٍ ،

وَكَانَتْ نَارُ مَدِينَةِ الْوَيْقِ حُمْرَاءَ ثُمَّ اشْتَعَلَتْ أَلْفَ سَنَةٍ
فَابْيَضَّتْ ثُمَّ اشْتَعَلَتْ أَلْفَ سَنَةٍ فَاسْوَدَّتْ وَهِيَ الْآنَ
سُودَاءَ بَيْضَاءَ

فَوْقَ هَذِهِ النَّارِ جِسْرٌ أَدَقُّ مِنْ شَعْرَةٍ وَأَحَدٌ مِنْ
سَيْفٍ عَلَيْهِ كَلَالِيْبٌ وَحَسَكٌ وَيَعْبُرُ النَّاسُ عَلَيْهِ
كَمَثَلِ الرِّيحِ وَالْبَرْقِ ، وَكَمَثَلِ أَجَاوِيدِ الْخَيْلِ .

ورأى رجلاً، يجيء وعلى ظهره شاة لها ثغاء،
وآخر على رأسه فرس تحمحم،
وآخر قتيلاً يمشي ورأسه في يده.
ورأى واحداً ينتعل نعلًا من نار، ودماعه يغلي من
حرارة نعليه، ورأى رجلاً يحكي ثم يسكت فجأة،
وحين سكت فمه أخذت تتكلم ساقاه.
ورأى واحداً يُصب الحميم على رأسه فينفذ من
الجمجمة حتى يصل إلى جوفه فيسلب ما فيه ثم يمرق
من قدميه،
ورأى شخصاً يُرمى في عين من النار يقال لها غساق،
ثم يُخرج منها وقد سقط جلده ولحمه عن عظمه،
فيلق جلده ولحمه في كعبه، ويترك وحيداً يمشي
يجرهما ورائه كما يجر ثوبه
ورأى فوق أهل مدينة الويق سحابة سوداء تناديهم:
ماذا تطلبون؟ فيقولون: ماء، ماء!
لكن السحابة تمطرهم سلاسل وجمراً
وكان بعضهم يتمدد في توابيت من حديد توضع في
القعر في تنور صغير كمثل القمع يقال له: جُب
الدمع. وقيل إن لهم طعاماً ذا غصة لا يدخل البطن
ولا يرتفع إلى الفم، فيبقى بين المعدة والحلقوم.

وأهل مدينة الويق لا ينامون ولا يموتون . يجلسون في
التار، يأكلون التار ويشربونها ويلبسونها . وقيل بين
أذن المقيم في مدينة الويق وكتفه مسيرة سبعين خريفاً .

وكان يسمع ضجيجاً فيقال له هذه أحجارٌ أرسلت في
مدينة الويق منذ سبعين خريفاً، والآن تصل إلى
قرارها .

وقال أبجد:

حين يستقر أهل مدينة الواق وأهل مدينة الويق كلٌ في
مدينته، يجيء واحدٌهم بكبشٍ لونه أسود يخالطه
بياض يضعه على الشعرة وينادي:
يا أهل مدينة الواق، أتعرفون هذا؟
فيقولون: نعم، إنه الموت .

ثم ينادي:

يا أهل مدينة الويق، أتعرفون هذا؟
فيجيبون: نعم، هذا هو الموت .
ثم يذبح الموتُ الكبش فوق الشعرة، ويقال لأهل
المدينتين:

خلودٌ في ما تجدون،

خلود ولا موت .»

الذِّكْرَى

III - II

المدينة هاء

المدينة هاء

مولودة لا تقدر أن تنهض من الفراش
الذي ولدت فيه.

*

تركب المدينة هاء

عربة تائهة،
لا تفكر، لا تحلم، ولا تتوقف عن الكلام.

*

تقول المدينة هاء:

إن لم تكن سعيداً بي، أنت يا من تبحث عن السعادة،
فابحث عن وكر - تمدّد فيه،
سُدّ فمك وأذنيك،
أغمض عينيكَ، ونم، ولا تستيقظ.

*

المدينة هاء

تُحلّ الكلام محل الأرض -
هكذا لا تظهر فيها الكلمات إلا مغطاة
بعباءة الغيب.

*

المدينة هاء

تفصل بين الوردة وعطرها
وتحرض الجسد على أعضائه .

✱

المدينة هاء

عربة تجرها ألفاظ أنحلها السير .
مكان يهمس أخباره
في أذني سجن .

✱

المدينة هاء؟

ضعوا رؤوس أعدائكم على رفوف الهواء،
وانتظروا الطير الأبايل .

✱

المدينة هاء

ذئبة تقتل كل يوم غزالة
لكي تغتسل بمسكها!

✱

المدينة هاء

تغطي وجهها وتضع على رأسها قبعة،

لها كذلك أظافر خاصة
تحكّ بها ظهر التاريخ.

✱

المدينة هاء
جسر بين العنق والمشنقة.

✱

المدينة هاء -
كثيراً، رأيتها تركب نهدين
من معدنٍ لا أفقه شيئاً من أسرارهِ.

✱

المدينة هاء
تعيش هائلةً في مزار
يعيش هائلاً في طبلٍ.

✱

المدينة هاء
تحمل زمناً أعرج أبكم
يحمل تماسيح - بيوتاً للناس.

✱

المدينة هاء

كمثل عبارة في حرفها الأول رجل

في حرفها الأخير امرأة،

وبينهما جسر

لا من الحب لا من العمل،

بل من القتل.

ثلاث لافتات على بوابة المدينة هاء

- ١ -

لا وجود لشيء اسمه الحرية
وما لا وجود له، لا يحتاج إليه الإنسان.

- ٢ -

لن تقبلك هذه المدينة
إلا إذا أقمت فيها ومعها
على بضع خطواتٍ من جهنم.

- ٣ -

تأملوا في هذا السيف:
غمده رأسٌ
يحرس سجنًا هو نفسه رأس.

المدينة واو

كل عمل تقوم به المدينة واو، تحسبه نصراً. لذلك
تحيا في هزيمة متواصلة.

※

تحتفي المدينة واو بماضيها كثيراً، ظناً منها أن الأشياء
والأفكار لا تدخل التاريخ، إلا عندما تصبح خارج التاريخ
- متحجرة.

※

حولت المدينة واو سكانها جميعاً إلى آلات. لم يعد
أحد منهم يبادر للقيام بعمل ما، بل لم يعد يدري ماذا يفعل.
ينتظر كل منهم يداً تجيء من فوق، أو من خارج، لكي تجد
له مكاناً أو ثقباً في سلسلة آلتها الثانية، الموصولة بالآلة
الأولى.

※

طبيعي أن يجد الفأر نفسه حراً في السجن الضخم الذي
أقامته المدينة واو لغزلانها.

※

أن تقول لبلادك، كما تقول لأمك، أحياناً، أكرهك،
وأن تقبل منك ذلك، فيما تحتضنك، أمر يؤكد عظمتها،

ويعطيها القيمة والمعنى .

وهو أمر لا تريد المدينة واو أن تفهمه ، وترفض أن

تسمعه .

✱

غداً، لن يكون للمدينة واو وللمقبرة إلا اسم واحد .

✱

التفت ، أيها العابر في المدينة واو : قل لي كيف امتحت

الطرق يمينا وشمالاً وراءك وأمامك؟

✱

يصتر سيد المدينة واو على أن أفراد الأمة يمكن أن

يكونوا مشوهين ، وأن تكون الأمة في الوقت ذاته ، كاملة

الخلق والخلق!

✱

نعم ، تحلم المدينة واو ، هي أيضاً ، لكنها لا تحلم إلا

بالخلاص من هؤلاء الذين تسميهم المرضى والذين يتحدثون

عن الحرية .

✱

كل شيء في المدينة واو متهم ، أو مشتبه به . ولست

مستثناة ، أنت أيتها الوردة . حتى لو صارت لك أجنحة وطرت

بعيداً ، فسوف يقال عنك : هه؟ تحولت إلى غراب .

✱

أن تحيا في المدينة واو، هو أن تشيع دائماً جنازة الحياة.

✱

كل ساكن في المدينة واو، يفكر راهباً ويعمل شرطياً.

✱

التقدم في المدينة واو، هو أن تنتقل من سجن كامل إلى سجن أكثر كمالاً.

✱

لا تقرأ القصيدة في المدينة واو، ولا تكتب إلا بوصفها دجاجة.

✱

واحد وواحد وواحد إلى ما لا نهاية، لا تساوي في المدينة واو إلا واحداً.

✱

لماذا تسكن في المدينة واو؟
- لأنها تتيح لي أن أختبر العدم، وأنا حي.

✱

الكلمات في المدينة واو ليست أبجدية، إنها نوع آخر من الحيوانات الداجنة.

✱

أُتنبأ أن تتحول الحجارة في المدينة واو إلى ملائكة .

✱

أن يمشي مخلوق على قدمين لا يعني بالضرورة أنه
إنسان : هذا ما نتعلمه من المدينة واو .

✱

أوه، لماذا لا تسقط المدينة واو إلا على رأس الإنسان؟

✱

تمضي المدينة واو وقتها باحثة في كيفية تحويل القدم
إلى رأس ، والمعدة إلى أذنين !

✱

قال العدم للمدينة واو : أحب أن انتمي إليك .

✱

ليس ساكن المدينة واو مسجوناً داخل جدرانها
وحسب ، وإنما هو مسجون أيضاً داخل رأسه .

✱

العنف هو لازورد المدينة واو .

✱

كتب - أبواق وركب منحنية، كتب - سلاسل يقين،
سدود ومنايس، كتب - دروب مقطوعة، كتب - لا تجرؤ أن
ترفع بصرها، كتب - حروب لقتل الأخ أخاه، كتب - أصول
في فن إبادة الرغبات: تلك هي بعض من الكنوز التي تختزنها
المكتبة العامة في المدينة واو.

✱

يخترق المدينة واو نهر، نصفه دم، ونصفه الآخر سائل
لتمويه الدم.

✱

التبريز في فن اعتقال الهواء وسجنه، التبريز في فن
محاكمة الورد، التبريز في فن صيد الأصوات: اختصاصات
جديدة أضافتها المدينة واو إلى الاختصاصات المعروفة في
برامجها التربوية.

✱

ما لا يقال عن المدينة واو، هو القنديل الذي أكتب في
ضوئه ما يقال.

✱

المدينة واو فأس بطيئة تحفر قبراً بلا قرار.

✱

المدينة زاي

قَدِّمُ إلى الجهة التي تفتتح الفوضى،
قَدِّمُ إلى الجهة التي تفتتح النظام،
الجهتان هما معاً طريقه إلى المدينة زاي
ومنها تجيء وحدة خطواته:
مفارقة لا ترقى إليها أية مسيرة.

※

تتكوّن المدينة زاي من الحروف التي تكوّن اسمها،
لا أكثر،
وربّما أقل.

※

تكرّر المدينة زاي دائماً:
ليس بين الجُنة والجَنّة،
إلا مسيرة نقطتين.

※

(من يوميات عثرتُ عليها بين أوراق شاعر نفته المدينة زاي،
ومات في المنفى):
أ - «الموت نفسه ليس مخرجاً.

- ب - بَخَرُوا أَعْضَائِي بِالرَّفْضِ ..
ج - للكلمات هي أيضاً جثث
وهي غالباً تظلّ سابحةً في رأس هذه المدينة .
د - أناسٌ

يحملون أفكارهم في جيوبهم .

- هـ - أرفض أن أطرّد شياطيني ،
وإلا كيف أقدر أن أرى الملائكة ؟
و - أتنزه كلّ صباح ، مع رفيقي الدائم :
المستحيل .

- ز - ليس للحصاد أخلاقٌ غير ما يقوله المنجل ،
ولا حيلةٌ للسنابل .

- ح - منذ اللحظة التي ولدت فيها
بدأت اتعرّف على موتي .

ط - ربما انقسمت في نفسي ، خصوصاً في شعري ، إلى
أشخاصٍ عديدين . ربما حرّضت أحدهم على الآخر ،
وواجهت أحدهم بالآخر ، وانتصرت لأحدهم دون الآخر .
وهذا كلّهُ ، لكي أكتشف الاحتمالَ ، الممكن ، الوجه الآخر .
لكي أهدم بلادة الوضوح ، ولكي أعطي للتناقض حدوده
القُصوى .

✱

المدينة حاء

ليس الجسم وحده هو الذي يتفتت في هذه المدينة، بل
الاسم أيضاً. رضي الأول أن يتمدد في حقيبة من التراب،
وقبل أن تحمله، مع أنها تشبه القبر. غير أن الثاني الذي رفض
أن يتخذ له كفناً إلا من كتان القمر، لا يزال يلتطم بحبر
لا أعرف كيف أصفه. ليس في كل حال، الحبر الذي تنتجه
آلة المعنى.

أتحدث عن غائب، لكنه في الوقت نفسه حاضر.
ويكتب كل يوم في هذه المدينة.

※

تنزلق بين أوراقه، ملء كلماته،
شظايا منطفئة تترمد بطيناً بطيئاً،
صفائح من معادن يجهلها،
هالات لا يقدر أن يفسرها ألا بمعاجم الكيمياء، وهي
ليست بين يديه.

وثمة شهبٌ تخترق فضاء المدينة حاء ملونة حتى
كواحلها بلهب الغضب،
يُشبه له أنه يحيا فيها.

※

القلب - مفكراً، والعقل - عاشقاً:
هكذا تريد له الحياة أن يكون، لكي يقدر أن يعيش في المدينة
حاء.

*

- (من خواطر شاعر في المدينة حاء، مات شاباً):
- أ - كيف أنتمي إلى وطن، لا ينتمي هو نفسه إلي؟
ب - مئة رغيف من القمح، لا تصنع رغيفاً واحداً من
الذرة.
ج - تجاهل وأنس،
إن كنت تريد أن تتجدد باستمرار.
د - أيها القصص، إنك تملؤني شيخوخة.
هـ - لا أخاف، ولا أفاجأ: ذلك أنني لا أمل شيئاً.
و - الغزالي - مُستنجداً بأبي نواس: هذا هو المشهد الذي
سيُتكرّر في الغرفة الطيبة المقبلة، غرفة التشريح
المعرفي.
ز - المسألة هي أن تكذب السماء، إن شئت أن تصدق
الأرض،
وأن تكذب الأرض إن شئت أن تصدق السماء.
ح - لن اعترف بأخطائي إلا لهذه الغيمة العابرة.

المدينة طاء

من زمن، دخلت شفرة الموت في عنق المدينة طاء،
لاتكاد أن تفتح لك أبوابها،
حتى تدخل في متاهة من العناق بين الموت والأفق.
تشعر كأنها لاتحيا بأحيائها، بل بموتها.
تشعر كأن حياتها اليوم هي موتها أمس.

※

من زمن، دخلت شفرة الموت في عنق المدينة طاء،
لم تعد إلا عربة تجرها ألفاظ أنحلها السير في صحراء
الآلة،

لم يكن لمعماريتها أن يتنبأ أن نوافذها لن تمتلئ
بالأعين بل بالستائر

ولا تتحقق من بشاعة الآلة إلا في هذه المدينة :
ترى جسدها يثّر تحت أكداس القمامة، من كل نوع،
وتكاد أن تصرخ عالياً ملء الأرض
هي ذي محاكم تفتيش أخرى لقتل الإنسان.

※

من زمن، دخلت شفرة الموت في عنق المدينة طاء،
كل ساكن فيها،

يعيش في ورقة، في خزانة، في دكان.
هكذا يتحول فيها التاريخ إلى حانوت، وتتحول
الكلمات إلى نساء يسرن في الشوارع بنصف جسد،
هكذا تبدأ الشمس يومها خطأ في المدينة طاء،
مثلك أنت، أيها العابر.

✱

من زمن، دخلت شفرة الموت في عنق المدينة طاء،
ولست هنا لأوحد بين الرباب والأرغن أو لكي أمزج حزني
بوردة الغياب.

أنا هنا لكي أمعن في التساؤل:
هل المنفى أول العتبات وآخرها؟
هل التاريخ بيت أشباح؟

✱

من زمن دخلت شفرة الموت في عنق المدينة طاء،
هكذا يغمرك فيها ضوء -

لا ضوء الشمس الطالعة، بل ضوء شمس غابت.
هكذا واكبني فيها مستقبل تخيلته واستدعيته،
وأخذ يقرأ معي:

لكن، ما تأويلك أيها الشعر؟

✱

من زمن، دخلت شفرة الموت في عنق المدينة طاء،
ألهذا تدخل أعضاؤك إليها في عيد، وتخرج منها في جنازة؟
ألهذا تقرأ أينما توجهت عيناك في صفحة فضائها:
«التاريخ غبار ذاكرة، والحاضر ذاكرة غبار»؟

(خواطر عُثِرَ عليها بين أوراق شاعرٍ
نفته المدينة طاء)

- أ - «أفضل اليد الصديقة على اليد العاشقة،
غير أن مشكلتي هنا،
هي أنني لا أعرف حباً خارقاً، ولا أعرف صداقةً
خارقة.
- ب - لا يذكر صديقي أنه عاش يوماً واحداً، خارج هذا
المأزق:
إما أن ينفصل عن نفسه لكي يلتقي بالآخر،
وإما أن ينفصل عن الآخر لكي يلتقي بنفسه.
- ج - يموت من كوني حياً، -
مسكين هو. لا أملك، مع ذلك، إلا أن أشفق عليه.
- د - لماذا أشعر أنني مشرد إلى الأبد، في كل جملة أكتبها؟
- هـ - نام الليل على وسادتي،
فيما كنت ساهراً.
- و - عَصْرٌ، -
سريّر تهزه الآلة.
- ز - تنحني سنابل القمح للريح،
لا لكي تُحييها،

بل لكي توذعها.

ح - لِحصى الشاطئ حكمة ما أرحبها وما أقواها:

بصمت أبدى، يُصغي

إلى الموج الذي يثرثر أبدياً.

ط - أتكلّم كثيراً على المتاه،

لا تظنّوا أنه في العالم الخارجى -

إنه في أحشائي .»

المدينة ياء

يتكلمون في المدينة ياء على الأجنحة دائماً، لكن ليس
في كلامهم غير القيود.

✱

تبدو السياسة في المدينة ياء كأنها مِرْجَلٌ ضخْمٌ بحجم
العالم، مليءٌ بحساء الرؤوسِ من كل نوع.

✱

لو صَحَّ أن تكونَ الحريةَ جسماً، لما كان هذا الجسم
في المدينة ياء، إلا حشداً هائلاً من الجراح خِيط بعضها إلى
بعض في هيكَل يطفو تائهاً في نَهْرٍ من الدم.

✱

تؤكد المدينة ياء، وفقاً لتقاليدها وتعاليمها، أن
المعرفة، في البدء، لم تكن للإنسان، بل للغراب، وأن
القتلَ (وليس الكلمة) هو الذي كان في البدء.

III

هَانَ عَلَى قَلْبِهِ الزَّمَانُ، فَمَا
يَبِينُ فِيهِ غَمٌّ وَلَا جَذَلُ
فِي سَعَةِ الْخَافِقِينَ مُضْطَرَبٌ
وَفِي بِلَادٍ مِنْ أَخْتِهَا بَدَلُ.

المتنبي

- ٣١ -

الْشَّارِي أَبُو عَمْرٍو^(١) يَخْرُجُ،
يَقْتُلُ بِاسْمِ الدِّينِ،
وَيُحَارَبُ، يُقْتَلُ بِاسْمِ الدِّينِ.
مَا أَعْجَبَ هَذَا الْإِيمَانَ، وَأَعْجَبُ
مَنْهُ أَنَّ الْقَاتِلَ وَالْمَقْتُولَ سَوَاءٌ
فِي عِلِّيْنِ!

- أ -

يَبْكِي آدَمَ
لَا مِنْ إِثْمٍ، لَا مِنْ نَدَمٍ أَوْ مِنْ حُزْنٍ.
يَبْكِي فَرَحاً
مِنْ نَشْوَتِهِ
بِبَهَاءِ الْعَالَمِ.

* طَبَخْتُنَا، وَتَطْبَخُ هَذَا الْوُجُودَ
عَلَى نَارِهَا الْمُلْغَزَةِ،
حِكْمَةُ الْمَعْجِزَةِ.

- ب -

نَضَلْ دَهَبْ

يَنْفُذْ حَتَّى الْقَلْبِ . تَرَاهُ

كَانَ نَزِيلاً فِي فَرْدَوْسٍ؟

- ٣٢ -

سِرٌّ^(١) إِلَى قَرْطَبَةَ

أَيُّهَا الرَّأْسُ ، لَا عَهْدَ عِنْدِي

لِمَنْ كَانَ ضَيْدِي .

أَتَرَاهُ الْخَالِقُ يَنْفَخُ أَيْضاً مِنْ رَوْحِهِ

فِي الرُّمَحِ؟ تَرَاهُ

تَسْبِيحُ الْقَاتِلِ ، بِاسْمِ اللَّهِ ، ضِيَاءٌ

يَصْدُرُ فَيْضاً عَنْ تَسْبِيحِهِ؟

* يُوَلَّدُ الْغَيْبُ تَوَّامَ قَابِيلَ - قَتْلًا ،

تُوَلَّدُ الْأَرْضُ تَوَّامَ أَنْشُودَةٍ .

(١) الحكم، صاحب
الأندلس، يخاطب رأس
عمه، المقطوع، سليمان.
وقد بعث به إلى قرطبة ليراه
الناس، اعتباراً.

- ج -

قل، إذن، أيها الفقيه،

أيا هادي الحيارى،

قل لنا: أي ماءٍ

يطهر مائدة الحنجره

من أقاويلها المنكرة؟

لاتقل هذه وحده بيننا،

لاتقل ذاك وصل،

ليس بيني وبينك غير الصحارى.

- ٣٣ -

في نساء^(١)،

النساء سبايا،

والبلاد رماذ -

هل تشك؟ تقدم

لك أن تتفحص،

أن تلمس.

(١) الإشارة إلى علي بن عيسى بن ماهان، قتل في مدينة نساء، أبا الخصيب وسبى نساء وذراريه.

* بيد من ضياء

ترسم الشمس وجه الحجر،

وبحبر الهباء

يرسم الله وجه البشر.

(١) الكلام للخليفة الرشيد،
بعد أن قتل جعفر البرمكي،
ونصب رأسه على جسر في
بغداد، وقطع جسمه نصفين
نُصبا على طرفي الجسر، ثم
أُحرقا.

عندما يلبس الليل جلبابه
وَيُجِيشُ حولي تهاويله
ويقول: تَهَيَّأْ، أَتَتَكَ الرُّؤَى
في بوارق مكسوة بالغيوم.

لا أرى ما أفيءُ إليه
أو أفوض جسمي إلى جسمه،
غير مغراج هذي النجوم.

- ٣٧ -

- أ -

«هوذا أجهزتُ عليه،
وَاسْتَأْصَلْتُهُ،

- جعفرُ كان شهاباً
وأنا من سَواه، مَن أشعلهُ،
وأنا أطفأته».

- كيف، لماذا؟

- «لو أعلمُ أن قميصي

يعلمُ ذلك،

أُحْرِقْتُهُ»^(١).

* لم تَبْحْ هذه المئذنة
بالقتيل - بِمَنْ تَلَّهْ، وبمن جَرَّهْ،
وَبِمَنْ كَفَّنَهْ،
وحده النخلُ نكسُ أغصانه.

- ب -

لا برامكة، حاصروهم

وأبيدوهم.

وخذوا جعفرأ -

قتدوه بقيد حمار. اضربوا عُتْقَهُ،

وانصبوا رأسه عالياً،

واقطعوا جسمه قطعتين -

اصلبوا القطعتين على الجسر،

ثم احرقوه.

لا برامكة - لا أمان لهم، لا

أمان لمن ينتمي إليهم، ولمن

يلجأون إليه.

واقتلوهم كباراً صغاراً، وعلى

كلّ درب،

وفي كلّ دار.

- ه -

أصحيح

أنا لا نموت، كما قال بعض النبوات،

لكننا ورق يتساقط من شجر لا نراه،

نغير أيقاعنا وخطانا

وسرايلنا

ونسافر من ظاهر الجواب إلى باطن

السؤال -

زادنا صمتنا

والدروب أظلة أيماننا

والمطي الخيال.

أصحيح

ما تراءى لتلك النبوات، يا هذه السهول

ويا هذه الجبال؟

* كيف نقدر أن نفهم العقاب

السمائي، أو نفهم الثواب،

والحقيقة تأتي وتمضي - غيمة تتقشع

في رقة الهدب، أو لمعة من سراب؟

(١) كان أنس بن أبي صاحباً
لجعفر، ومتهما بالزندقة.

(٢) هو إبراهيم بن عثمان بن
نُهَيْك. كان يذكر البرامكة
ويبكي عليهم، فإذا شرب
النبيد مع جواريه يأخذ سيفه
ويقول: واجعفر، واسيداه
والله لأقتلن قاتلك ولأثأرن
بدمك. وشئ به للرشيدي ابنه
وخصي له. وابنه هو الذي
أسرع وضرب عنقه، امتثالاً
لأمر الرشيد.

قال عن نفسه

إنه السيد الحاكم الكامل

وهو مفتاح هذا الوجود، وميزانه العادل
بعده، لا كلام: لا سؤال ولا سائل.

فلماذا صمت وآمنت، يا أيها المتفقه،

كالآخرين، وأنت الأمين المرجى،

كما علمونا،

وعيرك مستتبع جاهل؟

* من أين يجيء، وكيف يجيء
ليجلس في كرسي الحاكم،
طاعون دائم؟

- ج -

أنس بن أبي^(١)؟

ذاك سيفي تحت فراشي،
خذه، يا عبد، واضرب به عنقه.

- د -

«آه، واجعفر»:

كان يهذي ابن عثمان^٢ في
شربه. إبنه وخصي له
وشئاً للرشيدي: اضربوا
عنقه/

ضرب الابن عنق أبيه.

- هـ -

آه، واحيرناه،

ما تقولون في الإبن يقتل،
زُلفى لسلطانهِ، أباه؟

- ز -

يهبطُ وجهُ الخالقِ نحوكَ، لكن

تعلو بين يديه -

معجوناً بهما

مرسوماً بهما

محمولاً في مَوْجِهما.

عَجَباً!

كيف تجيء، إذن، مجبولاً

بالقُبْح، وكيف تكون شقيّاً؟

- ٣٥ -

- أ -

«مِنْ نَقْفُورٍ»^(١) ملكِ الرُّومِ،

إلى هَارُونَ ملكِ العَرَبِ:

كان حقيقاً أن تحمل أنت المالَ
إليّ، لهذا

أطلبُ أن تُعطيني

ما أعطتك الملكة -

ضَغْفاً واستِخْذاءً.

ولسوفَ أحكمُ سيفي

إن لم تفعلْ».

- ب -

«مِنْ هَارُونَ إلى نَقْفُورٍ، كَلْبِ

الرُّومِ: إليك جوابي -

لن تسمعه، لكن سترأه».

(١) نصّ الرسالتين، كما وردتا في المصادر التاريخية.

- أ -

«من نقفور ملك الروم،
إلى هارون ملك العرب، أما
بعد، فإنّ الملكة التي كانت
قبلي، أقامت مقام الرخ،
وأقامت نفسها مقام البيدق.
فحملت إليك من أموالها ما
كنت حقيقاً بك أضعافه إليها.
لكن ذلك لضعف النساء
وحمقهنّ. فإذا قرأت كتابي
هذا، فاردد ما حصل لك من
أموالها، وأذكر نفسك بما تقع
به المصادر لك، وإلا فالسيف
بيننا وبينك».

- ب -

«من هارون أمير
المؤمنين إلى نقفور كلب
الرّوم، قرأت كتابك يا ابن
الكافرة، والجواب، ما تراه
دون ما تسمعه».

* تتساءلُ؟ ضوءُ التساؤلِ هادٍ، ولكنّه
افتتانٌ

لا يقودُكَ إلا لكي تترحلَ من مَهْمَةٍ
إلى مَهْمَةٍ.

إِنَّهُ الدَّرْهَمُ
 يَتَذَكَّرُ أَحْلَامَهُمْ، وَيَغْتَبِرُ مِثْلَهُمْ
 وَيُصَوِّرُ أَيَّامَهُمْ
 وَيَقُولُ لَهُمْ مَنْ هُمْ.
 الْحَيَاءُ تَمُوتُ، تُشَيِّعُ، تُدْفَنُ -
 لَمْ يَتَقَدَّمْ إِلَى قَبْرِهَا
 حَاكِمٌ أَوْ فَتًى.
 وَحَدَّ الشَّعْرُ، صَلَّى وَغَنَّى.

- ٣٦ -

ثَوْرَةٌ فِي طَرَابِلَسَ الْعَرَبِ
 ضِدَّ الْوَلَاةِ،
 مَزَجَتْ خَمَرَهَا بِالْذَّمَاءِ،
 وَأَسْيَافَهَا بِالضَّلَاةِ.

* الْقَرَابِينُ فِي مَنْجْنِيقٍ،
 وَالْمُصَلَّوْنَ يُلْقَوْنَ أَيَّامَهُمْ وَأَعْمَالَهُمْ
 فِي دَمٍ فِي رِصَاصٍ : فِي قِذَائِفٍ وَعَدٍ.

- ط -

لا أريدُ ولا أتحيرُ - لكن
أصادفُ :

بيني وبين الكلام
شهوات -

مرّة، لا أفيقُ،
وأترك جسمي لباساً لها.

مرّة، لا أنام

لا أصادقُ إلا شهواتي ومعراجها، -
تتغيرُ في كلّ يومٍ، وتغيرُ أمواجها.

* زمنٌ بيتٌ: وعدٌ لقاءٍ

لكنّ البابَ، الجدرانَ، السَّقْفَ،
وكلّ نوافدهِ،
تلويحاتٌ وداعٍ.

- ٣٧ -

- أ -

لِسَمَرْقَنْدَ^(١) في هذه الآونة
أنّ الرّئة الواهنة -
قاتلونَ وقُتلَى
وحروبٌ تغيبُ، وأخرى
خلفها كاميّة.

- ب -

سَيْفٌ^(٢) يتكسرُ، يَهْوِي
في قبضة سَيْفٍ.

(١) تمرّد رافع بن الليث على
عامل سمرقند. قتله،
واستولى عليها.

(٢) سيف بن بكير، خرج
وقُتل.

- ٣٨ -

- أ -

يَسْكُرُ ابْنُ هِشَامٍ^(١)

بالرؤوس: الدماء له كالخمر -

الرؤوس كؤوس لها.

مرّة، تتدحرج بين يديه،

ويُنكس أجسامها.

مرّة، فوق أعوادها

لَعِبَ مُتَرَفٌ/

سَكَّرَ مُتَرَفٌ.

- ي -

ازْتَابَ، اسْتَوْحَشَ: كَلَّ كَبِيرٍ

صار صغيراً في عينيه،

وتَفَرَّقَ ذَهْنُهُ:

يَسْمَعُ ما لَا يُسْمَعُ

ويرى ما ليس يراه أحدٌ.

قال فقيهٌ عنه:

هذا رجلٌ مجنونٌ.

* فاجأته الغيومُ

بتأويلها،

عندما راح في الليل يقرأ ما كتبه إليه

النجومُ.

(١) قتل الحكم بن هشام، كما يُروى، ما يزيد على خمسة آلاف من أهل طليطلة وأعيانها. وصلب جماعة من قرطبة منكسين، وضرب أعناق جماعة.

- ب -

ثُرَوَانُ^(١) يثُورُ، سَوَادُ الْكُوفَةِ
أَخْضَرُ، وَالْأَشْجَارُ بَيُوتٌ.

أُتْرَى حَظُّ الثَّائِرِ

يَبْقَى فِي أَرْضِ اللَّهِ،

وَعِنْدَ مَلَائِكَةِ

الْآتِي،

حَظًّا عَائِزًا؟

- ج -

«اهْدِمُوا»^(٢) فِي الثُّغُورِ الْكِنَائِسَ،
قُولُوا لِأَصْحَابِهَا:

الْبَسُوا مَا تَشَاؤُونَ إِلَّا

الْبَاسَ الَّذِي يَتَرَبَّأُ

بِهِ الْمُسْلِمُونَ، وَقُولُوا لَهُمْ:

ارْكَبُوا غَيْرَ مَا نَرَكُبُ

فَلَنَا مَذْهَبٌ وَلَكُمْ مَذْهَبٌ».

- ك -

بَابِلُ سُرِقَتْ شَمْسُهَا

وَمَجَامِزُ يُونَانَ مِنْ بَعْدِهَا

لَهَبٌ ضَائِعٌ.

كُلُّ شَيْءٍ لَكَ الْآنَ، يَا أَيُّهَا الْمَتَفَقِّهُ،

جِسْمُ

وَرَعٌ ضَارِعٌ.

أَنْتَ بَابُ الْخُرُوجِ إِلَى كُلِّ بَابٍ،

وَأَنْتَ الصَّنِيعَةُ وَالصَّانِعُ.

(١) ثُرَوَانُ بْنُ سَيْفٍ قَتَلَ عَامَّةَ
أَصْحَابِهِ.

(٢) «أَمَرَ الرَّشِيدُ بِهَدْمِ
الْكِنَائِسِ فِي الثُّغُورِ، وَأَمَرَ
أَهْلَ الذِّمَّةِ بِمُخَالَفَةِ هَيْئَةِ
الْمُسْلِمِينَ فِي لِبَاسِهِمْ
وَرُكُوبِهِمْ».

* سَاعَةُ الْمَتَفَقِّهِ رَمْلٌ

عَقْرِبَاهَا كَلَامٌ

لَا يَقُولُ سِوَى نَفْيِهِ.

- ل -

قَالَ فَكَيْهَ يَهْدِي طِفْلًا:

لَا مَهْرَبَ

لَنْ تَقْدَرَ أَنْ تَذْهَبَ

حَتَّى لَوْ فَتَحْتَ أَبْوَابَ

حَتَّى لَوْ مُهَدَّتْ طُرُقُ.

مَا أَعْجَبَ هَذَا الشَّيْءَ الرَّاسِخَ فِيكَ،

الْأَقْوَى مِنْكَ،

الصَّارِخَ دَوْمًا:

لَا مَهْرَبَ.

- ٣٩ -

- أ -

حمزة^(١) سيفٌ

يَتَنَزَّهُ بَيْنَ رِقَابِ النَّاسِ.

- ب -

أذربيجان والخُرَّمِيَّةُ^(٢) في ثورة،

والرشيد يوجِّه فرسانه إليهم:

«اقتلوا كلَّ شَبَانِهِمْ،

وبيعوا ذراريهم

كالعبيد»/

ذاك أمرُ الرشيد.

* الْأَذَانُ يُدَلِّي قَنَادِيلَهُ

فِي قِبَابِ الْمَسَاءِ

يَرْتَقِي زَفْرَةً زَفْرَةً

دَرَجَاتِ السَّمَاءِ.

(١) حمزة الخارجي.

(٢) كان قائد جيش الرشيد
عبد الله بن مالك بن الهيثم
الخزاعي.

- ما الفرقُ بين الرَّمحِ في يدِ مُسلمٍ
والرَّمحِ - رُومياً؟ أذلك مؤمنٌ
والآخر الروميّ كافرٌ؟

- أسألتني؟ لا، لا تُكابِرْ
أَتى لك الإيغالُ في سِرِّ الأصولِ،
وأنت شاعرٌ؟

- ٤٠ -

صَلَّى، حمدَ اللهَ، وصاحَ كأنَّ
على شفتيه ناراً:
هاتوه^(١)، واذعوا قَصَاباً لِيَقْضِبَهُ،
وأرى كيف يُقَطِّعُ عضواً عضواً.
ثم تنهَّد: يا أَللهُ،
مَلَكْنِي أيضاً من رافعٍ
لَأَرَى،
كيف يُسافِرُ في الأحشاءِ
وفي الأعضاءِ،
الحدُّ القاطِعُ.

(١) قبيل موت هارون الرشيد
في طوس دعا بِقَصَابٍ وأمره
أن يقطعَ أعضاءَ بشيرِ بن
الليث، فلما فرغ القصاب من
عمله، أغمى على هارون،
ولم يلبث أن مات. وكان قد
قال له: «والله، لو لم يبقَ من
عمري إلا أن أحركَ شفتيَّ
بقتلك، لقتلتك». ورافع هو
أخو بشير.

* قال يهدي امرأة تلطم خديها على
عاشقها:
عملٌ كفرٌ - من البدعة أن يُلطمَ
خَدٌ فوق مَيِّتٍ.

(١) الفضل بن يحيى
البرمكي، ومات في حبسه
بالرقعة. كان يقال عنه: «لم يُرَ
في العالم مثله».

- أصحیح،

مَلِكُ المَوْتِ خَلِيلٌ، وهو لا يأكلُ،
واللَّحْدُ

كمثل المَهْدِ، أسرارُ طقوسٍ؟

- ٤١ -

مات في حبسه الفضل^(١)،
كانوا يقولون عنه:
«لا مثيل له في البشر».

- أصحیح

تخرج الرُّوحُ من المؤمن رشحاً،
ومن الكافر تنسلّ انسلاً؟

- أصحیح

يضغط القبرُ على صاحبه؟
أصحیح أنه يحكي ويمشي؟

إنقطع إنقطع
أي هذا الوتر.

* صرخَ الجلاّد: غريبٌ

كيف تطول وتنمو هذي الشجرة؟
لا ناب لها، لا أظفار -
من أين تجيء إليها الثمرة؟

- ٤٢ -

- أ -

القتال يمزق بغداد،
بغداد في كل يوم
تبخر في حلة من جثث
في قصور العبث.

- ب -

جِيءَ بِرَأْسِ عَلِيٍّ^(١):

طَوِيَ الْجِسْمَ كَطَيِّ الثَّوبِ،
يَدَاهُ

فِي رِجْلَيْهِ.

لُفَّ بِلَبْدٍ

وَرَمَوْهُ فِي بَثْرِ.

قال بزهر طاهر^(٢):

«رَأْسُ عَلِيٍّ بَيْنَ يَدَيَّ،

وَهَذَا خَاتَمُهُ -

حَمْدًا لِلَّهِ».

- س -

يَنْبَغِي أَنْ تَسَافَرَ، يَا أَيُّهَا الْفَقْهُ،

فِي أَلْفِ لَيْلٍ وَلَيْلٍ:

تُفَرِّقُ مَا بَيْنَ نَجْمٍ وَنَجْمٍ

وَتَجْمَعُ مَا بَيْنَ فَجْرٍ وَفَجْرٍ،

وَتُؤَالِفُ بَيْنَ النَّقِيزِينَ:

وَجْهِ الزَّوَالِ وَوَجْهِ الْأَبْدِ،

قَبْلَ أَنْ تَتَلَمَّسَ بَدْءَ الطَّرِيقِ

لِسِرِّ الْجَسَدِ.

(١) علي بن عيسى بن
ماهان، قائد جيش الأمين.

(٢) طاهر بن الحسين، قائد
جيش المأمون.

* زَمَنْ تَتَقَدَّمُ أَيَّامَ عَقْرِبِهِ الْمُبْهَمِ
فِي طَبُولِ الدَّمِ.

- ع -

أُتْرَاهِم، مَثَلْمَا قِيلَ عَنْهُمْ،
يَشْتَرُونَ الْجِبَالَ وَعَقْبَانَهَا
وَالْغِيَوْمَ وَأَطْفَالَهَا
وَيَبِيعُونَ لَيْلَ الْبَحَارِ؟
أَلْهَذَا، إِذْنٌ، لَا يَرُونَ الْحَقُولَ، وَلَا
يَنْحَنُونَ عَلَى الْوَرْدِ، لَا يُؤْمِنُونَ
إِلَى الْجُلَنَازِ؟
أَلْهَذَا، إِذْنٌ، سَاجِرُ الْقَوْلِ يَمْلَأُ كَفَّيْهِ
مِنْ فَلَكِي الْقِمَارِ؟

(١) الأَمِينُ وَالْمَأْمُونُ.

- ٤٣ -

حَزْبُ الْأَخْوِينِ^(١) : رَحَاهَا
أَدْغَالُ جَنُونٍ.
إِبْنٌ يَتَنَصَّلُ مِنْ أَبَوَيْهِ
وَأَخٌ لَا يَقْتُلُ إِلَّا أَخُوَيْهِ.

* لَوْ قِيلَ الْفَقْهَ قِرَاءَةُ ظَنٍّْ
لَا تُلْزَمُ إِلَّا الظَّنُّ، فَمَاذَا
سَيُقَالُ إِذْنٌ
عَنْ لُغَةٍ تَتَهَرَّأُ فِي شَفْتَيْهِ
عَنْ جَسَدِ الْأَرْضِ الْمَخْنُوقَةِ بَيْنَ
يَدَيْهِ؟

كلّما جاء وقتُ الهلالِ

يتخيّرُ من إرثه قِناعاً، ثم يهبطُ في خَفِيّةِ

يدورُ، يخصّ النساءَ بأسرارِه،

ويقول الذي لا يُقال.

ويسائلُ أعضاءه:

أتراهُ يُحسّ المطرُ

بالأنين الذي يتّصاعدُ من شهواتِ الشجرِ؟

أتراهُ يُحسّ الشجرُ

بالأنين الذي يتنزّلُ من شهواتِ المطرِ؟

- ٤٤ -

عَراداتٌ ومجانيقُ:

بغدادُ حصارٌ -

عيّارون^(١) غُراةٌ

ويخوضون الحربَ غُراةً

إلاّ مما يَستُرُ عورةَ كلّ منهم،
والرأسُ مُغطّى

بالخوصِ المحشوِّ برَمَلٍ:

خَوْصٌ سَمَوْهُ خَوْذاً.

والمقلّاعُ سلاحٌ لهم -

نهبوا بغداداً،

صارت بغدادُ خراباً -

«فَقراً خلاءٌ تعوي

الكِلابُ بها

يُنكِرُ منها الرّسومَ زائرُها».

(١) العيّار هو الشخص الذي

لا يهتمّ بأمور عيشه وإنما

يعيش كيفما اتفق. وقد ظهر

العيّارون في بغداد في أثناء

الحرب بين الأمين والمأمون.

والبيت الأخير للشاعر

يعقوب الخريمي من قصيدة

طويلة مشهورة، كتبها في

خراب بغداد، آنذاك.

ولعمرو بن عبد الملك

العثريس قصيدة في وصف

العيّارين قال فيها:

«خَرَجْتَ هَذِهِ الْحُرُوبُ

رَجُلًا

لَا لِقِحْطَانِهَا وَلَا لِنِزَارِ؛

معشراً في جواشنِ الصّوفِ

يغدون إلى الحربِ، كالأسودِ

الضوّاري

ليس يدرون ما الفرار، إذا

الأبطالُ عاذوا من القنا بالفرار

واحدٌ منهمُ يشدّ على ألفين

غُريانَ ما له من إزارٍ

ويقول الفتى إذا طعنَ الطعنة

خذاً من الفتى العيّارِ».

* عندما تشهدون القمرُ

وشوشوا البحرَ، غَطّوا سريرَ مناماته

بِشراعِ السّفَرِ.

عَالَمٌ دَاخِلٌ

كَيْفَ نُصْغِي إِلَى وَقْعِهِ
وَالدَّرُوبِ إِلَيْهِ بِلَا مَنَفَذٍ؟

عَالَمٌ خَارِجٌ

كَيْفَ نَقْتَصُّ آثَارَهُ
وَالدَّمَاءِ تَغْطِي خُطَاهُ؟

عَبَثٌ نَحْنُ فِيهِ وَمَنْهُ

وَالرِّيَّاحِ تَبَدَّلَ قِمَصَانَهُ
وَتُجَدَّدُ أَحْوَالُهُ.

* لست فقيهاً،

وأنا لا أشربُ خمرًا:

ما يَشْرَبُ عَقْلِي، لا أَشْرِبُهُ.

(١) «نُصِبَ رَأْسُهُ عَلَى بَرْجٍ،
وَكُتِبَ عَلَيْهِ: «هَذَا رَأْسُ
الْمَخْلُوعِ مُحَمَّدٍ».

أَمَرَ الْمَأْمُونُ لِمَنْ أَتَوْا
بِالرَّأْسِ بِأَلْفِ أَلْفِ دِرْهَمٍ».

- ٤٥ -

- أ -

ذَبَحُوا مِنْ قَفَاهِ الْأَمِينِ^(١):

خَذُوا رَأْسَهُ

إِلَى طَاهِرٍ.

نَصَبُوا رَأْسَهُ فَوْقَ رُمُحٍ. خَذُوهُ
لِلْخَلِيفَةِ كَيْ يَطْمِئَنَّ،

خَذُوا بُرْدَةَ الْخِلَافَةِ، وَالْخَاتَمَ،

الْقَضِيبَ: اطمأنَّ الْخَلِيفَةُ،

لَمَّا رَأَى

كُلَّ هَذَا، وَخَرَّ سُجُودًا: «لَكُمْ
أَلْفُ أَلْفٍ...»

- ب -

أَجْسَامُ أَجْسَامٍ^(١)
تَحُولُ فِي الشَّهَوَاتِ إِلَى
صُلْبَانٍ.
أَلْمَخْمُورُ يُقِيمُ النَّهْبَ،
الْقَتْلُ، الْحَرْقُ
ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ فِي قَرْطَبَةٍ
وَنَوَاحِيهَا.
أَلْمَخْمُورُ يَسُوقُ النَّاسَ
فِرَادَى وَجَمَاعَاتٍ،
كَالْأَنْعَامِ.

- ق -

هَلْ أَقُولُ لِدَاكَ الْفَقِيهَ:
خُلِقْتُ وَفِي قَدَمِيْ دُرُوبُ الضِّيَاعِ؟
هَلْ أَقُولُ: لِهَذَا تَلَبَّسَ جَسْمِيْ
حَالَ الْقِلَاحِ -
يَتَغَلَّغُلُ فِيهَا، يَرُوزُ مِفَاتِيحَهَا،
يَتَبَطَّنُ أَسْوَارَهَا.
هَلْ أَقُولُ لَهُ كَيْفَ أَجْمَعُ بَيْنَ
الطَّبِيعَةِ وَالطَّنْبَعِ:
كَيْ أَتَعَلَّمَ أَسْرَارَهَا،

* رَجُلٌ - نَجْمَةٌ تَتَطَوَّحُ، تَنْسَابُ فِي
لُجَّةِ الْبَحْرِ،
تَطْفُو عَلَى الْمَاءِ، تَعْلُو وَتَشْرُدُ
فِي طَبَقَاتِ الْغَيُومِ، -
أَتُرَاهَا تُجَنُّ النُّجُومَ؟

(١) قتل الحكم بن هشام في
الأندلس، وكان يُنادى: يا
مخمور، عدداً كبيراً من
المتمردين عليه في أرباض
قرطبة. وقيل إنه اختار ثلاثمائة
من وجوههم، فقتلهم
وصلبهم منكسين. وأقام
النهب والقتل والحرق ثلاثة
أيام.

أَوَّلُ الدَّهْرِ يَغْفُو عَلَى زَنْدِي الْآنَ،

أَقْرَأُ أَحْوَالَهُ،

وَأَقَالِيْمَهَا، وَتَقَاسِيْمَهَا، -

أَسْأَلُ الشَّمْسَ: لِمَ يَبْقُ مِنْهُ

غَيْرُ مَا حَفَظْتُهُ،

وَمَا قَلَّتْهُ -

مِثْلَمَا قَرَأْتُهُ الْغِيَوْمَ

فِي كِتَابِ النَّجُومِ.

(١) الكلام للحكم ابن هشام، مخاطباً أحد قواده. والخارجي المشار إليه ثائر من البربر. ويقال إن الحكم صلب اثنين وسبعين شخصاً من أعيان قرطبة وفقهائها، لمجرد تقديم إياه على شرب الخمر والانهماك في الملذات.

- ٤٦ -

«سِرْ إِلَى ذَلِكَ الْخَارِجِي^(١)،

وَجِئْنِي بِرَأْسِهِ،

فَأَنَا هَا هُنَا قَاعِدٌ فِي انْتِظَارِكَ،

إِنْ لَمْ تَجِئْنِي بِهِ، سَأَجِيءُ

بِرَأْسِكَ» - هَذَا هُوَ الرَّأْسُ بَيْنَ

يَدَيْهِ،

وَالْأَمِيرُ، كَمَا قَالَ، فِي قَصْرِه

قَاعِدٌ.

* هَاتِيهَا، نَخْبِكَ الْآنَ، يَا أَيُّهَا الْمَارِقُ

أَنْتَ بَابُ الدَّخُولِ إِلَى كُلِّ سِرٍّ،

وَأَنَا الطَّارِقُ.

- ٤٧ -

- أ -

إقطعوا رأسه^(١) وطوفوا به،
واقطعوا جسمه اثنين - نصفين:
نضفاً إلى ضفة، ونضفاً إلى
ضفة، -

دجلة ظامىءٌ لِلنَّظَرِ

كيف يُذبح في ضفتيه البشر.

- ب -

قتلوه^(٢) - بعضهم قال: أُعطي
سماً،

وهو في سجنه.

- ش -

هِمْتُ، غَنَيْتُ، نَادَيْتُ:

يا أَلَفَ الْبَدءِ، يا ياءُ،

يا أَيُّهَا الْأَبَدُ

كيف تزعمُ أَنَّكَ أبقى وأجملُ من ذلك
الحجرِ المتوحدِ

في ركن بيتي؟

عَجَبِي يَتَوَغَّلُ فِي غَيِّهِ، وَصَوْتِي

بَطِرٌّ، هَائِمٌ.

لم يُجِبْنِي فقيهُ، لم يُجِبْنِي أَحَدُ.

* بدم الأزمَنَّةُ

يَتَبَقَّعُ مُسْتَسْلِمًا

للحروبِ وأهوالها

جَسَدُ الْأَمَكْنَةِ.

(١) الإشارة إلى قتل أبي
السرّايا قائد عسكر الطالبين
الخارجين في الكوفة، سنة
٢٠٠ هـ.

(٢) هرثمة بن أعين.

- ت -

(١) يحيى بن عامر ابن
إسماعيل، الذي قتله المأمون
لأنه قال له: يا أمير الكافرين.

لا نعرفُ إلاّ أشياء
لا أسماءَ لهنّ، ونعرفُ أنّ
الإسمَ كمثّل الطّيفِ،
وما أبعدُه
حتّى حين نجاهِرُ: ما أقربُه!

أهناك فقيهٌ يعرفُ سِرَّ الإسمِ،
ويعرفُ أين يكون، وكيف يَجيءُ
المعنى؟

- ج -

يا يحيى^(١)، كيف تُسمّي
رأسَ الإيمانِ، أميراً
للكفّار؟ - تُراكِ سُمّتَ الدّنيا،
فطلبتِ الموتَ لكي تترخّلَ
عنها؟

* ليس لي ثقةٌ في نجومٍ
لا تقبل، في كلّ يومٍ،
كتفني شاعري.

نَضْنَعُ مِنْ كَرْسِيٍّ وَطَنًا
وَنُسَيِّجُهُ

بِرُؤُوسٍ قُطِعَتْ، بِحِرَابٍ تَدْمَى
وَنَعَزُّهُ

بَسْجُونٍ لَا حُرَّاسَ عَلَيْهَا
إِلَّا قَتْلٌ -

يَثَارُ، أَوْ يَسْتَكْمِلُ قَتْلًا.

اجْلِسْ، يَا هَذَا التَّارِيخِ الْوَاهِنُ فِي
أَحْضَانِ الْفِقْهِ - تَفَتَّتْ
وَارْقُدْ مِثْلَ رَمَادٍ.

* كِي أَضْحَكَ أَوْكِي أَبْكِي
أَسْكَبُ ظَنِّي فِي خَطَوَاتِي،
وَأُذِيبُ يَقِينِي فِي شَكِّي.

- ٤٨ -

- أ -

بعد أن قطعوا رأسه^(١)

ربطوا جسمه بحبل على جذع
رمح، وطاقوا به في مدينة بغداد
- مروا على بيته ليراه ذووه،
وطافوا به الكرخ، ثم رموه إلى
دجلة -

أيها النهر، ما أنعمك!

أيها النهر، ما أكرمك!

- ب -

آذَى فُسَّاقُ الْحَزْبِيَّةِ، وَالشُّطَّارُ
النَّاسَ كَثِيرًا.

قَطَعُوا فِي بَغْدَادِ الطُّرُقَا

أَخَذُوا غُلَمَانًا وَنِسَاءً، جَهْرًا.

فِي قُطْرُبُلٍ، رَاحُوا يَنْتَهَبُونَ،
وَقَالُوا:

لَمْ يَبْقَ مَكَانٌ فِيهَا،

أَوْشِيءَ،

إِلَّا سُرْقًا.

- خ -

أَبْدِي - وَلَكِنْ

لَا يَكُونُ، وَلَا يَتَجَلَّى،

وَلَا يَتَمَثَّلُ إِلَّا

فِي دَمِ زَائِلٍ:

هَذِهِ صُورَةُ الْغَيْبِ أَوْ صُورَةُ الْكُونِ،

أَوْ صُورَتِي -

وَلَكَ الْآنَ أَنْ تَتَيَقَّنَ، أَوْ تَتَحَيَّرَ،

يَا أَيُّهَا الْمَتَفَقَّهُ،

يَا سَائِلِي.

* لَا يَجِيءُ الْأَبَدُ

لَا تَجِيءُ السَّمَاءُ إِلَى الْأَرْضِ إِلَّا

فِي نَشِيدِ الْجَسَدِ.

- ٤٩ -

- أ -

خَلَعُوا^(١) المأمون، وقالوا:
إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمَهْدِيِّ، خَلِيفَتُنَا.
- «كَلَّا»،

لا طاعةَ للمأمون
تَرَكَ التَّسْوِيدَ، وَشَاءَ الْخُضْرَةَ،
هَذَا
مَسْحُورٌ، أَوْ مَجْنُونٌ!». .

- ذ -

- عندي، يا مولاي سؤالٌ.

- قُلُّهُ.

- كيف يقولُ العضوُ العَضْوُ، وينزلُ فيه - في
ماء القلبِ، وكيف يُلَابِسُ، كيف يعيشُ البَاهُ
البَاهُ؟

- سبحانَ الله. سؤالُكَ؟ ماذا قُلْتَ؟

أَتَسْأَلُ؟ عَفْوَاً

تلك أمورٌ

لا يعلمها إلا الله.

* النساء اللواتي ربطنَ سريري

إلى قَصَبٍ في ضِفافِ النَّهْرِ،

لم يَزَلْنَ كما كُنَّ - جَبْراً غريباً

في كتاب الصُّورِ.

- ض -

جَرَسُ يَعشِقُ الْأَذَانَ، أَذَانٌ

تَتَرَنَّمُ أَجْرَاسُهُ -

باسم تلك الجبال النحيلة في الصَّوتِ،

باسم اهتزازاتها،

ومقاماتها،

وإيقاعها.

غَيَّرُوا التَّسْمِيَةَ

غَيَّرُوا الْحُرُفَ وَالشَّكْلَ وَالتَّهْجِيَةَ.

(١) الفضل بن سهل، وكان يوصف بأنه «ذو الرئاستين» القلم والسيف. قتله في الحمام أربعة أشخاص مختلفو الأصول، وقد ضرب المأمون رقابهم، وهم غالب المسعودي الأسود، قسطنطين الرومي، فرج الديلمي، موقق الصقلبي.

(٢) بابك الخرمي الذي ادعى أن روح جاويدان بن سهل حلت فيه. قاد أصحابه الجاويدانية وتمرد.

قيل عنه: «دينه دين الفرج، ويؤمن بالتناسخ».

- ب -

إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمَهْدِيِّ يَسُودُ
الْكُوفَةَ. حَزَبٌ.هوذا الفضل^(١)، وزيرُ المأمونِ،
قتيلٌ.

- ج -

أَغْلَنَ بَابُكَ^(٢): «جاويدانُ روحٌ
حلت في جسمي

صارَتْ مَعْنَايَ،

وَصَارَ اسْمِي».

* قَمْرُ الْيَوْمِ يَفْرُكُ بِالْجَائِلِيقِ

يَدِيهِ، وَبِالْفَقْهِ يَفْرُكُ أَجْفَانَهُ، -

أَتُرَاهُ يَعُودُ إِلَى بَيْتِهِ سَالِمًا؟

- ٥٠ -

- أ -

بَغْدَادُ تُغَيَّرُ: تَخْلَعُ

إبراهيم بن المهدي،

وتدعو

للمأمون.

- ب -

قال المأمون: «الناس على

دَرَجاتٍ، -

مظلوم، أو ظلام

أو لا مظلوم لا ظلام.

الأول يرجو منا عدلاً،

والثاني يرجو عفواً،

والثالث مُسْتَعْفٍ،

يكفيه بيت يرتاح إليه».

- ظ -

كنت أعرف سِرَّ القتالِ، وأنشودة النَّصْرِ،

أعرف كيف سَيُخَفَّرُ قَبْرِي، وَيُصَلَّى عليه،

ومن سينوح عليَّ، وكيف وأنتي،

وأعرف شَكْلَ الزَّهْوَرِ التي سَتُكَدِّسُ حولي،

واللَّوْنُ والرَّائِحَةُ،

عندما كنتُ أَصْغِي لصوت الفقيه

يُرْتَلُ مَرَثَاتُهُ

لِلشَّهِيدِ المَشِيحِ، أو يقرأ الفاتحة.

* اهبطوا أيها الصَّاعِدُونَ، وذوقوا

بِهَاءَ الهَبْوَطِ،

ما الذي كان آدَمُ لولا الخطيئةُ، لولا

السُّقُوطُ؟

- غ -

(١) القائل هو الخليفة
المأمون.

لِعَصَا لَمْ تَكُن حَيَّةً
وَلَنْ تَتَحَوَّلَ فِي الْجَهْرِ أَوْ فِي
الْخَفَاءِ إِلَى حَيَّةٍ،
تُشْعِلُ الْأَرْضَ قِنْدِيلَهَا
وَتُقَدِّمُ لِلْعَاشِقِ الْمَتَمَرِّدِ،
مِرَاتَهَا
وَسَرِيرَ هَوَاهَا
وَمَنْدِيلَهَا، -
هَلْ أَقُولُ: السَّلَامُ عَلَى مَنْ عَصَى
أُيْهَذي الْعَصَا؟

- ٥١ -

«قد أبحنا»^(١) الكلام:
فَمَنْ قَالَ حَقًّا، حَمِدْنَا
وَمَنْ قَالَ جَهْلًا، نَبَذْنَا.
إِجْعَلُوا بَيْنَكُمْ أَصُولًا:
الكلامُ فِرْعَوْنُ
فَإِذَا مَا افْتَرَعْتُمْ،
رَجَعْتُمْ إِلَيْهَا».

* نَهَرُ التَّكْوِينِ، مِنْ هَابِيلَ مَشْطُورٌ
يَمِينًا وَشِمَالًا،
مَا الَّذِي يَشْطُرُ بَيْنَ الضَّفَتَيْنِ
غَيْرُ حَرْبِ الْأَخْوَيْنِ؟

- غ ٢ -
(استطراد)

سأل الرواي :

(١) علي بن أبي طالب

ما رأيي الفقه بقول علي^(١)

لغريب ضيف كان يسير لبيت المقدس - (هذا إن
صح النقل):

«لماذا السير لبيت المقدس؟ بغ رحلتك

وأقم في الكوفة - في مسجدها

الركعة فيه خمس في غيره.

فيه صلى إبراهيم، وصلى كل نبي، كل
وصي^(١).

(٢) في رواية: «ألف نبي،
ألف وصي».

وعصا موسى فيه، واليقطين، وفيه.

فار الثور، وفيه

مات يغوث ومات يعوق وفيه

صلى نوح -

فلماذا السير لبيت المقدس؟»

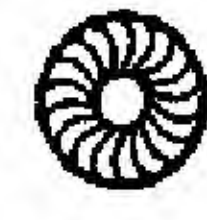
وثنى الراوي :

قالوا: غمس الله حروفه

في دمع^(٣) الكوفة.

(٣) في رواية: جبر.

هوامش



إذا اعتاد الفتى خوض المنايا
فأَهْوَنُ ما يمرّ به الوحولُ.
المتنبي

دنانير المغنّية

ماتت سنة ٢١٠ هـ.
(١) يحيى بن خالد البرمكي.

نَبَغْتَ عِنْدَ يَحْيَى^(١)

وَكَانَ الرَّشِيدُ يُحِبُّ السَّمْعَ إِلَى صَوْتِهَا: أَبَتْ أَنْ تَغْنِي

لِغَيْرِ الْبَرَامِكَةِ - اسْتَأْثَرُوا بِهَوَاهَا.

وَأَبَتْ أَنْ تَغْنِيَ حَتَّى لِهَارُونَ مِنْ بَعْدِهِمْ،

وَلَمْ تَقْبَلِ الزَّوْاجَ، وَظَلَّتْ

بَعْدَهُمْ، فِي اعْتِزَالٍ عَنِ النَّاسِ،

فِي بَيْتِهَا -

إِلَى أَنْ قَضَتْ.

أبو العتاهية

مات، سنة ٢١١ هـ.
سجنه المهدي العباسي لأنه
هجر قول الشعر وهذده بالقتل
إذا لم يعد إليه!

هجرَ الشعر - قرّر أن يتوقّف عن قوله :

لماذا، وما سرّ هذا القرار؟

أهو الشعر لهو؟ أم طريق بلا مخرج

نَتعلّم فيها الفراز؟

أهو الحسّ أنا نغامرُ فيه ونهوي إلى لاقراز؟

ولماذا يثور الخليفة، يُلقيه في السّجن : «تبقى سجيناً

إذا لم تعد إليه،

وقد أقتلُك.

ها أنا أمهلُك».

عاد للشعر، أطلق من سجنه.

ما الذي قاله بعد ذلك : شعرٌ

لمجد الخليفة، أم شعر فاجعة واعتبار؟

.....

شاعرٌ كان في بدء أّيّامه بائعاً للجراز.

هشام الفُوطي

فيلسوف معتزلي، مات
سنة ٢١١ هـ. (وفي رواية،
مات سنة ٢٢١ هـ.). من
آرائه: «فالناس لو كفّوا عن
الظلم، لا استغنوا عن الإمام»
وصفه الفخري في تلخيص
البيان، بأنه «الشيطان».

قال هشام:

«لو كفّ النَّاسُ عن العدوانِ،

لكانوا استَغْنَوْا

عن كلّ إمامٍ»،

كلّا لا حاجةً لِلسُّلْطَانِ

إلّا حيث الظلم وحيث العدوانُ.

ألهذا سَمّوه الشَّيْطَانُ؟

إبراهيم الموصلي المغني

مات سنة ٢١٣ هـ.

لم يكن دجلة نرجساً
لهوأي ولا مَرْكَباً،
والفرات على عهدِهِ
سفنٌ من جراحٍ، -
مُدَّ لي يدك الآن، يا حُبُّ،
دَهْرِي مُستودَعُ
للأعاصير تجتاحني -
ودمي مُستَباخ.

جبرائيل بن بختيشوع

مات سنة ٢١٣ هـ.

قال، وكان قوله

يَسْتَشْرِفُ العَصُورُ:

«لا شأن لي بِمَذْهَبٍ

لا شأن لي بِسُلْطَةٍ،

أَوْثَرُ أن أكتبَ في الطَّعامِ والشرابِ،

أو في صَنَعَةِ البُخُورِ.»

الأصمعي

مات سنة ٢١٥ هـ. من
أقواله المشهورة: «الشعر نكدٌ
بابه الشرُّ، فإذا دخل في الخير
فسُدَّ».

رِغْبَةُ الشَّرِّ تَنْسَابُ فِي رِغْبَةِ الْوَضْلِ،
وَالْوَضْلُ يَنْسَخُ أَحْوَالَهُ
فِي تَجَارِيِبَ تَنْسَخُ أَحْوَالَهَا
لَيْسَ لِلشَّعْرِ، فِي لَحْظَةِ الْوَضْلِ، إِلَّا
أَنْ يُفَارِقَ أَهْوَالَهُ
وَيُعَاشِرَ أَهْوَالَهَا.

أبو الهذيل العلاف

شيخ المعتزلة في وقته .
مات سنة ٢٢٦ هـ . يقول ابن
الراوندي ساخراً من إحدى
مقولات العلاف «ولي الله
يتناول الكأس من بعض
أزواجه، في نعيمه، بيده
اليمنى، ويتناول من بعضهن
ماتحفه الله به، بيده اليسرى .
إذا أخضر وقت السكون
الدائم (سكون أهل الخُلدين :
الجنة والنار) الذي هو آخر
الأفعال وهو على تلك الحال
فبقي كهيئة المصلوب ماذا
يديه في جهتين مختلفتين» .
حضر مجالس المأمون، وكان
يحاول أن يوفق بين القرآن
وآراء أرسطو، في ما يتعلق
بفكرتي الخلق والله .

قل لي :

ماذا أخذت يدك اليسرى

من تحف الله، وماذا

في يدك اليمنى :

نَهْدٌ، أم كأسٌ؟

كأسٌ؟ أي شرابٍ؟

لكن الساكن في الخُلدين

هل يتحركُ،

هل يتجلى، هل يستترُ؟

أم هو غيبٌ في المابين؟

قل لي : أين يكون هنا وهناك،

هذا القدرُ؟

أبو تمام

مات سنة ٢٢٨ هـ. قيل
عنه: «كان يسقي الناس ماءً
بالجرة في جامع مصر» / «كان
يخدم حائطاً بدمشق» / «كان
أبوه خماراً بدمشق» / «كان
أسمر طويلاً حلو الكلام، فيه
تمتمة يسيرة».

لأبي تمام

جَبْرٌ في الضوءِ، وضوءٌ
في طبقاتِ الجبرِ، له ميثاقٌ
مع مجهولاتِ
يستشرفها، يستخلصها، ويعاشرها
ويجادلها ويجافيها - طوراً،
ويُعانقها - طوراً،
كي يتدفق منها حُرّاً
نسغُ المعنى
في الأشياء، وفي الكلمات،
وفي الأيام.

إبراهيم النّظام

مات سنة ٢٣١ هـ.

ذكروا أنّه

عاشَرَ الثّوَيَّةَ والملحدينَ وأشباههم

وله سَقَطَاتٌ،

وتهمته الزّندقة

غير أنّ صديقاً له قال عنه:

«رجلٌ

لا نظيرٌ له»^(١).

(١) الجاحظ.

مُخَارِقُ الْمَغْنِي

مات سنة ٢٣١ هـ.
خاطبه مرّة أبو العناهية،
قائلاً: «يا دواء المجانين، لقد
رققت حتى كدت أن
أحسدك، فلو كان الغناء
طعاماً، لكان غناؤك أذماً.
ولو كان شرباً لكان ماء
الحياة». وحاولت مرّة المغنية
شارية أن تقلّده في حضرة
إبراهيم بن المهدي، فقال
لها: «إياك ثم إياك أن تعودي
فإن مخارقاً خلقه الله وحده
في طبعه وصوته ونفسه،
يتصرّف في ذلك أجمع كيف
أحبّ، ولا يلحقه في ذلك
أحد. وقد أراد غيرك أن ينسبّه
به، في هذه الحال، فهلك،
وافتحّض، ولم يلحقه». (الأغاني: ٢٧٥/١٨).

قل لي: ماذا يعني

في صوتك، في أحشائك، في كلماتك

أن ينسى العطرُ

براعم يخرج منها؟

قل لي:

أتظنّ غريباً بعد الموت،

وكنّت الخارق طول حياتك؟

الرواية

IV

(...)

على الخيوط التي تتدلى من قرص الشمس تصعد وتهبط حُمى لها رائحة لا اسم لها بُني للمصابين بهذه الحُمى أو هكذا شُبّه له مستشفى جَوّال يمكن لسرعة تجواله أن يُسمّى مستشفى الهواء تتناثر هذه الخيوط في فضاء القلعة الذي يبدو كمثل سقفٍ طويلٍ على مدى النَّظر سَقْفٍ لم يبق من المادّة التي صنعتها غير القش والغبار وَهْمٌ ما يقوله بعضهم عن كبريتٍ أحمر يدخل في تكوين هذه المادّة.

لماذا لم يتجرأ أحدٌ أن يسأل سيف الدولة: كيف هيأت لرعيّتك أن تصنع السيوف والرماح، الخناجر والقصور وأن تنعم بالسبايا ولم تهيب لها صناعة العلم والفن. لو تيسر له اليوم أن يرافق سيف الدولة في نزهة لمشاهدة المدينة التي أعطته ملكها وراقب كيف ينظر إلى أيامه الملقاة على أرصفتها وكيف يمرّ بها العابرون ولا يأبهون لكرّر صارخاً: أوه! ما هذا السرّ الذي يجعل حياة أمثال هؤلاء القادة عقيمة وجرداء؟

وَلَكَرَّرَ أَيْضاً، لَكِنْ بِلِسَانٍ مِنْ جَاءَ بَعْدَهُ، وَأَحَبَّهُ -
المعري:

ما أدهاكِ، وما أبقاكِ، يابوت العناكب.

لكن، اهتمّ الملوك بعمارة القلعة وتحصينها -

«سيف الدولة، سعد الدولة، بنو مرداش، عماد
الدين

آق سنقر، ابنه عماد الدين زنكي، ابنه نور الدين
محمود، ابنه الملك الصالح
ولمّا ملكَ الملك الظاهر غياث الدين غازي، حصّنها
وحسّنها

بنى مصنعاً للماء ومخازن للغلال

بنى سفح تلّها بالحجر الهرقليّ

بنى على بابها برجين لم يُبنَ مثلهما

وعندما خرّبها التتار، جدّدها الملك الأشرف خليل بن
قلاوون وعندما خرّبها تيمورلنك وأحرقها أعاد
بناءها الأمير سيف الدين جكمر: عمل بنفسه،
واستخدم في العمل وجوه الناس: كان الأمراء
يحملون الأحجار على ظهورهم».

هوذا،

تفاجئته عائلة أحزانه جلست والتفت حوله
ربّما لأنه قال: سأزور التلة أولاً تلك التي كانت
النجوم تهيمن عليها لا السابحة في الفضاء بل
في الأيدي

- «لا تعرف كيف تهوّل، ولا كيف تقفز،

لا تعرف كيف تسدّد، ولا كيف ترمي.

لا تعرف حتى أن تمسك بالبندقية،

ماذا تعرف، إذن؟»

حتى عندما كان يختبئ كعصفور في سرير نومه الشبيه
بالحفرة، كان يشعر أن تلك النجوم تجثم ساهرة بين
كتفيه.

أيام - غدران من العذاب،

مع ذلك، تطفو عليها عائلة أحزانه

كمثل أزهار اللّوتس.

أو ربّما فأجأته عائلة أحزانه لأن القلعة تذكر بتلة أخرى
غير تلة النجوم أصبح اسمها جبل الجوشن؟

- «احتزّ رأسه أخذه مع رؤوس القتلى والنساء
والأطفال وسار إلى يزيد مرّ بطريقه على حلب نزل

بهم عند الجبل غربي حلب قطرت من رأس
الحسين نقطة دم على الصخر بقي أثرها إلى عهد سيف
الدولة عَمَرَ على الصخر مشهداً سُمِّي مشهد النقطة

(. . .) وأسقطت إحدى نساء الحسين جنيماً دفنوه عند
ذلك الجبل . مرّة ، رأى سيف الدولة نوراً عنده . ثم
تكرّر ظهور النور مراراً ، ذهب إلى المكان أمر بحفره
وجد حجراً نُقش عليه : « هذا الحسن بن الحسين بن
علي بن أبي طالب » .

بنى عنده مشهداً سُمِّي مسجد الطرح وهو الآن مشهور
باسم مشهد الشيخ محسن
من ذلك الوقت سُمِّي الجبل جبل الجوشن نسبةً إلى
قاتل الحسين شَمْر بن الجوشن » .

أو لعلّ عائلة أحزانه فاجأته لأنه ذكرَ ذلك التلّ
الآخر .

- « ظهر قومٌ يُقال لهم الرّاونديّة خرجوا بحلب
زعموا أنهم بمنزلة الملائكة صعدوا تلاً بحلب ولبسوا
ثياباً من حرير وطاروا . . . /
وقيل : هلكوا . »

غير أنه ليس ملاكاً ، ولا يلبس الحرير
وداعاً لعائلة أحزانه .

كان فيما يعبر المدينة إلى القلعة يشعر كأنه يكتب
خطواته على جدران لحظات تواكب جدراناً من
الحجر لفت أعناقها بمناديل من حبر لا يفنى وبدت
هذه المناديل كممثل غلائل سماوية تتدلى فوق الأبواب
غلائل لها أشكال الرّمق ينقشها ويزركشها حبر
أسود، -

أ - منديل زاوية الحيدري:

«أنشأ هذه الزاوية المباركة
المقرّ الكريم العالي السيفي، قَطْلِجَا
والمقرّ الأشرف الكريم، طاز
كافل المملكة الحليّة، سنة ٧٥٧».

ب - منديل جامع الطُّنبغا (في ساحة الملح):

«أنشأ هذا الجامع المبارك
الفقير إلى الله تعالى
المقرّ الأشرف العالي العلائي
الطُّنبغا الناصري
في أيام دولة مولانا السلطان الملك الناصر محمد،
عزّ نصره في شهور سنة ٧١٨».

لم يكن يحق له الجلوس تابع طريقه مُبَلَّلاً
بأصوات تعلو في الأزقة كأنها لهاث الأيام.

ج - منديل جامع الجوشية (في السويقة) :

«بسم الله

أنشأ هذه الزاوية المباركة

العبد الفقير إلى الله تعالى الشيخ صالح العابد الحاج
جنيد بن عمر الأقصري أبو سنجاقى .
تغمده الله بالرحمة -

برسم سلطان الأولياء والأقطاب،

المرشد إلى طريق الحق والصواب

قدوة السالكين وزبدة الواصلين

هادي المسلمين خليفة الله في الأرضين

سر الله في الآفاق

حجة الله على الإطلاق

الشيخ المرشد أبو إسحاق إبراهيم

شهريار الكازروفي،

قدس الله روحه،

وعَلَى خلفاءه ومريديه
وليس لأحدٍ جلوسٌ على سَجادة المجلس غير
خلفائه،

وكان الفراغ في شهر ربيع الأول سنة ٧٤٧هـ .

✽

- ماذا تعمل؟
- لا أعمل . أصلي لكي يصبح الزرنيخ عسلاً .

✽

جامعٌ -
كل حَجَرٍ حنجرة .

✽

وجهُ عاملٍ : صحنٌ من الغبار .
وجه بدويّة : أَكْثَرُ من حديقة .

✽

- الوقت؟
- سلسلة في يد الغيب/
كان يتكئ على كيس مليء بحنطة الفرات إلى
جواره امرأةٌ شبه نائمة . أهي رفيقته في حصاد القمح؟
ربّما . كانت أهدابه ، وهو ينظر إليها ، تنزل على وجهه
كمثل السّنابل .

✱

بدأت الشمس تتدحرج على منحدرات الظلّ .

✱

نباتاتٌ تخترق وجه الإسفلت ، احتفاءً بالضوء .

✱

كبشٌ في عنقه خيط حريرٍ أحمر : كبشٌ مسحور .

✱

شخص له شهرة عالية كممثل ضبابٍ يغطّي الجبال ،
آخرٌ له قامة الألف : هل عمله الدائب هو أن يضرب
جسده بسيف التحول ؟

✱

امرأة مسكوبة في عمود أسود جرة سوداء مليئة
بكحول سوداء ومن ضفافها تطفح الشهوة .

✱

لا تزال القلعة تنتظره جالسةً في حضن سوادٍ آخر .
القلعة ، -

من الفضاء الذي يحيط بها يتصاعد هباءٌ يتدثر الهواء
والهواء كممثل عرباتٍ بلا نهايةٍ تقطرُ الناس .

ترَفَّقْ، يامهماز الغبار .

وكانت الشمس تنزل بطيئةً بين فخذي المساء،
ما أطيب النظر إليها وهي تغسل وجهها بماء الغروب .

✱

رجلٌ بدا كأنه يحفر قبراً يرمي فيه جثة النهار .

✱

امرأة -

تسدل ستار نافذتها كمثل غيرها تنهياً
لكي تصعدَ سلالم الليل نحو شموسه العالية .

- ينبغي، أيها العابر، أن تقتديَ بطمأنينة الغبار .

- هيهات هيهات،

من أين لي الأسنان التي تقرضُ صخرة الوقت؟

وقال أبجد:

رأيت في المدينة دال، في ناحية تسمى ناحية المقابر
شبحاً جالساً على قبر. اقتربت. قال:

«هل كان طريقك إلينا طويلاً؟»

لم أجبه. ظنّ أنني خفت. قال:

- لا تخف. أنا ميت، وهذا قبوري. ولست هنا، الآن.

- إذن أين أنت؟

- في برزخ، مع أصحاب لي نتحدث عنكم.

ثم رأيت يتلاشى، وتظهر وراءه قبة جوهري تفتح وتطلع
منها امرأة، أومأت، وقالت:

- غداً، يزورنا شخص يُقبر في هذه القبة.

ثم غابت، لا أعرف كيف.

وغير بعيد،

رأيت قبة ثانية يغطيها كساء أخضر، وإلى جوارها امرأة
تدق على الحائط وتصيح:

- أنا المرأة الضالة، من يدلّني على الطريق؟

وأخذت تبكي.

اقتربت وسألتها:

- ماذا بك؟ ماذا يبكيك؟

قالت:

- حملتني عيناى . نمتُ . أضعت الطريق . كنت أحلم
أننى ذاهبة إلى . . .

فجأة، رأيته تسقط ميتة .

آنذاك سيطر علىّ الخوف . ركضت، وفي منعطفٍ
خططت بيديّ خطأ جلست فيه، وأخذت أتمتم
كلماتٍ تعلمتها في طفولتي،

غشيتني سحابات سودّ حجبت عني ما حولي،
وسمعت فيها أصواتاً تقطعها

ورأيت عظاماً تتناثر وتبكي .

ثم سمعت شجرة تقول:

- هذه ليلة الوسوسة، هذه ليلة الجنّ .»

❖

«مرّة، ظهرت لي بئراً وكنت عطشاناً . اقتربتُ لأشرب
منها طلعت منها امرأة قالت بلهجة آمرة:

- تزوّجني!

كانت جميلة . تزوجتها .

ثم قالت :

- أنا غريبة عن هذه المدينة . وأنا عائدة إلى مدينتي .
طلّقني .

ولما كنت أحبّ الوحدة ، طلقّتها .

لكن في الليالي التالية ، جاءني شبحاً وهيئة .

و ذات صباح ،

رأيتها تلتقط قمحاً عن الأرض . كلّمته . وضعت يدها
على رأسها ورفعت عينيها إليّ وقالت :

- بأيّ عين رأيتني ؟

أجبت :

- رأيتك بقلبي لا بعيني .

أومأت بإصبعها وغابت ، دون أن أراها .

فقد ملأ الدّمع عينيّ اليمنى ، وملأ اليسرى ضباباً
أخضر . »

✱

« ورأى في المدينة ألف جبلاً غريباً كان ملكها يتردد
إليه بين ليلة وليلة . للجبل ، كما سمع ، مسامٌ ترشح
منها الرّياح والبخارات . وفيه صهريجٌ معلق في
الهواء ، عليه قبة تسقط منها حجارة رخوة .

في القبة النّهر العجيب الذي يجري في دوائر حتّى
ينتهي إلى الصّهريج فتُغلى الحجارة وتُطبخ ،

وتكون منها الأمواج المختومة، والتوابيت المقفلة،
وفلك المصباح والرياح،
وتكون منها الحكمة والكيمياء.»

※

«ومرّة، كان يسير على طريق ضيّقة فجأة، ظهرت
من الأرض أغصانٌ متشابكة كأحسن ما يكون من
الشجر واستقامت في الجو كأعلى ما يكون من
الصنوبر والحور،

ثم انحنت وانَدَسَتْ في التراب وهوت إلى الأسفل
بقدر ما كانت عالية.

ورأى شجرة استوقفته وامتدّت نحوه ثمرة أخذها
انفلقت في يده أربع قطع

خرجت من كلّ قطعة امرأة ملأت بالعطر والشهوة
ما بين الأفق والأفق.»

※

«ومرّة رأى رجلاً يهرب كانت تُطارده الحجارة إلى
ناحية في المدينة ألف يبقى الحجرُ فيها معلقاً لأنّها
ناحية مسحورة تمنع أن يقع فيها ضربٌ أو قتل.

ورأى الناس الحجر آتياً يطارد الرجل

فصاحوا به: توقّف وعُدّ.

توقف ثم عاد بقي عالقاً بين السماء والأرض على
حدود الناحية، حتى مات الرجل فطار الحجر
عائداً إلى مكانه.

ورأى مرة في المدينة ذال، في ناحية تُسمى ناحية
الطير، طيوراً تتعانق. حين اقتربت، طارت وبقي طائر
كان ميتاً تفوح منه رائحة المسك قال: إنه مليء
بالخير كانت معه عمامة زائدة لف بها الطائر
ودفنه.

ناداه صوت:

هذا الذي دفتته شهيداً - بعضهم يقول كان يسمع وحي
النبوة، وبعضهم يقول كان شهيد الحب.

ورأى في طريقه شبحاً بلون الرماد يمشي بطيئاً كأنه
يخرج من بئر ثم تقدم نحوه وسلم عليه. دُهِش خائفاً
قال:

« لا تخف. لكن اقرأ عليّ شيئاً من الشعر.

أخذ يقرأ سرّ كثيراً وعاد الاطمئنان إلى قلبه
قال: - نحن نحب الشعر أغلب الأشخاص الذين
يسلكون هذه الطريق لا يفهمونه أو لا يحبونه أو
غرباء عنه نهجم عليهم ونخنقهم.

وحين أراد أن يسأله: ومن أنتم؟ رآه يغيب. لكن،
شعر أن الطريق أصبحت آمنة كأنما تحرسها الأزهار
والكواكب.»

✱

نام مرّة في بيت صديقه يارجوج
«وبينما كان في الليل، قبيل النوم، ينقل خطواته في
ساحة البيت، رأى السّماء تحمّرُ احمراراً شديداً
وسمع في الجوّ أصواتاً وهمهمة ثم رأى غيمة
حمراء كمثل نار قريبة منه، فيها أشباح أمثال الناس
والحيوانات تحمل رماحاً وسيوفاً
ثم اقترب غيمٌ أحمر آخر فيه أشباح أمثال الناس
والحيوانات أيضاً تتقلد الرماح والسيوف وتحمل على
تلك الغيمة كجيش يقاتل جيشاً.
كانت الغيمة تهجم على الغيمة فتختلطان ثم تفرقان.
فزع وأسرع يسأل يارجوج عن هذا. قال:
- كان أجدادي يقولون هؤلاء أصدقاء حكموا المدينة
ألف وعاشوا فيها قبلنا وهم يقتتلون في سمائها كلّ
عشيّة.»

✱

حكى يارجوج أنه سمع رجلاً يروي هذه الحكاية، -
«عشق رجل اسمه اطروش امرأة رفض أبوها أن
يزوّجها منه، وزوّجها من آخر. جُنّ أطروش قَيْده
أهله كان يعضّ شفتيه ولسانه حتى خافوا أن
يقطعها

رآه هذا الرجل مرّة يجلس على تلّ ويخط بإصبعه
خطوطاً وحين دنا منه فرّ كما يفرّ الوحش من
الإنسان ثم ظهرت غزالة فوثب يركض وراءها.»

※

وكان بعض سكّان المدينة ألف يعبدون شجرة صنوبر
«كانوا في كلّ شهر يقيمون لها عيداً يجتمعون
حولها يضربون عليها مظلة من الحرير تزخرفها
الصّور ثمّ يقدمون لها الذبائح خرافاً وعجولاً
وديكّة حين يتصاعد دخان الذبائح يسجدون باكين
ضارعين

كانت الشجرة آنذاك تتحرّك وتحرك أغصانها يطلع
من جذعها صوتٌ كصوت الأطفال:
«طوبى لكم، إني أمنحكم ملكوتي».
عندئذٍ يرفعون رؤوسهم ويشربون ويرقصون.»

ومرّة ركب البحر في المدينة «وركب معه شابٌ صبيح
الوجه لمّا توسّطوا البحر فقد صاحب المركب
كيساً فيه مال فتش كلّ من كان في المركب
وحين وصل إلى الشاب ليفتشه وثب وجلس في البحر
فقام له الموج على مثال السرير ثم سمعوه
يقول:

«مولاي،

هؤلاء اتهموني . أقسم عليك، يا حبيب قلبي، أن تأمر
كلّ دابة في هذا البحر أن تخرج رأسها وفي فم كل
واحدة جوهرة» .

فما أتمّ الشاب كلامه حتى رأوا دوابّ البحر قد
أخرجت رؤوسها وفي فم كلّ منها جوهرة
ثمّ وثب الشاب ثانية في الموج، وصار يمشي
وأخذ يغيب رويداً رويداً . «

وأخبره أحدهم «أنّ صديقاً له تزوّج امرأة وسافرا
في الطريق استراحا مرّ بعضهم فرأوا المرأة جالسة
على بطن الرّجل تأكل كبده،
ثم رأوا ناراً تنزل وتشقّها اثنتين . «

ورأى في أحد أحياء المدينة ألف حدّاداً يُدخل يده في
النار ويخرج الحديد المحمّى دون أن يحترق^(١) سأله :
« هل تضيفني هذه الليلة؟ »

قال

- نعم . بحبّ .

مضيا إلى منزله . أخذ يراقبه لم يشاهد شيئاً غريباً
يخوّله أن يكون في هذه المرتبة : لا تؤثر النار في
جسمه قال له :

- كيف لا تحترق بالنار ولم ألاحظ أمراً خارقاً
يؤهلك لذلك؟

قال :

لهذا سرٌّ غريبٌ وحديث عجيب .

وروى هذه الحكاية .

«كان لي جارة جميلة أحببتها كثيراً وراودتها
عن نفسها مراراً عديدة لكنها كانت ترفض جاءت
سنة قحط وجذب وعمّ الجوع فبينما أنا جالسٌ،
ذات يوم، في بيتي وإذا بشخص يقرع الباب قمت
لأرى من هو فإذا بها واقفةٌ بالباب قالت :
- يا أخي إنني جائعة فهل تُطعمني لله؟

(١) في المأثور أن أناساً
أرادوا أن يغزوا المدينة ألف
ويدمروها . وفي طريقهم
إليها، خرجت عليهم طيرٌ من
البحر لها خراطيم شبيهة
بالوطاويط، حمراء وسود،
رمتهم بحجارة مدحرجة
كالبنادق تقع في رأس
الرجل، فتخرج من جوفه .

قلت لها:

- ألا تعلمين، كم أحبك، وأقاسي من أجلك؟ لن
أطعمك إلا إذا مكنتني من نفسك.

قالت:

- الموت، ولا المعصية.

ومضت إلى منزلها.

بعد يومين، عادت إليّ وسألتني أن أطعمها ثم دخلت
إلى البيت وجلست حين قدمت لها الطعام بكت
وسألتني:

- هذا لله؟

قلت:

- لا.

لم تأكل. قامت وخرجت إلى منزلها.

بعد يومين جاءت وقد هدها الجوع قالت:

- يا أخي، أعيتني الحيل لم أقدر أن أسأل أحداً
غيرك هل لك أن تطعمني لله؟

قلت

- لا.

أطرقت ثم دخلت إلى البيت، ولم يكن عندي طعام. أشعلت ناراً وصنعت لها طعاماً

وَبَيَّنَّا أَنَا أَضْعَهُ أَمَامَهَا جَاءَنِي هَذَا الْخَاطِرُ: «امرأة تمتنع عن طعام، مع أنها جائعة جوعاً لا قدرة لها على تحمّله، وأنا لا أمتنع عن معصية الله؟ سأتوب، ولن أقربها في معصية».

ثم قلت: هذا طعامٌ لله.

لَمَّا سَمِعْتَ ذَلِكَ، رَفَعْتَ رَأْسَهَا إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَتْ:

- يَا رَبِّ، إِنْ كَانَ صَادِقاً، فَحَرِّمِ عَلَيْهِ النَّارَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

تَرَكْتُهَا تَأْكُلُ.

قَمْتُ لِأَزِيلِ النَّارَ، فَوَقَعْتُ جَمْرَةً عَلَى قَدَمِي لَمْ تَحْرِقْنِي دَخَلْتُ إِلَيْهَا وَأَنَا فَرِحٌ وَأَخْبَرْتُهَا رَمَتِ اللَّقْمَةَ مِنْ يَدِهَا وَقَالَتْ:

- حَقَّقْتَ أَمْنِيَّتِي.

خَذَنِي إِلَيْكَ يَا رَبِّ، هَذِهِ اللَّحْظَةُ.

ثُمَّ رَأَيْتُهَا تَسْقُطُ وَتَمُوتُ بَيْنَ يَدَيَّ.

الذِّكْرَى

IV

المدينة كاف

طاب لي كثيراً في المدينة كاف
أن أقطع الغصن الذي أجلس عليه.

※

يمكنك، في المدينة كاف، أن تستغني عن نصف
اليوم. فهذه المدينة هي نفسها الليل.

※

في كل إنسان شيء من نيرون، خصوصاً في كل
ما يتصل بفنون الذبح والطبخ والأكل، وهذا مما يخفيه
بعضهم، ويحاربه بعض، ويبرأ منه بعض آخر. غير أنه،
ويا للعجب، موضع اعتزاز لدى الناس جميعاً في المدينة
كاف. خصوصاً أن الإنسان فيها مأخوذ بأكل اللحم. وتفتح
شهيته، وتبلغ متعته أوجها عندما يأكل لحم أخيه الإنسان.

※

لكل شيء في المدينة كاف نهاية، إلا شيء واحد: قتل
الآخر، بشكل أو آخر.

※

أنا أوسع بيت في المدينة كاف: يقول السجن.

※

لن تقدر أن تقابل أي شخص في المدينة كاف، إلا من وراء حاجز.

✱

يعتقد الأشخاص الذين يقودون المدينة كاف أنهم لم يولدوا من امرأة، بل من فكرة، ورسالتهم التي يعملون لها بإصرار هي: على أبناء المدينة كاف أن يولدوا هم أيضاً من هذه الفكرة.

✱

يُقال إن المدينة كاف تسير على طريق عالية. ربما. لكنها، بدلاً من أن تنظر إلى الأمام، لا تنظر إلا إلى الوراء.

✱

قبل أن يدخل العابر إلى المدينة كاف، يكون شكّه ضعيفاً. بعد أن يخرج منها، يكبر شكّه ويقوى. هو - حاصر في المدينة كاف، لكنه موجود في غيرها.

✱

الصفير هو الواحد في المدينة كاف. ويحار علماء الرياضيات في تفسير ذلك.

✱

أينما اتجهت في المدينة كاف، ترى كتباً مصلوبة وترى دماً ينزف من الثقوب التي أحدثتها المسامير في جسد الكتاب وأحياناً، لا تقدر أن تميز بين شكل الكتاب، وشكل الجسد.

المدينة لام

«ليس الوطن لمن يقيمون فيه، بل هو لمن يهيمنون عليه. الوطن أخطر الأفكار الحديثة التي ابتكرتها شهوة التملك»: هذا نص لمنشور يتداوله الناس سرّياً في المدينة لام.

✱

«تبتكر بعض الثورات أبواباً لا يقدر أصحابها أن يخرجوا منها، ولا يقدرّون أن يغلقوها»: نصّ لمنشور سري آخر يتداوله الناس سرّياً في المدينة لام.

✱

«من جهة الضوء أيضاً، يجيء الخطر»، -
قرأت ذلك في رسالة آتية إلى صديق في المدينة لام.

✱

هو - مواطن في المدينة لام. ويبحث، مثل كثيرين غيره، عن الحقيقة. لكنه حتى الآن يتردد في الجهر بذلك. فهو لم يقرر بعد أن يذهب -

لا إلى الجنون

ولا إلى الموت.

✱

يتربى المواطن في المدينة لام على الإيمان بأنه
لا يكون حياً إلا بقدر ما يكون كل ما حوله ميتاً.

✱

المنهج في ثقافة المدينة لام هو:
سِرْ، لكن لا تسأل.

✱

الموت الواقعي، والحياة الممكنة: ذلك هو المناخ
الذي يكبر فيه أطفال المدينة لام.

✱

يفكر الناس في المدينة لام ويسلكون، مدعين أنهم هم
الذين يحرسون السماء.

✱

بقدر ما تختلف في المدينة لام مع الواقع، تأتلف مع
الحقيقة.

✱

الفكر في المدينة لام يُورَث هو أيضاً،
وليس من رأس إلى رأس، بل من يد إلى يد.

✱

لافتة في ساحة المدينة لام:
عشرون كوكباً على كرسي واحد.

✱

معظم المواطنين في المدينة لام،
يرسلون أحلامهم (بطريقة خاصة، لا أعرف كيف
أفسرها)، إلى القائم على المدينة، لكي تستأذنه، قبل أن تزور
أجفانهم.

✱

في المدينة لام حوانيت لا يتاجر أصحابها إلا بعظام
الموتى وأسمائهم.

✱

يلوم نفسه أحياناً في بعض لحظات الضعف: لو أنه
صَفَّقَ مرة للمدينة لام، لكان عنده، اليوم، قمرٌ - على الأقل!

✱

القيم كلها في المدينة لام قائمة على «أفعل» التفضيل:
أكبر، أعلم، أجمل، أشعر... إلخ.
والسبب جهل سكانها: حسَّ الفروقات عندهم معطل،
ولا يعرفون أن يميزوا بين شيء وشيء.

✱

أفضل أن يبقى رأسي فارغاً على أن يكون ممتلئاً بأفكار
المدينة لام. وأفضل أن أسمى مخرباً على أن أحتفي بعمرانها
القائم.

✱

عهداً
سأسهر دائماً على إغراء المدينة لام
بجمال الخراب وسحر الفوضى.

المدينة ميم

في المدينة ميم، تحدثك الجدران سرياً، عن قلب يريد
أن يخرج من نفسه لكي يسكن قلباً آخر، أو عن نافذة تريد أن
تؤاخي الأفق.

هكذا، لكل كلمة في المدينة ميم سجن، باستثناء كلمة
واحدة: السجن.

✱

الحاضر في المدينة ميم هو نفسه الخادم الذي يغسل
قدمي السيد الماضي. وعندما يتاح لك أن تدخل بيتاً في هذه
المدينة، وترى إلى جدرانه، يخيل إليك أن لحظات الماضي
كلها تحولت إلى صور تتدلى عليها، وتشعر أن الحاضر كله
ليس إلا مسامير لتثبيت هذه الصور.

يطيب لك، بعد ذلك، أن تقسم البشر إلى قسمين:
جماعات تجلس على الزمن،
وجماعات يجلس الزمن عليها.

✱

دخان في زاوية. في الدخان ما يشبه أجنحة ليست
أجنحة طيور. وفيه أحياناً ما يشبه أجفاناً لعيون ليست عيون
امرأة أو رجل. لكن، يا للغرابة، يبدو أنه دخان بلا نار. انظر
من هذه الزاوية، عبر هذا الدخان، إلى الفضاء: ستري أن
وجهه يتعفن ويبلَى.

المدينة نون

من الستار إلى الغبار، ومن الغبار إلى الستار: ذلك هو مدار المدينة التي تأخذ اسم الجسد أحياناً وتحلّ محلّه، غالباً، أو تتجلى في شكل المدينة نون. في الستار تجد وجهها، وفي الغبار تجد مرآتها. أما الفم فبعيد، وربما كان قطعة نقد زائفة في جيب الموت.

✱

أنظر، عند الغروب أو عند الشروق، إلى أعالي الجدران وإلى العتبات في المدينة نون. سترى أن بياض الصحراء يجلس هائثاً وربما رأيت في هذا البياض عربة تحسبها ماعزاً، أو شجرة متحركة تمتلئ بفراشات زينت أجنحتها بالرصاص والفضة. لن تلمح أثراً للبحر، مع أنه يقيم على بضع خطوات.

✱

تقدر بيسر أن تشاهد الأبدية وهي تتسلق ما بقي في المدينة نون من جدران الأزمنة. تقدر بيسر أن تشاهد الأيام وهي تتحول إلى أفواه، رافضة أشكال العين والأذن والأنف عند أبناء آدم. تقدر بيسر أن تشم البخور المتصاعد من كهف سمي تيمناً: التاريخ. تقدر بيسر أن تشاهد المسرح الذي تنقلب فيه الفاكهة إلى نساء. لكن ينبغي أن يكون لك صبر الهواء لكي تقدر أن تشاهد كيف يكون الإنسان إنساناً.

✱

هذا الذي أقوله عن المدينة نون، أقوله بالسمع والتواتر. عبثاً حاولت أن أدخل هذه المدينة، مع أنها تسكن في مخيلتي. قلت مرة، وقد يئست تقريباً: سأنجّم، سأستغيث بأفلاك الذكورة والأنوثة، سأكتب التعاويذ - مؤالفاً بين النون والحاء، النون والياء، النون والذال، النون والسين، النون والعين، النون والياء... إلخ،

✱

كأن المدينة نون لا تريد أن تكون أكثر من عكاز في يد ما. كأن الكلمات في المدينة نون جبال لكي تتسلقها، لا ألفاظ لكي تنطقها.

كأن الزمن في المدينة نون صخور تربط إلى قدمي الإنسان لكي تسهل عليه الهبوط أعمق فأعمق حتى قرارة اللازم.

كأن الشمس في المدينة نون دكان، والهواء ميزان كأن الأشياء في المدينة نون هي التي تتخذ من البشر بيوتاً لها

كأن الكلام في المدينة نون حلقة وصل بين الطرق التي لا تقود إلى مكان.

✱

صحيح أن المدينة نون واحدة موحدة. لكن، صحيح كذلك أن كل زقاق فيها لا يكتب رسائله إلا بدم الآخر.

✱

هو، المواطن في المدينة نون، يمضي حياته كلها في
خياطة الرمل، ويصف نفسه بأنه الأمل.

هي، المواطنة في المدينة نون، تولد، تنمو، تكبر،
تشيخ، تهرم، تموت، لكن دون أن تمر في أية مرحلة من
مراحل الحياة.

✱

قلّما رأيت في المدينة نون إلا التقصر. كانت الأبجدية
تتغطى بعباءات تتغطى هي نفسها بعباءات لا تعرف أن تنسجها
إلا يد الرمل. ولست أجهل أنّ الريح هي التي تنتصر دائماً.
لكن، ماذا يعني نصرٌ تحقّقه الريح؟

✱

تجلس المدينة نون حيث تقدر الجهات كلها أن ترى
أين هي، وحيث لا تقدر هي أن ترى حتى نفسها. لهذا، أينما
تسكّعت في هذه المدينة، ستسمع الماء يتأوه، والهواء يزفر
ويشكو. لهذا ليست المدينة نون إلا طنيناً في أذن الوقت.

✱

ما أكثر الأعمدة، من كل نوع، في المدينة نون. في كل
عمود حكيم يرث الحكمة عن الكواكب حين كانت تقص على
الأرض أحسن القصص. وكلّ عمود خزانة من الأجوبة، لكن
ليس عن الأسئلة التي تطرحها أنت، المقيم الزائل، بل عن

أسئلته هو . هو السائل وهو المجيب . وليس لك أنت إلا أن
تقول نعم .

كل ليلة ، قبيل الغسق ، ينصب الكلام خيامه بين أغصان
هذه الأعمدة ، وينام في انتظار الليلة الآتية . اين ينتهي الحد
الذي تقف عنده وسادة أحلامك ، أيتها الأعمدة؟

المدينة سين

ليت الشمس تساعدني، لكي أنقذ ذلك الشعاع الذي
يحاول أن يهرب من ظلام المدينة سين.

✱

عييدٌ - لكن، تطوعاً:

هذه عبارة لا تجد لها ترجمة عملية إلا في المدينة
سين.

✱

قتل البصيرة وإحياء القدمين:

هذا هو قانون الحياة في المدينة سين.

✱

لماذا تضطرب؟ هل تخشى أن تسقط تحت ضربات
العداء الذي تكته المدينة سين لاسمك ولدرويك؟
أدخلها في محيط حبك، واتكئ على هذا الحب كلما
ذكرت أمامك.

آنذاك، على الرغم من اللامبالاة التي تخصصها بها، لن
تسقط أبداً.

✱

ما أجمل جسدك، أيها الحب مجزأ - مصلوباً، عضواً
عضواً، على جسد المدينة سين.

✱

بعد، لم تترجم الريح
ذلك الرمل الذي تختزنه الصحراء التي تختزنها أحشاء
المدينة سين.

✱

تفكر المدينة سين وتعمل لغاية واحدة:
أن تجعل ساكنيها يالفون ما يأكلهم،
كما يالفون ما يأكلونه.

✱

أيتها المدينة سين،
لماذا، وأنت الغنية بالقتلى لا تبدين إلا الأحياء؟

✱

سأبتكر أحوالاً تشتعل فيها نيران تتمدد في الفضاء كممثل
الأسرة العاشقة، ولن تجد المدينة مفراً من الاستسلام إليها.

✱

فتح لي الرعد أبوابه،
فيما كنت أقرع باب المدينة سين. قال:
ينبغي أن تعيد ابتكار الطريق.

✱

في المدينة سين ليس للسجن حدّ. تتموّج حدوده مع
الهواء، ومع الضوء والظلام. لا أحد يقدر أن يقيسها. لا أحد
يعرف أين تبدأ وأين تنتهي.

وتبالغ بعض الروايات، فتقول: المدينة سين هي التي
ابتكرت السجن.

كأنما يجب، لكي نمحو السجن في هذه المدينة، أن
نمحوها هي نفسها.

※

أبحث عما فعلته المدينة سين زاعمة أنه الحق، فلا أعثر
إلا على الخطأ.

※

أتحدث عن أحلام تكسرت أهدابها،
أتحدث عن بلد لا يحلم به أحد - لا المشرّد، ولا
التائه، ولا من ليس له بلد،
أتحدث عن ثقب يهيم عليها ملائكة لا يتوقفون عن
النبش في معاجم الحديد والنار،
أتحدث، وأعني المدينة سين.

※

للمدينة سين رسالة واحدة: أن تضع حياتها ومصيرها
وطاقتها كلها في بضعة ألفاظ.

المدينة عين

أية شفرة هذه التي تنزهها المدينة عين ، في تلك الساحة
المقفرة : الإنسان؟

*

لا تقدر المدينة عين أن تفعل شيئاً ، كما يبدو ، إلا أن
تنتظر خرابها . ربما في هذه الحالة ، سيكون الانتظار نفسه
فعلاً ، أو يشبه الفعل .

*

أتدلى في فضاء المدينة عين - جسداً مفرداً ، غريباً ، مع
ذلك ، لن اعتصم إلا بجسدي .

*

الحياة قصيرة ، تقول الحكمة .
غير أنها في المدينة عين أطول من الأبدية .
تقول الحكمة أيضاً : الأرض واسعة ،
لكنها في المدينة عين أضيق من سُم الخياط .

*

تستقبل المدينة عين ضيوفها بأقواسٍ من الضحك ،
وتخصص لاستضافتهم بيوتاً من الدمع .

*

«اصطدمت يداي بعنق الليل. كان مستلقياً على
خاصرتي. لم أقدر أن أرفع غطاء وضعه الحلم فوقنا.
أخذه النهار وضمه إلى أشياءه التي يستعين بها على مواجهة
الحواس الخمس لجسد ينتظر على العتبة»، -
هذا جزء من رسالة كتبتها امرأة في المدينة عين، قبيل
موتها.

※

صرت مقتنعة أن للأيام في المدينة عين قشوراً، وأن
هذه القشور مسكونة بسحر أخضر.

※

إن لم تكن لديك في المدينة عين الجرأة على مجابهة
الأسطورة نفسها، فإن مجابهتك للأشياء الأخرى لا قيمة لها.

※

لن تجد أنهار الواقع ماءً يقدر أن يتحاور مع مجاريها،
كمثل الماء الذي يتفجر من ينبوع خطواتي - من أجل الخراب
الذي يهياً للمدينة عين.

※

«تنمو في ظل الشجرة نارٌ تأكلها»، -
تقول حكمة شاردة في أنحاء المدينة عين.

※

خرابُ هي المدينة عين، لكنَّه خراب لا يكتمل.

✱

- لماذا تجمد المدينة عين، بينما تتغير مدن أخرى؟

- لأن المدينة عين تتحالف مع الكلمات،

وتلك المدن تتحالف مع الأشياء.

✱

حرّضِ الوردة على رائحتها،

وهذه على تلك،

وأشعل بينهما الفتنة:

تلك هي البداية، إن شئت أن تفهم المدينة عين.

✱

وردةٌ تكاد أن تذبل،

تهرب من إنائها في المدينة عين وتجلس قربي، -

- أيتها الوردة، ربّما، ربّما... .

IV

على الفراتِ أعاصيرٌ، وفي حلبِ
تَوْحُّشٌ - (...).

المتنبي

- ٥٢ -

- أ -

- يا حسين، اسقني^(١)- لاسقيتك، إن لم تقل لي،
لماذا بكيت؟

- لماذا عناك بكائي؟

- اغتممت،

- إذا خرج الأمر من شفتيك،
قتلتك.- يا سيدي، ومتى أفشتا ما تُسرُّ
إلي؟

- ذكرت الأمين أخي،

فاختنقت بدمعي واسترخت
لتسكابه.

- ب -

«لا يخلو أحد

من سجن»^(٢).

- أ -

سيف رومي، ودم عربي

سيف عربي ودم رومي -

لعب

والنرد رؤوس.

جيل ينمو، جيل بائد

والمؤمن، في هذا اللعب المجنون،

كمثل الكافر، جسر واحد،

لمصير واحد.

* بين سيف يحز، وعنق يحز،

المدائن وحي

والخراب كتاب.

(١) حوار بين المأمون
وخادمه، ساقى الخمر،
حسين.(٢) من كلام للخليفة
المأمون.

- ب -

أَلْحِصَانُ يَحْكُ التَّرَابَ، السَّنَابِكُ

مَكْسُوءٌ

بِالْغُبَارِ، وَفِي كُلِّ قَائِمَةٍ

رَجَّةٌ.

أَلْحِصَانُ يُؤَاخِي

بَيْنَ شَمْسِ السَّهُولِ وَأَيَّامِهِ

لَا رَحِيلٌ، وَلَا حَمَحَمَةٌ.

أَلْحِصَانُ يُسْرِحُ عَيْنِيهِ فِي غَابَةِ الدَّمُوعِ، -

سَقَطَ الْفَارِسُ الرَفِيقُ، مَضَى

حَيْثُ لَا شَيْءَ:

لَا قَوْمَةٌ، لَا رَجُوعٌ.

- ٥٣ -

حَرْبٌ مَعَ نَضِيرٍ^(١)،حَرْبٌ مَعَ بَابِكْ^(٢)مَعَ أَبْنَاءِ الزُّطِّ^(٣) -

حُرُوبٌ: رَغَبَاتٌ تَمْضِي

رَغَبَاتٌ تَأْتِي،

أَيْنَ الْمَعْنَى، أَيْنَ السَّبَبُ؟

مَا أَكْذَبُهَا - تِلْكَ الْكُتُبُ!

(١) نصر بن شُبث.

(٢) بابك الخرمي.

(٣) طائفة من أهل الهند (معرب جث). كان عددهم حوالي ثلاثين ألفاً، يرئسهم شخص اسمه محمد بن عثمان. تمردوا، وغلبوا على طريق البصرة. وجه المعتصم لحربهم عفيف بن عنبسة سنة ٢١٩ هـ. تغلب عليهم، ونفاهم جميعاً إلى عين زربة، على الحدود العربية - الرومية، آنذاك. وهناك قتلوا جميعاً.

* أَلْكَوَا سِرُّ تَرْصِدُ مَوْتِ الْبَشَرِ،
وَانْظُرُوا كَيْفَ تَنْقُضُ خَلْفَ الْأَثَرِ.

- ح -

بَطْلٌ مِنَّا مات شهيداً:

هوذا،

نستصفي أرضاً

ونوسده فيها

في أخدود، أو بين صخور،

ونُهِّل عليه تراباً

يتفتت فيه - في ظلمات القبر.

لكن الروم سُكَّارَى فَنُّ

ما أعجبهم - يستصفون لوجه البطل

الميت منهم،

وَجَهَ الصَّخْر، -

ما قولك فينا، ما قولك فيهم

يا هذا الدهر؟

- ٥٤ -

سنة ما حله

لم تَبُخْ بالزُّوْسِ

التي قطعتها

ولا باليد القاتلة.

* هل هذا الخارج ضوء؟

والداخل، كيف يكون، وكيف

يحول، وكيف يقوم

إن مات الروم؟

أَلْحَدِيدُ - حَدِيدُ الزَّمَانِ،
يَقْدُ الصَّخُورَ، وَلَكِنْ
تَأْكُلُ النَّارُ هَذَا الْحَدِيدَ، وَتَنْطَفِئُ النَّارُ فِي
الْمَاءِ، وَالْمَاءُ يَعْلُو
فِي السَّحَابِ، السَّحَابُ تَمْرَقُهُ
الرَّيْحُ. مَرَّقْتُ ظَنِّي
وَوَشَوِشْتُ نَفْسِي:
سَمَكٌ خَارِجُ الْمَاءِ - هَذَا رِهَانِي
لَا لِأَرْبَحَ، لَكِنْ لِأَلْهُو
وَلَأَسْخَرَ مِنْ ذَلِكَ الْمَكَانِ،
وَهَذَا الزَّمَانِ.

- ٥٥ -

سَنَّةٌ قَاجِلَةٌ
لَا تُسَجَّلُ فِي دَفْتَرٍ، -
أَلْحَقُولُ وَأَسْمَاءُ حُصَادِيهَا،
وَأَسْمَاءُ مِنْ حَصْدُوهُمْ -
كَلَّهَا نَافِلَةٌ.

* الْخِيُولُ الْخِيُولُ
وَرَقٌ يَتَطَايَرُ بَيْنَ أَكْفِ السُّهُولِ.

سَنَّةُ قَاتِلَةٍ

ليس فيها سوى الأكل،
والآلة الآكلة.

هُزِمَ الْعَسْكَرُ، انتَصَرَ الْعَسْكَرُ:

خَبَرٌ عَابِسٌ

خَبَرٌ ضَاحِكٌ.

والفضاء مُكَبٌّ على شمسِهِ

وعلى نفسه،

لا يُحَسُّ بما نُخْبِرُ

وَيَتَمَتُّمُ دُونَ اكْتِرَافٍ:

بَشَرٌ، - غَابِرٌ يَتَعَالَى،

وَعَدٌّ يَصْغُرُ.

* بَشَرٌ مَنْدُورُونَ لِيَوْمِ السَّاعَةِ
فِي مُحَرَابِ الطَّاعَةِ.

مَوْزَار تَنَامُ كَمَنْبَجٍ :

عَصْفُ رَمَادٍ

يَهْدِي، وَيَرُوحُ وَيَغْدُو

فِي خَدَّيْهَا.

رَمْلٌ فِي إِحْدَى عَيْنَيْهَا

شَوْكٌ فِي الْأُخْرَى،

وَالْأَيَّامُ قِيودٌ بَيْنَ يَدَيْهَا.

(١) الأشخاص الذين كانوا
يسعون في البيعة لإبراهيم بن
المهدي. وهم أربعة:
إبراهيم بن عائشة، محمد بن
إبراهيم الأفريقي، مالك بن
شاهين، فرج البغاري.

(٢) الإشارة إلى الخليفة
المأمون.

(٣) المقصود هنا هو
إبراهيم بن المهدي.

(٤) الإشارة إلى إبراهيم بن
المهدي. والكلام له، مخاطباً
الخليفة المأمون.

- ٥٧ -

- أ -

أَفْسَكُوا بِهِمْ^(١)

أَخْضَرُوهُمْ إِلَيْهِ^(٢).

صَلَبُوا

بَعْدَ أَنْ قُطِعَتْ

رُؤُوسُهُمُ الْأَرْبَعَةُ.

وَالْخَلِيفَةُ^(٣) كَانَ اخْتَفَى

تَحْتَ بُرْقَعٍ أَثْنَى.

نَبَذَتْهُ الْمَدِينَةُ،

لَمْ يَبْقَ شَخْصٌ مَعَهُ.

- ب -

أَحْضَرُوهُ وَحِيداً^(٤)

- «فَوْقَ مَنْ أَذْنَبُوا أَنْتَ.

عَفْوُكَ فَضْلٌ وَعِقَابُكَ حَقٌّ».

* بَلَدٌ لَا يَتَغَيَّرُ فِيهِ إِلَّا الْقَبْرُ، تُرَاهُ

بَلَدٌ مَسْبُوقٌ دَوْمًا،

بِحُطَامِ الْمَعْنَى؟

- ز -

تَلُّ بِطَرِيقٍ، أَمْدُ، جَنِيحَانُ

جَسْرٌ إِلَى الرُّومِ،

وَالرُّومُ أَحْجَارُهُ -

نَتَخَاطَبُ، نَلْغُو:

إِنَّهَا سَكْرَةُ الْأَلْسِنَةِ

تَجْعَلُ الْقَشَّ وَرْدًا

وَالْحَجَارَ خِيولًا

وَتَوَابِعَ،

فِي هَذِهِ الْأَمْكَنَةِ.

- «بل منحثك عفوي»^(١).

- «وعفوت عمن لم يكن عن مثله

عَفُوً، ولم يشفع إليك بشافع

إِلَّا الْعَلُو عَنْ الْعُقُوبَةِ، بعدما

ظفرت يداك بمستكين خاضع

مَا إِنْ عَصِيَّتْكَ وَالْغَوَاةُ تَقُودُنِي

أَسْبَابُهَا، إِلَّا بِنِيَّةٍ طَائِعِ

رَدَّ الْحَيَاةَ إِلَيَّ، بعد ذهابها

وَرَعُ الْإِمَامِ الْقَادِرِ الْمَتَوَاضِعِ»^(٢).

* مَدْنُ تَقُولُ لِرَبِّهَا: بِكَ نَسْتَعِينُ

هَذَا جَزَاءُ الْكَافِرِينَ،

يُزْجَوْنَ مِنْ نَارٍ لِنَارٍ

لَا شَيْءَ يَعْصِمُهُمْ، وَلَيْسَ

لَهُمْ سَبِيلٌ لِلْفِرَارِ.

(١) الكلام للمأمون.

(٢) الأبيات لإبراهيم بن المهدي نفسه. وكان، كما هو معروف، شاعراً.

- ج -

أهل قم يثرون، قالوا:

لا خراج،

وكان كبيراً.

حاربوهم،

هدموا سور قم، أذلّوهم

وزادوا الخراج عليهم^(١).

- د -

جيش عبيد الله يُباد^(٢)

ومصرُ تعودُ، وترقدُ

بين يدي بغداد.

- ح -

لبقايا ملطية جشم حجر

غير أن الرماد مهاذ لها

والتآكل ميثاقها.

وتدب وتنهض في موتها:

موتها واحد،

والغبار الصور.

(١) أخذ من أهلها «سبعة آلاف ألف درهم، بعد أن كانوا يتظلمون من ألفي ألف درهم».

(٢) عبيد الله بن السري، الذي كان متمزداً في مصر. وعبد الله بن طاهر هو الذي تغلب عليه وأباد جيشه.

* أخذته لغات السلاح وأصواتها:
الصفائح مثل الصفائف،
والترس طرس.

(١) بأمرٍ من الخليفة
المأمون.

(٢) الإشارة إلى الخليفة
معاوية.

دَلَوُكَ جَحِيمَ فَارَةٍ، لَوْنُ دُورِهَا
سَخَامٌ، وَلَوْنُ السَّاكِنِينَ تُرَابٌ
تَفَرَّ الطَّيُورُ الْعَابِرَاتُ مِنْ أَسْمِهَا
وَيَجْفَلُ مِنْهَا فِي الْفُضَاءِ سَحَابٌ
حِصُونُ قِتَالٍ كُلٌّ تَسَالَىهَا دَمٌ
وَلَيْسَ لَهَا غَيْرَ السَّيُوفِ جَوَابٌ.

تَأْدُوا^(١):

«بَرِئْتُ ذِمَّتِنَا

مِمَّنْ يَذْكُرُهُ»^(٢) بِالْخَيْرِ، وَمِمَّنْ
قَالَ:

أَرَاهُ

أَفْضَلَ مِنْ أَيْ

مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ.

* أَلْقَاعُ الْقِلَاعِ

تَتَخَاصَرُ حَوْلَ الْبُيُوتِ، وَحَوْلَ
الْحُدُودِ، وَلَكِنْ لَمْ تَزِدْ قَادَةَ الْجُنْدِ
أَلَا فَرَاغًا،
وَالْأَضْيَاعَ.

- ي -

ثوبُ هذا النهار طويلُ

وأذياله تتمزقُ:

لا بُدَّ من آخرِ

على قَدِّه، -

أَلْخَنَادِقُ أَزْرَارُهُ

وَالْحِرَابُ الْخِيوطُ

وَأَكْمَامُهُ رِمَاحٌ.

- ٥٩ -

قال المأمون بخلق القرآن،
وأعلن:

«بَعْدَ مُحَمَّدٍ،

خَيْرُ النَّاسِ عَلَيَّ»^(١).

(١) قال ابن كثير: «في ربيع الأول، أظهر المأمون بدعتين فظيعتين، إحداهما أطم من الأخرى، وهي القول بخلق القرآن. والثانية تفضيل علي ابن أبي طالب على الناس، بعد رسول الله (صلعم). وقد أخطأ في كل منهما خطأ كبيراً فاحشاً. وأثم إثمًا عظيماً».

* لا يعودُ من الحرب إلا إلى

الحَرْبِ:

ربُّ الأفولِ

ساخِطٌ دائماً - مرّةً

تتقطعُ في حربه الجسومُ، مراراً

تتقطعُ فيها العقولُ.

عِنْدَ بَابِ الْكَنِيسَةِ، قَتَلَى
وَالْبُكَاءُ عَلَى وَجْهِهَا غَطَاءٌ.
جَرَسَ مَيِّتٌ
مَلَائِكُ يَسْتَسْلِمُونَ إِلَى صَمْتِهِ.

خُوذْ وَبَقَايَا سَيُوفٍ
تَتَعَانَقُ فِي كَنَفِ الْمَوْتِ،
وَالرَّيْحُ تَلْهُو
وَتَجَرَّرُ أَذْيَالَهَا.

- ٦٠ -

سَنَةٌ، كُلُّ لِسَانٍ فِيهَا
يَهْذِي
وَيَكْزُرُ قَوْلَ عَلِيٍّ^(١):
«اللَّهُمَّ أَرْخَهُمْ مِنِّي
وَأَرْحَنِي مِنْهُمْ».

* وساده الجرح في ضيق وفي سعة
وفي ضماد من الوسواس والأرق
يجرّ أعضائه في كلّ زاوية
كأنه ورقّ يشكو إلى ورقّ.

- ل -

(١) الإشارة إلى عبد الله بن عبد الحكم.

(٢) قائد جيش المأمون، محمد بن حميد الطوسي.

بين طفلٍ يجيئُ ليسألَ عن أبويه
عندَ جارٍ لهم، وطفلٍ
يحمل الماءَ كي يسقيَ العابرينَ،
رجالٌ
ونساءٌ

يجزون أغلالهم
في دورب الشقاء
وترُفرفُ من فوقهم رايَةٌ
تتمزق فيها السماءُ ويقتلُ الأنبياءُ.

- ٦١ -

- أ -

بعد أن علقوه^(١)،
أشعلوا النارَ من تحته.

- ب -

بابك الخرمي، يقاتلُ -
يقتلُ ابنَ حميد^(٢).

* تتلعثم في صدره

لغة مرةً حبيسه

تتكشف أسرارها

للعذاب الذي يتختر في قُبّة
الكنيسة.

- ٦٢ -

- أ -

«نَهَبُ لِلْأَمْوَالِ،

وَسَقُّكَ دِمَاءٍ:

تلك خيائنة عهدٍ

والقتلُ عقابٌ»^(١).

- ب -

«سَاوَوْا

بين الله وبين القرآن:

أهلُ جهالةٍ

أهلُ ضلالةٍ -

لا عقلَ لديهم، لا بُرْهَانَ»^(٢).

- م -

أَلْخِيُولُ تَوَاحِي السَّهَامِ،

السَّهَامُ تُفَارِقُ أَقْوَاسَهَا

في غبارٍ يلفّ المدائنَ -

أَبْرَاجُهَا وَحُرَاسَهَا.

- أَيْنَ نَمْضِي، وَمَنْ سَنَقَاتِلُ؟

- غريباً،

ونقاتل مَنْ ليس مِنَّا.

تسمع الشمس، تَحْنُو وتقرع، حُزناً

على الأرضِ، أَجْرَاسَهَا.

* زَمَنٌ مِنْ خِرَافٍ

وسكاكينَ، والكون كالخيَطِ في

إبرةٍ -

فاتقاً، راتقاً.

(١) الكلام للمأمون، أميراً
بقتل ابني هشام: عليّاً،
وحسيناً، لسوء سيرتهما «قتل
الرجال، وأخذ الأموال».

(٢) الكلام للخليفة المأمون،
واصفاء الأشخاص الذين
يقولون بأن القرآن غير
مخلوق.

- ٦٣ -

سنة - كل أيامها
شهوات،
الأنواح سرير لها،
والجراح لقاح.

- ن -

نَخْلَةٌ - نُقِطُ مِنْ دَمٍ
تَتَغَلَّغُلُ فِي جَذْعِهَا.

جذعها -

لم يكن مرةً فارساً
لم يقل مرةً
إنَّ للحربِ نَخْلًا
وجنائنَ من كلِّ طيبٍ.

وَيُخَيَّلُ أَنَّ يَدَ الشَّمْسِ ضَنْتُ
عليه بمنديلها.

* ما أَعْجَبَهُ -

لَا يَسْتَيْقِظُ إِلَّا فِي طَبَلِ الْحَرْبِ
ضِدَّ الشَّرْقِ وَضِدَّ الْغَرْبِ.

لا أرى

غير تلك الجسوم التي تتزاحم أعناقها
وتناجر كي تُنحرًا.

لا أرى

غير ما تُعلنُ السيوفُ،
ثُراني أشكو،

أم الخوفُ يجتاحني؟
أثراني في حيرة؟ ولكن،
من يؤكد أنني أوثرُ ألا أشارك

في الحربِ،

ألا أرى؟

* أمشي، أعانق صخرًا أشتهي نَفَقًا

ذئبٌ أنا شِبُه مَيِّتٍ، يشتهي دَمَهُ

خبزًا، ويشرب وَحَلَ اللَّهِ والعَلَقَا.

- ٦٤ -

- أ -

حكمه^(١) لا يُطاق، -

كان، ظلمًا وبُغيًا،

يقتلُ النَّاسَ، أو يجمع المالَ
منهم.

قتلوه، جزاء

رَفَعُوا رَأْسَهُ على رأسِ رُمَحٍ،

وطافوا به في العراقِ.

- ب -

تمجيدًا،

لِلْعَقْلِ وحكم العَقْلِ، سادعو
للقولِ جهارًا:

«لا أزلِّي، لا أبدئي

إلا اللَّه: القرآنُ كُتِلَ العالمُ،
مخلوقٌ، والإنسانُ مريدٌ حرٌّ».

(١) الإشارة إلى عليّ بن هشام، عامل المأمون على أذربيجان. وأشير سابقاً إلى أمر المأمون بقتله مع أخيه، لطغيانه وظلمه.

(٢) الكلام للمأمون داعياً الناس إلى القول بخلق القرآن.

- ٦٥ -

- أ -

خزوا الرأس،

وطافوا الأسواق به^(١).قال ابن تمام^(٢):

«شاهدت عياناً جثته -

كلب أبيض يحرسها،

يمنع كل كلاب الحي

أن تدنو منها!».

وأضاف سواه:

«كل مساءٍ

كنتُ أشاهدُ أنواراً

كقناديلٍ

تتدلى فوقه».

- ع -

لُجَّةٌ مِنْ أَرْقٍ

أَتَقَلَّبُ فِيهَا، وَأَسْتَفِرُّ الصَّبَاحَ،

وَأُوهِمُ أَتَى فِيهِ وَمَنْهُ، وَأَعْرِفُ:

لَا شَيْءَ حَوْلِي غَيْرُ الدَّمَاءِ،

وَأَعْرِفُ:

لَا شَيْءَ فِي مَشْرِقِ الشَّمْسِ،

إِلَّا الْغَسَقُ.

(١) رأس عباس الفارسي،
الذي كان من أئمة العلم
بالحديث في أفريقية. قتله
الأمير زياد الله بن الأغلب
التميمي، وأمر بالطواف برأسه
في أسواق القيروان.

(٢) شخص من أصحاب
عباس الفارسي، اسمه صبرة،
وكان مولى لتميم بن تمام.

* بعضنا صادقٌ

بعضنا كاذبٌ، ولكن

صديقٌ كاذبٌ معاً كل صمتٍ.

- ف -

كلَّ يومٍ، قبيلَ الغروبِ،
تَجِيءُ إلى المدفنِ القريبِ إلى بيتها،
تتفقَّدُ أبناءَها وأحفادَها،
قلبها في يَدِ وعَصاها
في يَدِ،
وتُتمِمُ:
يا موتُ خذني إليهم!

- ب -

ماتَ المأمونُ:
اختارَ العقلَ،
ورَدَ الثقلَ،
وكان يحاورُ مَنْ سَمَّوهُ
بالزنديقِ، وكان يُفضَّلُ أن
يُصغِي،
في كلِّ خلافٍ، للفكرِ -
يقول بنور الفكرِ
قلقَ الإنسانِ،
ومعنى الكونِ،
وسِرَ الدهرِ.

* مُمَسِكَاً بيدِ الشمسِ، كان الصَّبَاخُ
يتنقَّلُ في حِينَا
والمكانُ على صدره غَابَةٌ مِنْ رِمَاخِ.

- ص -

سأقول لهذا الذئب: تجيء كريماً
وتموت كريماً.

سأقول لنفسي

لم أقتل أحداً

لم أهرب

لم أسرق

بيت المال

وأكرر قولي:

الطاعة للمولى

لخليفته، ولعمال خليفته

ولعمال العمال.

- ٦٦ -

- أ -

ثار^(١) في الطالقان،

تَعَثَّرَ، خَابَ، انكسَر

حبسوه -

فَرَّ مِنْ حَبْسِهِ.

كيف؟ أين اختفى؟

لا أثر.

(١) الإشارة إلى محمد بن القاسم بن عمر، الذي ينتهي نسبه إلى علي بن أبي طالب. وقد هرب من حبسه واختفى.

* حرب، -

تَهْزَأُ مِنْ قَتْلَاهَا

مِمَّنْ يَتَصَرَّوْنَ وَمِمَّنْ هُزِمُوا.

- ب -

ثورة الزط تطغى.

حاصروهم،

أبادوهم^(١)،

ضربوا كل أعناق أسراهم.

بعثوا بالرؤوس إلى المغتصم:

إبتهج أيها السيد

المرتفع في عرشه،

وابتسم.

- ق -

حرب - جدل دام

بين المذهب والمذهب:

«غلب الروم»،

«الغالب، بعد غد، مغلوب»،

قول ينسخ قولاً

في لغة

يستنسخها ويفتقها، ويشققها

دأء، -

أنى، ومتى، وإلام

وكيف سيغلب؟

(١) قيل قُتل ثلاثمئة، وأسير
خمسمة. ودامت ثورة الزط
تسعة أشهر. (راجع الإشارة
السابقة إليهم).

* في آلسِ قمرٌ يحيا بلا حرسٍ
وحوله الناس والأوهام تشتجرُ
ليلى ومريم شعرٌ في دفاتره
وفي سناه يؤاخي الموجه الشررُ.

وقف الموت في باب كوخ
على باب منبج، مُسْتَقَرِّئاً
حاملاً كأسه -
يَشْرَبُ الأرض، أَيامها المانوية،
أغصانها المائلة،
وعلى كتفيه
مدن راحلة.

- ج -

الرجال، النساء،
وصبيائهن حصاد^(١):
وأحس كائني أصغي
للمغنين والشعراء،
وأصحابهم:
«يادم الخرمية
كَتَبْتُكَ الغيوم على وجهها
للرياح، تَحِيَّة».

(١) الإشارة إلى قتلى من
الخرمية، بلغ عددهم، كما
يروى المؤرخون، مئة ألف،
سوى النساء والصبيان.

* حقل موتى، كواسر من كل فج
بُرك من دم: مائدته
إنها الأرض - مخنوقة، هامدة!

ذَهَبَ الْفَارِسُ

ذَهَبَتْ أُمُّهُ

تَسْأَلُ الرِّيحَ وَالشَّمْسَ عَنْهُ

فِي الْحَقُولِ، وَبَيْنَ الْأَزَقَةِ سِرًّا.

- ٦٧ -

- أ -

أَشْجَارٌ قُطِعَتْ

وَزُرُوعٌ بَادَتْ.

وَرُؤُوسُ الْقَتْلَى -

مَا أَكْثَرَهَا

مَا أَشْجَى مَنَظَرَهَا.

لَمْ يَقْدَرْ مَيْسِرَةٌ^(١)

أَنْ يَتَحَمَّلَ: زُلْزَلٌ،

مَاتَ حَسِيرًا.

(١) الإشارة إلى ما حدث في حصار عبد الرحمن بن الحكم لطليطلة، في هذه السنة ٢٢٠ هـ. وميسرة هو القائد المعروف بـ «فتى أبي أيوب». مات، بعد أيام قليلة من الحصار، حسرةً وعمًا، من رؤية رؤوس القتلى.

لَمْ يُجِبْهَا، وَلَمْ يَعْرِفِ السِّرَّ، إِلَّا
غُصْنٌ يَابِسٌ.

* لَا صَوْتَ حَوْلِكَ، لَا صَدَى، -

صَحْرَاءُ مِنْ وَرَقٍ وَرِيحٍ
لِمَنْ اهْتَدَى وَلِمَنْ هَدَى.

- ب -

القضاء على ثورة الزط:

أجلوهم بعيداً

عن أماكن سكناهم.

وضعوهم

قريباً من الروم،

جأؤوا إليهم،

وأبادوهم - واحداً واحداً^(١).

- ت -

تاريخ حروب: طرس

كتب الآباء عليه

بدم الأبناء -

كتب الأبناء عليه

بدم الآباء

هول الأشياء.

أكون النور طريقاً

نحو ظلام آخر أذهى

وأمر حجاباً؟

(١) كانوا، كما يروي
المؤرخون، سبعة وعشرين
ألفاً، وقيل ثلاثين ألفاً، من
النساء والصبيا.

* تاريخ شيطان

قذفته أحشاء البحر

الأوراق جراً، والخط دخان،

والجبر السحر.

- ٦٨ -

«قيل لي^(١) في المنام:

«إذا لم تُحارب

بأبكأ، فسأمرُ هذي الجبالَ

بِرَجْمِكَ»، -

يا رَبِّ، يَسْرُ!

فَتَحْتُ جُفُونِي. مَرَّ وَقْتُ

قَصِيرٍ - هوذا بأبكُ أسيرٌ.

- قَرَبُوهُ.

- أين سيّافه؟

- تَقَدَّمْ، خذْهُ، واقطع يديه،

ورجليه.

- أحسنت. والآن لِلذَّبْحِ. شَقُّوا

- ث -

كلنا كان يُوغَلُ في مَذْحِه:

«يَمْتَطِي، لا الخيولَ ولكن

يَمْتَطِي هَمَّةُ

لا عِنانَ له غير أعناقِهِمْ.

سيفه يتحدّث عنه

والرؤوس له كلماتٌ».

كلنا كان يَهْذِي.

(١) الكلام للخليفة
المعتصم. وقد استمرّ بابك
الخرميّ في تمرّده عشرين
سنة.

ويقول المؤرخون إنه قتل
مئتين وخمساً وعشرين ألفاً،
وأسر خلقاً لا يُحصون.

ويقولون إن ثلاثة آلاف
وثلاثمئة شخص أسروا معه،
عندما قتل. وأسم أخيه
عبد الله.

وقيل إنّ بابك طلب أن يشرب
الخمرة، قبيل مقتله.

* جَصٌّ فوق جبين الوقتِ وطِينُ

والحوضُ كبيرٌ

والأيّام جوارٍ فيه:

تاريخٌ يكتب في تَنُورٍ.

لِلدَّمِ سَتَقِ ظِلٌّ

يَتَجَوَّلُ بَيْنَ الْقَلَاعِ، وَيُوغِلُ فِينَا:

أَثَرَاهُ دَلِيلٌ وَرَمَزٌ

لِشَهْوَتِنَا الْمَاكِرَةِ

كَيْ نَحْرَرَ أَيَّامَنَا

مِنْ مَرَارَاتِهَا وَتَبَارِيحِهَا؟

إِهْدَيْ، يَا ابْنَةَ اللَّيْلِ،

أَيَّتَهَا الْبُومَةُ السَّاحِرَةُ!

بَطْنُهُ. أَرْسَلُوا رَأْسَهُ

لِخِرَاسَانٍ، طُوفُوا بِهِ. وَاصْلُبُوا

هَاهُنَا جِسْمَهُ.

وَأَفْعَلُوا بِأَخِيهِ، مِثْلَهُ

مِثْلَهُ تَمَامًا.

- ٦٩ -

بَطَاشُ جَبَّاز^(١)،

كَانَ، لِكثْرَةِ قَتْلَاهُ،

يُدْعَى الْجَزَّازُ.

* مَا أَمْرُ الْوُصُولِ إِلَى الشَّيْءِ - فِي

صِمْتِهِ وَفِي سِرِّهِ،

وَمَا أَكْرَمَهُ.

أَجْمَلُ النُّورِ مَا جَاءَ مِنْ جِهَةٍ مُعْتَمَةٍ.

(١) الإشارة إلى إبراهيم بن موسى الكاظم، وقد قتل في اليمن خلقاً كثيراً.

أصدقائي، أبناء قومي
سقطوا، يفرشون الغبار
ويلتحفون العراء.

- ٧٠ -

- أ -

قالوا:

«بعض الأمراء -

العباس بن المأمون،

وبعض من إخوته،

رفضوا أن يصدر منهم صوت:

وامعتصماه!

أو ما يشبهه.

قُتلوا^(١).

لَعِنَ العباس، وقالوا:

سَمَوْهُ لَعِينًا.

لا أريدُ البكاء، ولكن
كيف أبقى بعيداً؟
كيف لا تدفق نفسي
في تدفقِ هذي الدماء؟

* طرق - لا خضراء ولا سوداء
ولا بيضاء
نحو لغاتٍ
لا أفعالٍ لا أسماءٍ لا أشياء.

- ض -

في الزقاقِ تجمَعْنَ يبكين، يرقصن:

هذا

عرُسُ العائدين.

النَّوافذُ شمسٌ لِمَن كان حيًّا

والغبارُ ستارٌ على الميتين.

رجلٌ وامرأةٌ

يومئذٍ وحيدين في آخر الزقاقِ

إلى نجمةٍ مُطفأةٍ.

- ب -

في الأحياء، الناسُ سُكاري
يتغنى كلُّ منهم:

ما شأني بالسُّلطانِ -

أعني، يا الله،

أتركني في هذا القَبْرِ، بعيداً
عنه:

أخيا حُرّاً

للشعر،

لوجه الشعر،

وَوَجْهٍ نبيذٍ عالٍ،

وَأَبْناءَ!

* روميّاتُ

بشّابٍ من رُمانٍ

والطرقات قلائد ورْدٍ:

الأحمر، هذا اليوم، أميرٌ.

- ظ -

إِنْفَتْحْ، أَيُّهَا اللَّيْلُ، لَا مِثْلَ قَبْرِ

بَلْ كَمِثْلِ السَّرِيرِ،

وَلَا بِأَسَّ أَنْ تَرْقَدَ الْحَرْبُ حَوْلَ الْوَسَادَةِ،

كَيْ يَتَوَحَّدَ مَاءُ السَّدِيمِ

وَمَاءُ الْوَجُودِ

وَابْتَعدْ، لَا تَعُدْ

أَلْجَمَالُ مَتَى سَالَ فِي نَهْرٍ أَشْوَاقِنَا،

لَا يَعُودُ.

- ٧١ -

فِي خِرَاسَانَ،

لَا شَهْرَزَادَ، وَلَا شَهْرِيَّازَ

فِي خِرَاسَانَ،

يَخْرُجُ شَخْصٌ

يَرْجُ مَدَامِيكَهَا،

إِسْمُهُ الْمَازِيَّازُ.

* عِنْدَمَا تَشْهَدُونَ الْقَمَرَ

وَشَوْشُوا الْبَحْرَ غَطَّوْا سَرِيرَ مَنَامَاتِهِ

بَشْرَاعِ السَّفَرِ.

- غ -

لا تقل، أيها الشرق، هيأت نفسي
وضبطت مواعيدها.

لا تقل، أيها الغرب، وجهت وجهي
لِللقاء - الطريقُ هنا
وهناك، امحاء.

والهواء يقول الهواء
لم يحن بعد يومُ اللقاء.

- ٧٢ -

أسير المازيار، وقالوا:
مات تحت السيّاط، وقالوا:
صلبوه على جسر بغداد،
أصحابه
وأتباعه -

قُتل الأكرمون الإعزاء منهم.

* وجه زيتونة

ضارب في تخوم الشفق، -
أتراني أقسم من أول:
والضحى، لالقاء، ولا مفترق!

هوامش



لا تعذر المشتاق في أشواقه
حتى يكون حشاك في أحشائه،
إن القتل، مُضرجاً بدموعه،
مثل القتل، مُضرجاً بدمائه.

المتنبي

إسحاق الموصلي

المغني المشهور، مات
سنة ٢٣٥ هـ.

ليت لي أن أغني
أن أرى زمني يتغنى
بالتواصي، في قلب هذي المدينة
كي يؤاسي أوجاعها،
ويؤالف ما بين أحلامها وخطاها
ويُفتق أسرارها.

ليت لي أن أدير عليها
كأس أوجاعي الدفينة.

القاضي أحمد بن أبي دؤاد

«كان داعيةً إلى القول
بخلق القرآن. أخذ ذلك عن
بشر المزيسي، عن الجهم بن
صفوان عن الجعد بن درهم
عن أبان بن سمعان، عن
طالوت ابن أخت لبيد
الأعصم و«أخذه طالوت عن
لبيد بن الأعصم اليهودي الذي
سحر النبي، وكان يقول بخلق
التوراة». مات سنة ٢٤٠ هـ.

نجمة فوقنا، سألثنا:

كيف تسمو حياة

يتأله فيها الكلام، ويصبح أرفع منها وأعلى؟

نجمة فوقنا

تتقفي خطانا،

تتقرب، تلمس أكتافنا

تتناهى، تعود - تريد الإقامة ما بيننا.

أثرانا الفضاء الأحب إليها؟

أحمد بن حنبل

توفي سنة ٢٤١ هـ /
٨٥٥ م أمضى في السجن
ثمانية وعشرين شهراً،
لامتناعه عن القول بخلق
القرآن.

بين السجن وقول مقال لا يرتاح إليه،
آثر ليل السجن: الفكرة، حيناً، جرح
حيناً سكين،
حيناً ضوء.

ألهذا نفنى
كي تتجدد نار المعنى؟

الحارث المحاسبي

مات سنة ٢٤٣ هـ /

٨٥٧ م. لم يُصلِّ عليه إلاّ

أربعة أشخاص. هجره الإمام

أحمد بن حنبل، وهجرته

العامة معه، لأنه اهتمّ بعلم

الكلام.

- أ -

لم يُصلِّ عليه سوى أربعة.

- ب -

هرباً من رِغَافٍ

لا يرونَ طريقاً إلى الذين إلاّ التعصّب

والقتل، عاش وحيداً،

ومات وحيداً.

- ج -

قال: «لا أعلم» -

و «توهّم» /

أعمق ما يعرف المرء مُستَوهّم.

إبن كُريب

محمد بن العلاء ابن
كريب الهمداني. أوصى أن
تدفن معه كتبه، فدفنت. مات
سنة ٢٤٣ هـ.

عند موتي، احمّلوني كأني كتابٌ
وضعوا كتبي عند رأسي،
وادفنونا معاً.

لغةُ الشيء أنقى وأبقى
والتعاليم لغوٌ.

ابن منيع

يقال إنه من «أقران ابن
حنبل في العلم». «بيع جميع
ما يملك بعد موته بأربعة
وعشرين درهماً». مات سنة
٢٤٤ هـ.

بَكَتِ الْأَرْضُ عَلَى جِثْمَانِهِ

وَأَمَالَتْ كَتْفَيْهَا صَوْبَهُ

وَشَوَّشَتْ أَعْشَابُهَا:

«كَانَ مِثْلِي

لَمْ يَكُنْ يَمْلِكُ إِلَّا تَوْبَهُ».

ابن السكيت

قتل بأمر من المتوكل،
سنة ٢٤٥ هـ. أمر غلماناه من
الأتراك، فداسوا بطنه وحمل
إلى داره حيث مات.
والسبب، كما قيل، هو أنه
فضل الحسن والحسين على
ابني المتوكل اللذين كان
مؤدباً لهما.

شمسُ هذا الصّباح تدقّ على البابِ. أنهَضُ،
تأخذ جسمي من كتفيه، وتركضُ. مهلاً،
قلتُ. هذا شارعٌ - غابةٌ تُصلي.

خذيني إلى شارعٍ آخرِ
أتعلم رفضي فيه -
صِرْتُ أشتاقُ أن ألتقي غابةً ثانية
وأرى بين أشجارها
شجراً كافراً
وأرى بين أعشابها
نبته زانية.

ذو النون المصري

مات سنة ٢٤٦ هـ. أو

٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م. سجن في

بغداد بتهمة الزندقة. وأطلق

المتوكل سراحه. كان يلقب بـ

«قطب الوقت». ومن أبرز

تلاميذه أبو يزيد البسطامي.

(١) حوار بين ذي النون

وأخيه.

- أ -

- قالوا^(١): عِلْمَكَ لَمْ يَتَكَلَّمْ فِيهِ سَلَفٌ. أَحْدَثَ.

وقالوا: زنديقٌ أنت، ومبتدعٌ.

- «ومالي سوى الإطراقِ والصَّمتِ حيلةٌ

ووضعي كفي تحت خدي، وتذكاري»

- ب -

- تُبْتُ؟ وكيف؟ لماذا؟

- في الصَّخراءِ.

نمْتُ، فتحتُ جفوني:

قبرةٌ عمياءُ

سقطت من وكُرٍّ، -

الأرض انشَقَّتْ، خرجت فيها سُكْرُجَتَانِ:

السَّمْسُ في واحدةٍ، في الأخرى ماءٌ.

فأكلْتُ، شربْتُ، وقلتُ:

حسبي الآن، وتُبْتُ.

ولزمتُ البابَ إلى أن قيل: قُبِلْتُ.

لَمَّا مات، اضطُفَّتْ

لِتُظْلَلَهُ،

أسرابُ طيورٍ.

ديك الجن الحمصي

مات سنة ٢٤٧ هـ.

أحرق الحب من نشوة
أحرق الحب من حيرة
أحرق الحب من شغف الظن، من شغف الشك
في حبه، واحترق.

أثراني أمثل ما عاشه -
أنحني فوق ذاك التراب الذي ضمها
وأوشوش قلبي: تقلب،
واضطجعت حلياً والمسافات والأرض،
واهبط
في الغياهب، في جمر هذا الغسق.

علي بن الجهم

قُتل سنة ٢٤٩ هـ. خُبس
ونُفي، وفي أواخر حياته
عاش ماجناً عابثاً، زهداً
بالعالم وسخرية منه.

قتله بعض الأعراب
اللتصوص من كلب، قرب
حلب. وكان في طريقه
للمشاركة في الحرب ضد
الزُوم، وهو في حوالى الستين
من عمره. والبيتان الأخيران
وُجدا معه على رقعة حين
نُزعت ثيابه، بعد موته. يقول
في إحدى قصائده: وأحكمه
التدريب حتى كأنه
يُعاين من أسرار ما تَوهُما.

بيت جراح يعيش في هَلَجِ
ويستضيف الجراح والهلعا
راح إلى الزوم كي يحاربهم
لكنه في طريقه صُرعا
كأن تاريخ أرضه كتب
يقرأ فيها الجراب والودعا
«وارحمنا للغريب في البلد النازح
ماذا بنفسه صنعا؟
فارق أحبابه، فما انتفعوا
بالعيش من بعده، وما انتفعا».

الرّواية

V

الضوء؟

لا يكشف من الأشياء إلا حجابها الأكثر قرباً تبقى
الأشياء وراء حجبٍ لا يمزقها الضوء

كان يردّد ذلك في نفسه فيما كانت القلعة تنزّثر
بسياج من هباء البشر الذين ماتوا لكي يخلقوها أو الذين
ماتوا لكي يفتحوها وفيما كان يخيّل إليه أنّ التاريخ
أوراق تتطاير في غبار يتطاير. وأخذت أحجار القلعة
تتنظم في جوقة - كلّ حجرٍ صوت، وبدأت تُملي
عليه، -

أ - بشرٌ يملأون الأروقة والأقبية بالكلام لكن
دون أن ينطق أيّ منهم بآية كلمة.

ب - بشرٌ في مقام الصفر يجلسون تحت ظل
الواحد.

ج - امرأة تتحدّث مع نهديها.

د - زمنٌ، -

قنديلٌ أسود يتدلّى من سقف الأبدية.

هـ - كلاً،

لا ليلك يُحرّر اليدين،

ولا نهارك يحرك القدمين:

يكفيك، أيها الزّمن

أن تصلب جسد المكان.

و - التردّد نفسه يشكّ في المصادفة.

ز - لم يكن أرباب القلعة عاجزين عن قتل مدني

بكامليها، وكان كلّ منهم عاجزاً عن قراءة كتاب

واحد.

ح - الفجرُ تكررّ

لكنّه، دائماً، بداية.

الفجرُ؟ هل كان القبو فجراً هو الآخر، في نظر

الأمريين بعمارته ومهندسيه وبنّائيه والسّاهرين عليه؟

«أمر بعمارته

مولانا السلطان الملك الظاهر العالم العادل

المجاهد المرابط المنصور المظفر الغازي عماد الدنيا

والدين أبو المظفر بن يوسف بن أيوب ناصر أمير

المؤمنين».

وهل كان هذا القبر سعيداً إلى هذه الدرجة؟
لم أكد أطرح هذا السؤال موشوشاً ضوء الشمس،
حتى أخذني قبر آخر يبدو أنه أكثر سعادة، -
«أمرَ بعمارته

مولانا السلطان الملك العزيز غياث الدنيا والدين
ركن الإسلام والمسلمين نسل الملوك والسلاطين خلد
الله ملكه».

فيما كان يخرج ملتفتاً إلى القلعة يودعها، كانت تخرج
من جدرانها التي ترقعها خرق العصور أشباح مدججة
بالسلاح تتنافس على الأسلاب التي تركها المهزومون
غزو داخل الغزو على الأكتاف رؤوس تنتمي
إلى أكتاف أخرى على النحور سواعد كانت تتحرك
فوق نحور أخرى قطعان جامحة لا يروضها إلا
الذهب ذبح ورقص تحت سقف واحد مأتم
وعرس في لحظة واحدة.

وانظروا: يدب المال في الشوارع كأنه النمل والأيدي
كلها تسرق الأرض باسم السماء أو تسرق الثانية باسم
الأولى.

بلى، لا بد لمن يريد أن يدرس فيزياء المدينة، من أن
يدرس أولاً كيمياء الشهوات.

خارج القلعة،
شيخ يتوكأ على عُكَّاز،
لِلْعُكَّاز رأس امرأة، وطرفُهُ الأسفل دقيقُ كرأس
الحربة .

سوقٌ بسقفٍ مليءٍ بالثقوب تنزل منه أشعة الشمس في
أشكال الدنانير سوق بجدران تزيّنها بسطٌ بدوية
حمراء سواده . حانوت عقاير وأعشاب طيبة ومراهم
ومقويات ومشهيات . شراب الرأس للحكمة
شراب القلب للمحبة طلاسماً لأسفل الجسد وأعالیه
حانوت بشكل محراب امرأة تسير فاتحة مظلة سوداء
لوقاية بياضها من حرارة الشمس امرأة بلباس أسود
يزيد وجهها بياضاً مسجدٌ يُرمم آخرُ بُني مكتبة
- لاكتب، بل أقلام ودفاتر .

بدأت الظلمة تطرد الشمس أخذت تتربع على حافة
الأفق على الجدران والأبواب والنوافذ على
أغصان الشجر والمآذن على رؤوس المارة

خارج القلعة في المدينة القديمة يسير على ترابٍ
سبقته إليه خطوات المتنبي . ربّما تعانق أثر خطواتهما

وغبارها . حوله من جميع الجهات غبارٌ آخر لا يراه
لا يحسّ به إلا القلب

أخذه الشعور بالوحدة وهو في وسط الجموع شعر
أن خطواته تتخاصم : بعضها يطارد بعضاً وبعضها ينفي
بعضاً

آه كلاً ولم يكن ذلك إلا توهُماً
كان يسير في مكانٍ آخر .

رأى في المدينة زاي هيكلاً مدوراً بسبعة أبواب ،
«للهيكل قبة في أعلاها جوهرة أكبر من رأس
الثور تضيء ساحات الهيكل ، ولا يدنو أحدٌ من
الجوهرة إلا سقط ميتاً .

وفي الهيكل بئرٌ مثلثة الرأس ، متى أكبَّ الإنسان
فوقها ، تطوّح فيها إلى الأسفل على رأس البئر
طوقٌ كُتب عليه :

«هذه بئرٌ تؤدّي إلى كتب الدنيا وعلوم السماء

وما كان في ما مضى من الدهر

وما يكون في ما يأتي .

لا يصل إليها ويقتبس منها إلا من وازت قدرته
قدرتنا ، واتصل علمه بعلمنا ، وصارت حكمته
كحكمتنا» .

منذ أن يقع بصر الإنسان على الهيكل،
يقع في نفسه جزعٌ وحزنٌ واجتذابٌ وحنينٌ.

وكان حاكم المدينة سين، حين لا يثق بوزرائه وعمّاله
يسلّط على رعيّته ناراً تحكم
تأكل الظالم ولا تضرّ المظلوم
ومرّة رأى في ساحة قصره جماعةً رأى ناراً تخرج
إليهم وتأكلهم ثم دنت منها جماعةً ثانية فأخذت النار
ترجع إلى الوراء حتى انطفأت.
وقال أبجد:

رأيت في المدينة شين فقراء في أعناقهم وأيديهم
أطواقٌ من الحديد، يتقدّمهم رجلٌ أسود رأيت
يأخذ حطباً ويضرم فيه النار ثم أخذوا جميعاً
يرقصون في النار أما هو فلبس قميصاً رقيقاً وأخذ
يتقلّب في اللهب ويضربه بأكمّاه صارت النار
رماداً ولم يحترق القميص.

✱

ويوماً فوجئت المدينة شين

«أمر الحاكم أن ترفع الضرائب عن أهلها، وأن
يتساوى فيها الغني والفقير قال لهم إذا سمع بإنسان
مات جوعاً في شارع أوحى فسوف يحرقه لكن
ذلك لم يدم.»

الذِّكْرَى

V

المدينة فاء

كل شيء في المدينة فاء يقول لك :
«الأمس زائل ، واليوم عابر ، والغد متهم» .

✱

الفضاء في المدينة فاء ،
بيوت يسكنها ضيوف غير منظورين . وكيفما نظرت ،
ترى مسرحاً ترصف عليه الرؤوس أدراجاً للصعود .

✱

في المدينة فاء ،
يُكسر الزمن كما يُكسر الجوز .

✱

في المدينة فاء ،
تصاد اللانهاية بالراحات ، وغبار الخطوات هو نفسه
صياد الوقت .

✱

قلما يسمع في المدينة فاء إلا ما يشبه هذا الهمس :
- «هل بطنه جرابٌ لكي يُفْتَحَ؟»
- «هل جسده قمح لكي يُطْحَن؟» .

✱

يُخَيَّل، أحياناً، أَنَّ الإنسان في المدينة فاء أشبه بخيط
طرفه الأول اللهب الذي يخرج من فم الشيطان، وطرفه الثاني
اللهاث الذي يصعد من فم الملاك.

✱

من أين لك، أيتها المدينة فاء،
أن يتحوّل رأسك إلى نرد، ونبضك إلى رمية نرد؟
من أين لك القدرة على الجلوس في حضن عشبّة،
وعلى أن تُجلّسي بين يديك طائر الوقت؟
من أين لك أن تترجمي الريح؟

✱

هو، في المدينة فاء، ليس هو
في رأسه تنزف رؤوس، وتحت لسانه تتسلّل ألسنة.
يخاف أن يُحتَي البحر. يخاف أن يشمّ وردة. ويسأل دائماً:
ماذا أفعل بحياتي؟

✱

ألم يكن يكفي ذلك الشاعر عبء الولادة في المدينة
فاء،

حتى ينضاف كذلك عبء الموت فيها؟

✱

عندما سيزور المدينة فاء مرّة ثانية، (إن سمح العمر
والوقت)،

سيصاحب غيوماً تحجبُ عنه الجنّ.

سيقول لواحدة: أظّليني،

وسوف يأمر أخرى لتنظر هل غاض ماء الحب؟

المدينة صاد

هو، الحارس على الشمس، في المدينة صاد،
ذهنه كالهواء،
لا يصادف أية عقبة، كيفما فكر، وأينما اتجه.

✱

هو، في المدينة صاد،
لا يكتفي بأن يخضع، بل يبحث أيضاً عن أعذار تبرئ
من يخضع له.

✱

يخيل، غالباً، في المدينة صاد،
أن العالم كله مكان لكي يتساقط ورق الشجر، ولكي
تلهو الرياح.

✱

لم يسر مرة، في المدينة صاد،
إلا رأى الحلم يسير إلى جانبه، لكن مقيداً.

✱

لكي يعرف كيف يكتب عن المدينة صاد،
يفكر بغيرها.

✱

قد يكون جسدك، في المدينة صاد، جنة
وتكون حياتك مع ذلك جحيماً.

✱

ما لن تكونه أبداً،
هو الكيان الوحيد الذي يتاح لك، في المدينة صاد،
أن تحلم به،
وأن تعمل من أجله.

✱

في المدينة صاد،
جسدك، حتى وهو في الظلمة، يكون في النور،
وذهنك، حتى وهو في النور، يكون في الظلمة.

✱

كأنك، في المدينة صاد، لا تلتقي مع نفسك، إلا بقدر
ما تضيعُ عنها.

✱

أقول، مع ذلك،
أحلم أن أحول كل حجرٍ في المدينة صاد،
إلى إناء أضع فيه وردةً، كل يوم.

أقول، مع ذلك،

لو أن الساعات التي تعيشها المدينة صاد ملك لي،
لَصَنَعْتُ من كل ساعة كرسياً، وأجلستها عليه.

أقول، مع ذلك،
أتتلمذ على أطفال المدينة صاد، وأملأ جسدي بغبار
طلعها.

أقول، مع ذلك،
ينثرني الزمن بين يديها ذرّة ذرّة، يوماً يوماً، ساعة
ساعة، ومع ذلك تسكت ولا تقول شيئاً.
إذن، ماذا يجدي، أيتها الريح، تَمَائُلُ هذا الغصن؟
ماذا يجدي أن أقطف زهرة من بستان المعنى، وأضيفها
إلى غابة الشكل؟

أقول، مع ذلك،
أودّعك الآن يا دَوّار الشمس في المدينة صاد.
ماذا؟ تدور مع شمسي، وتتوجني بنظراتك؟
عهداً،
سنظل صديقين في بستان المعنى.

المدينة قاف

« . . . انتقد ما شئت، كما تشاء. نعم، الماضي بالنسبة
إلي أفضل من الحاضر، وأجمل. وأعرف أن المدينة قاف
تقودني إلى العدم. غير أنني مع ذلك، متضامن معها.
ثم، ما هذا الوجود الذي تقودك إليه المدن الأخرى؟»
(فقرة من آخر رسالة بعث بها كاتب من المدينة قاف إلى
صديق له في مدينة أخرى).

✱

كل عصيان سياسة في المدينة قاف، حتى ولو عصيت
قاعدة فنية. ذلك أن القاعدة ترويض اجتماعي: طاعة واتباع،
ورفضها يعني رفضاً للنظام، واستمراراً في البدعة والضلال.

✱

المدينة قاف مدينة من الأشياء،
لكن لا وجود فيها إلا للكلمات.

✱

يدور الحوار في المدينة قاف بين طرفين: ما يراه
الطرف الأول مرتباً، يراه الطرف الثاني مستطيلاً. ويمضي كل
منهما حياته في النضال من أجل إقناع الآخر بصحة رأيه.

إن كان عليك، إذن، أن تتكلم، أيها العابر، كما يتكلم
الجميع، فما تكون الحاجة آنذاك إلى الكلام؟

✱

مرة، قال شاعر في جلسة مع أصدقائه في المدينة
قاف:

«ليكن الفنُّ لذةً كلذة الحب: لا يهدف - لا إلى إرضاء
المجتمع، ولا إلى إزعاجه، لا إلى قبوله، ولا إلى
رفضه...»، - منذ تلك الجلسة، لم يسمع أحدُ شيئاً عنه.

✱

هناك، في المدينة قاف، كتبُ كثيرة يكتبها أصحابها
بحرية، كما يُقال.

- ربما. لكن قراءتها لا تفتح أي أفقٍ للحرية.

✱

«الفكر إما أنه الموج، أولاً يكون إلا رَمْلاً»: منشور
سري أتيح لي أن أقرأه في المدينة قاف.

✱

مهما مشيت إلى الأمام في المدينة قاف، فإن الوراثة
يتقدمك.

✱

ليس الإنسان في المدينة قاف هو الذي يؤثّر، بل الحدث - آتياً من «فوق» أو من «خارج». الإنسان وسيلة، وهو في أحسن الحالات، شاهدٌ. يعيش في ظل الحدث، وتحتّه.

※

مات رجل في المدينة قاف، بعد أن كتب على ورقة كبيرة هذه الكلمة الغامضة عن أحد أصدقائه: «يظنّ أن الغامض هو في ما لا يعرفه ولا يراه، وهذا ظنّ خاطيء».

إن كان الغامض يهمه، فعليه أن يبحث عنه في ما يعرفه، وفي ما يراه».

※

«لا يقدر الإنسان أن يمارس السياسة في المدينة قاف، لأنه لا يقدر أن يتحدث عنها: كيف يعمل الإنسان في ما لا يقدر أن يقوله؟

السياسة هي أولاً، قدرة على الكلام»، - منشور سرّي أتيح لي أيضاً أن أقرأه، في زيارة أخيرة لهذه المدينة.

※

قال الطاغية في المدينة قاف لمهرّجه: - كمال الشعر هو الغاية التي أسعى إلى تحقيقها. قال المهرّج: - الوسيلة الوحيدة إلى ذلك هي القضاء على الشعراء.

المدينة راء

الزمن في المدينة راء،
هو دائماً للذين يعيشون خارجه.
لا شيء، في اللغة التي تتكلمها المدينة راء، موجود
بقوة التوهم، كذلك الشيء الذي تسميه الحرية.

※

الحب في المدينة راء؟
هو أن تدرس، مثلاً، أثر الطير في الفضاء، أو تأثير
الشجرة على الريح.

※

المدينة راء مرصوفةً بجماجم تسمى جنائن، وبأفخاذ
تسمى أنهاراً.

※

جميع الكتب التي رأيتها في المدينة راء مليئة بالقبور.
خيّل اليّ، مرة، أن كل كلمة فيها ليست إلا قبراً أو شاهدة.
كأنّ الإنسان في هذه المدينة لا يحيا إلا ميتاً.

※

الفكرة في المدينة راء،
ناقة ترفض أن تحمل الرؤوس المقطوعة.

※

الضحية في المدينة راء،
هي نفسها القاضي والشاهد والجلاد.

✱

تتعذر رؤية المدينة راء،
إلا عنقاً نازفاً مشدوداً إلى قدميها.
هكذا تؤكد المدينة راء أن الانحناء هو أفضل سلم
للصعود.

✱

غرب، غروب، غبار:
كلمات تتخذ منها المدينة راء رموزاً،
ومن هذه الرموز تتخذ أبواباً ومفاتيح.

✱

قانون الحياة اليومية في المدينة راء هو: إما أن تقتل
الآخر، وإما أن يقتلك، -
لكن، أيتها الوردة، ماذا دهاك، وكيف وصلت إلى
هنا، ومن أوصلك إلى فوهة هذا المدفع؟

✱

كل صباح، في المدينة راء،
تمتلئ السماء بأصوات ترتفع كمثل أعمدة لسجون
بنيت خصيصاً للأحلام والنساء.

✱

الضحية في المدينة راء، هي دائماً الإنسان،
لكن من أجل أهداف غير إنسانية.

※

«ما يقوله السيف يكفي أن يفهمه الدم» :
تكرر المدينة راء، كل يوم، لكي تطمئن جلاديتها.

※

ولدت المدينة راء -
في يدها اليمنى سكين .
وفي يدها اليسرى وسادة .

※

أينما رؤي دخان، يقال عادةً : لا دخان بلا نار،
إلا في المدينة راء -

ليست النار هي التي تصنع الدخان،
بل الغبار هو الذي يصنعه .

※

«لا تفكر، لا تقرأ، -
بهذه الطريقة، وحدها، تستطيع أن تتغلب على الفكر
الذي يعارضك، وأن تلغيه» .
هكذا قالت المدينة راء .

V

أَذا الحَرْبُ قَدْ أَتَعَبَتْهَا، فَالَهُ سَاعَةٌ
لِيُغَمِّدَ نَضْلٌ أَوْ يُحَلَّ حِزَامٌ.

المتنبي

- ٧٣ -

سُجِنَ الإفشين،

قُتِلَ الإفشين،

صُلب الإفشين -

تُهَمُّ شَتَى:

منها أَنَّ كِتَابَ «كَلِيلَةَ» والعفريت

الآخر «دُمْنَةَ» كان لديه:

كان مُحَلَّى ذهباً وجواهر. منها:

تمثالٌ مِنْ خَشَبٍ، في أذنيه

قُزْطَانٍ، ومنها صُورٌ في

البيت، وقالوا: كَتَبَ لمجوس.

وأضافوا: أصنام.

يا للكافر، ما أجرمه، ما أنفقه

عقله!

أُخْرِقَ، دُرِّي في دِجَلَه!

- أ -

حَلَبٌ تَسْكُنُ الحَرْبَ، كُلَّ الدُّورِ إليها
جِرَاحُ

كيف أَقْنِعُ صوتي

أَنْ يَفِيءَ إِلَى بَلَدٍ آخَرَ؟

آه، لَا بَلَدٌ آخَرُ

ولماذا الخرائِطُ أَضِيقُ مِنْ خَطَوَاتِكَ،

يا أَيُّهَا الشَّاعِرُ؟

* خطواتُ

لَا تُنَافِسُ غَيْرَ النُّجُومِ وَغَيْرَ اللَّهَبِ

وَأَنَا مُتَعَبٌ - تَعْبِي عَاشِقُ

وجراجي حَقُولُ لِيُزِدَ التَّعَبُ.

- ب -

للجنود الذي يموتون في أرضروم

بيوت،

والملائك حراسها -

للجنود الذين يعودون، هالات وجدي:

كل شخص يجيء

ليلمس أردانهم،

ويرى كيف أن السماء

فُصلت

كي تكون لأجسامهم رداء!

- ٧٤ -

يتبرقع^(١) كي لا يرى

ويطوف القرى،

داعياً يأمر الناس بالعدل

والخير،

يستنكر المنكراً

حبسه

وفي حبسه، خنقه.

(١) هو المبرقع أبو حرب اليماني. يقال إنه قتل جندياً اعتدى على زوجته، وهرب متبرقاً لئلا يعرف، داعياً إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقيل: استجاب له أهل القرى، وقويت شوكته. أسره المعتصم وحبسه. وقتل في سجنه، خنقاً، سنة ٢٢٧هـ.

* أغلقوا كل باب عليه، وقالوا:

عائق الموت، واصعد إلى ملكوت

السماء

كي تريحك من ربة الشقاء.

- ج -

(١) الإشارة إلى سيف
الدولة.

(٢) الكلام لسيف الدولة
مخاطباً المتنبي.

(٣) علي بن أبي طالب.

سُمِّيتْ غزوةُ الفَنَاءِ:

جيشُه كلّه انكسر^(١)

باد، لم يبقَ إلّا

نَقَرُ سِتَّةٍ - وأنا واحدٌ منهم.

كان يَسْتَأْصِلُ الرُّومَ، كنت أراهُ

يَرَجُّ المكانَ

كنت أحسب أن الشَّجَرِ

خَوْذٌ للعدوّ، فوارسُ، كنتُ أَصِيحُ:

«الأمانَ الأمانَ،

أَيُّهَا العِلْجُ».

- «لا عِلْجَ»^(٢). هذا سَمُرٌ عَالِقٌ بثيابك: يحنو

ويهتف بي ضاحكاً:

- عَفُو سَيْفِكَ، عَفُو الفروسة: رعبُ الفناء

جرّني مثلَ طِفْلٍ لهذا الهُذَاءِ.

- ٧٥ -

يسخر الثائرون من الموتِ،

كلُّ يُرَدِّد ما قالَهُ عليّ^(٣)

مرّةً، في القتالِ:

«لا أبالي،

سواءٌ لديّ - أجنثُ

إلى الموتِ،

أم جاءني».

* حفرةٌ، رأسُ مَيِّتٍ

وغرابٌ على الرأسِ يجثو:

صورةٌ تتكرّر في كلِّ شَمْسٍ.

خَرُشْنَه

أَسْلَمَتْ صَدْرَهَا لِلْخِيُولِ وَأَطْرَافَهَا لِلرِّمَاحِ.

خَرُشْنَه

جُثَّتْ أَوْ جَرَّاحٌ.

خَرُشْنَه

خَوْذَةٌ تَتَقَصَّى، تَنْقَبُ أَحْشَاءَهَا

خَوْذَةٌ تَتَشْهَدُ فِيهَا،

خَوْذَةٌ مِثْلُذَنَّةٌ.

- ٧٦ -

حَبَسُوا كِتَابًا^(١) -

قَالُوا: أَخَذُوا مِنْهُمْ

أَمْوَالًا.

وَالْتَهَمَ: ظَلَمَ النَّاسَ،

السَّرِقَاتِ،

وَقَالُوا:

سَمَوْهُمْ خَوْنَةً!

(١) حبسهم الخليفة الواثق
الذي خلف المعتصم بعد
موته، سنة ٢٢٧هـ.

* لِمَ لَا يَكْتُبُ الَّذِينَ يَعِيشُونَ فِي
الْخُلْدِ، عَمَّا يَرُونَ، إِلَى الْأَصْدِقَاءِ؟
وَلِمَ الْغَيْبُ يَجْهَلُ أَنْ يَسْقِيَ الْمَاءَ إِلَّا
بِقَارُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ؟

(١) بُغَا الكبير، وقد وَجَّهه
الخليفة الواصل لمحاربة
الأعراب في الحجاز.

بَطْرَقِيونَ أُسْرَى

وَالْدَمَسْتُقُ يَجْتَرُّ أَوْجَاعَهُ.

أَلْذُّهولُ الْأَلِيمُ الذُّهولُ

مُذَبَّرٌ مُقْبِلٌ

فِي السَّيُوفِ، عَلَى صَهَوَاتِ الْخِيُولِ

وَالْدَمَسْتُقُ يَجْتَرُّ أَوْجَاعَهُ

لَمْ يَعدْ قَادِرًا

أَنْ يُمَيِّزَ بَيْنَ أَنْينِ الْفَرَسِ

وَرَنِينَ الْجَرَسِ.

- ٧٧ -

الْأَعْرَابُ قَطِيعُ ذَنَابٍ

وَبُغَا^(١) صَيَّادٌ.

قَالُوا: لَمْ يُقْلِتْ أَحَدٌ.

* لَا تَبْتَسِّي، كُونِي مِثْلِي، يَا أَهْوَائِي:
لَيْسَ الْمَوْتُ أَمَامِي،
الْمَوْتُ وَرَائِي.

آلِسْ، -

أَيُّهَا التَّهْرُ، تحت الثياب التي ترتديها
جَسَدٌ ليس فيه مكانٌ

للجِرابِ، لجرحٍ جديدٍ.

ما تقولُ لمِجرَاكِ، للضفّتين؟ سأُضْغِي.

لستَ إلّا دماً -

أَلْهَوَاءُ الذي لَأَمَسَ الآنَ خَدَّيْكَ دَامَ،

صَبَغَتْهُ يَدَاكَ

وَحُطِّي العَابِرِينَ دَمٌ يَتَدَفَّقُ، مُسْتَقْطِراً

مِنْ حُطَاكَ.

- ٧٨ -

- ١ -

«صَلَّيْتُ عَلَيْهِ»^(١)

صَلَّى النَّاسَ جَمِيعاً

بعدَ سَنِينَ سَبْعٍ مِنْ

مَقْتَلِهِ.

كَانَ الرَّأْسُ وَحِيداً

مَصْلُوباً فِي بَغْدَادَ، قَرِيباً

مِنْ مَسْكَنِهِ،

وَالْجِسْمُ وَحِيدٌ

فِي سَامَرَاءَ:

بَكَتِ الْخَشَبَةُ

وَبَكَى الْجِنَاءُ»^(٢).

(١) الإشارة إلى أحمد بن

نصر السخزاعي الذي قتل

وصلب لأنه رفض القول

بخلق القرآن، والنص بلسان

أحد أصحابه.

(٢) كان يخضب شعره

بالحناء.

* قل لي: ماذا أفعلُ

في وطنٍ يُرْتَجَلُ؟

- ز -

أيّ هذا الفضاء النقيّ البريء،
 لِمَ لا يَسْطَعُ اللَّهُ فِيكَ، احتفاءً
 بابتهالاتنا إليه
 وبأشواقنا؟ لماذا
 حين نُعْطِي لآهاتنا
 ولأحلامنا
 ولأيامنا
 شفّيته وأهدابه، لا يُضِيءُ؟

- ب -

قال لقاتله^(١):
 «نطفةٌ سكرانٍ أنت
 اتسأبت في جارية.
 مَنْ أنت،
 وكيف يجيء لرأسك علمٌ؟».

(١) الخليفة الواثق. ويُروى أنه دعا بنطع صير في وسط الخزاعي، ودعا بحبلٍ لشدّ رأسه. ثم ضربه الواثق ضربتين على حبل العاتق وعلى رأسه. وضرب سيما الدمشقي عنقه، ثم صلب وكتب في أذنه رقعة، فيها: «هذا رأس الكافر المشرك الضالّ أحمد بن نصر بن مالك قتلّه الله على يدي عبد الله أمير المؤمنين الواثق بالله، بعد أن أقام عليه الحجّة في خلق القرآن، ونفي التشبيه. وعرض عليه التوبة، ومكّنه من الرجوع إلى الحقّ، فأبى إلاّ المعاندة. والحمد لله الذي عجل به إلى ناره».

وُضع الذين شايعوه في السجون، ومنعوا من الزّوار، وقطع نخل بعضهم، وانتهت منازلهم. وقيل: إن أحدهم قال للخليفة الواثق وهو يقتله: «اسقني دمه، يا أمير المؤمنين!».

* أَلْقِنَاغُ هُوَ الْوَجْهُ، قالت
 وردةٌ -

وردةٌ عِطْرُهَا قَبْرُهَا.

- ح -

بين نَهْرَيْنِ مِنْ غَضَبٍ وَأُنْحَاءٍ
لِلْقَلَاعِ وَأَسْوَارِهَا،

يَتَدَفَّقُ نَهْرٌ قَوِيْقٍ .

وعلى ضِفَّتَيْهِ

يَسْمُرُ السَّاهِرُونَ: جِرَاحُ

وَأَسَاطِيرُ مَخْنُوقَةٌ .

- ح -

- ما قولك في القرآن^(١)؟

- كلامُ الله،

- وماذا تعني:

مخلوق، أم لا؟

- قلتُ: كلامُ الله،

- أَجِبْنِي: أترى ربَّكَ،

يومَ الْحَشْرِ؟

- قرأنا

آثَاراً قالت:

«في الْحَشْرِ، ترون الله

كمثلِ الْقَمَرِ،

وأنا أومنُ حَقًّا

في صِحَّةِ هذا الْأَثَرِ» .

(١) حوار بين الواصلق وبعض
رجال قصره من جهة، والفقيه
أحمد بن نصر الخزاعي من
جهة ثانية .

* شاعِرٌ - غيرَ أَنَّ الطريقَ إلى قلبه،
دونها فلواتٌ، ومحيطات ظنٌّ .
أُغْفِرِي تيهَهُ وتيهي، يا طريقي إليه .

- ط -

(١) الكلام لأحد الحضور
المحاورين، ويدعى
إسحاق بن إبراهيم.

(٢) سؤال من الخليفة
الوائق.

(٣) جواب للمقاضي
عبد الرحمن بن إسحاق.

(٤) طلب ذلك شخص يدعى
أبو عبد الله الأرمني.

(٥) الكلام للمقاضي ابن أبي
دؤاد.

(٦) البيت للممتني.

تثور عليك من سَفَه قُشِيرٍ
وتمشي في أَعْتَمِهَا كِلَابُ
تُعَاقِبُهُمْ لِتَهْدِيَهُمْ، وَتُغْضِي
كَمِثْلِ أَبِي يُوْرَقَةُ الْعِقَابُ
«وكيف يتمُّ بِأُسْكَ فِي أَنْاسٍ
تُصِيبُهُمْ، فَيُؤْلِمُكَ الْمُصَابُ؟»^(٦)

- وَيَلْكَ، أَنْظِرْ مَاذَا
قُلْتَ...^(١)

...

- وما فتواكم فيه^(٢)؟

- دَمُهُ جِلٌّ^(٣).

- لو أَشْقَى دَمَهُ، يَا مَوْلَايَ^(٤)،

- الْقَتْلُ يُحَقِّقُ مَا تَطْلُبُهُ.

- تُطَلِّبُ مِنْهُ التَّوْبَةَ^(٥).

- إِنْ قَمْتُ إِلَيْهِ، لَا يَنْهَضُ

أَحَدٌ مِنْكُمْ. فَخُطَايَ إِلَيْهِ

عِنْدَ اللَّهِ، أَبْرُ خُطَايَ.

اخْتَرِ الرَّأْسَ / خَذُوهُ

دَلُوهُ، قُولُوا:

«هَذَا رَأْسُ الْكَافِرِ»

... إلخ».

* تطبق الشمس أجفانها

حين ترنو إلينا.

لا ترى غير أرضٍ كُؤِنَتْ لِلشَّقَاءِ

تَبَخَّرَتْ فِي جُبَّةِ الْأَنْبِيَاءِ!

- ي -

أَتَى إِلَيْكَ رَسُولُ الرُّومِ، فامتلأت
بالناسِ، ساحاتُك الفيحاء،

واشتَجَرُوا

يَسْتَشْرِفُونَ: بلادُ الرُّومِ تجرُّها

ريحُ اليباسِ،

وأنتَ الغيمُ والمطرُ.

«تزاحمُ الجيشُ حتَّى لم يجد سبباً

إلى بساطِكَ لي سَمْعٌ ولا بَصَرٌ»^(١).

- د -

زَمَنٌ مَشُورٌ،-

آلافُ أربعةٍ أُسْرَى

عند الرُّومِ، ولكن

مَنْ قال بِخَلْقِ القرآنِ،

سَيُفْذَى وَيُحَرَّرُ.

من يابى،

سيظلُّ سجيناً عند الرُّومِ!

(١) جلس سيف الدولة لاستقبال ملك الروم. ولم يقدر المتنبي أن يصل إليه لزحام الناس، فعاتبه سيف الدولة على غيابه. واعتذر المتنبي بأبيات، منها هذا البيت الأخير.

* مَنْ تُرى ذلك الفارسُ؟
لا يُخاصِمُ غير الكواكبِ،
والرَّفَضُ شيطانُه الحارسُ.

- ك -

أرجل كالرؤوس، رؤوس

تتعثر بالأرجل -

ما عَقِيلٌ وأنصارهم؟

ما قُشِيرٌ؟

وكِلَابٌ وعجلانهم، ونَمِيرٌ؟^(٢)

بَشَرٌ،

يذهبون إلى نَهَب جيرانهم

وإلى قَتْلهم،

مثلما يذهبون إلى مَحْفَلٍ.

- ه -

إِمْتِحَانٌ^(١) لأهل الثُغُور:

تُراهمُ يقولونَ ما

يَزَتأي الوثائق -

«كلُّ شيءٍ سوى الله من

خَلْقِهِ، وهو الخَالِقُ».

كلهم أعلنوا جهاراً

ما يرى الوثائق -

ما عدا أربعة:

أخذ السيف أعناقهم.

(١) أمر به الخليفة الوثائق:
«هل القرآن مخلوق، أم غير
مخلوق؟».

(٢) الفئات التي كانت تتمرد
على سيف الدولة والبيت
الأول تنويع على ما قاله
المتنبي فيهم - هاربن:
«مَضَوْا متسابقي الأعضاء، فيه
لأرؤسهم بأرجلهم عَنَارٌ».

* رِيَّما لا تحب الحياة الكلام؛ الحياةُ
شِبَاكٌ، وطرائق وَضِل وفُضِل،
بين جسر تهدم فيها، وجسرٍ
لم يزل قائماً.

مَدُنٌ قُتِدَتْ

بِسَلَّاسِلٍ مَزْرُودَةٍ

بِالرِّجَالِ ، وَمَزْرُودَةٍ بِالنِّسَاءِ .

مَدُنٌ - بَعْضُ سَاحَتِهَا رُؤُوسٌ

بَعْضُهَا أَذْرَعٌ وَصُدُورٌ .

مَدُنٌ تَتَغَيَّرُ ، كَالْغَيْمِ تَأْتِي

وَكَالْغَيْمِ تَمْضِي .

مَدُنٌ يَنْهَضُ الْفَجْرُ فِيهَا

شَاحِباً وَيَدَاهُ عَلَى قَلْبِهِ .

مَدُنٌ - كُلُّ جُذْرَانِهَا دِمَاءٌ .

- ٧٩ -

- ١ -

حَشْدُ رُؤُوسٍ

مِنْ أَبْنَاءِ نُمَيْرٍ ،

حُزْتُ .

وَضِيعَتِ صَفًّا ، صَفًّا

قُدَّامَ بُغَا :

لِيُبْغَا ذَوْقَ فِي الْفَتْكِ ،

أَمِيرًا !

* مَا لِتِلْكَ الْمَنَازِلِ ، تِلْكَ الْبُيُوتِ

كُنُسَاءٍ يَقْلُنَ لِعِشَاقِهِنَّ : أُبَيِّحُوا

مَوْتَكُمْ بَيْنَ أَحْضَانِنَا

لَا نَقْبَلُ إِلَّا شَفَاهَا تَمُوتُ .

وَجْهَهَا

وجه مملكةٍ لمقابرٍ من كلِّ عَهْدٍ.

والقصيدة في هذه المدينة قَبْرٌ

يتحرَّكُ في الليل سِرّاً

ويزورُ القِلاغَ

خَرَسَ في الضَّفافِ القريبةِ:

لا شيء يومئٍ،

لا ريحَ،

لا موجةً،

لا شِراغَ.

- ٨٠ -

قُتِلَ الزِّيَاتُ^(١)

وزيرُ الواثقِ

أخذوا ما يملكُ من أموالٍ.

وضعوه في تنورٍ. قالوا:

لَمَّا ماتَ، ابتهجَ ابنَاهُ^(٢).

قالا:

«حمداً لِلَّهِ، ارتحنا مِنْهُ».

كَانَ كما وَصفاهُ،

في رأيِ الناسِ،

وزيراً فاسِقٌ.

(١) محمد بن عبد الملك
الزيات.

(٢) هما: سليمان وعبيد الله.

* قَمْرٌ نَائِمٌ فَوْقَ خَدِّ التُّرابِ

قَمْرٌ يَهْدِمُ الجِسْرَ

بين مزاميره والكتابِ.

(١) الإشارة إلى محمد بن
البعيث في أذربيجان.

أَلْتَلَّالُ التي حول آلِسَ مملوءةٌ رؤوساً
لا عيونَ لها،
وآذانُها قُطِّعتُ.
وضِفافٌ قويقُ
حُفَرٌ وبقايا عظامٍ.
أَلَمَدائِنُ تلبسُ أَشلاءَها،
وتدور احتفاءً بسلطانِها.
أَلَمكانُ هتافٌ لِسِحْرِ البيانِ الذي
يتبَجَّسُ منها،
والزَّمانُ انحناءٌ لبهتانِها.

- ٨١ -

أَسْرَوْهُ^(١)، اسْتَبِيحَتْ
كُلَّ أموالِهِ، وما عنده
مِنْ نساءٍ.
قَيَدُوهُ،
وَصَيَّرُوا فِي عُنُقِهِ حَدِيداً.
مَنَعُوا الْمَاءَ عَنْهُ -
تَرَكَوهُ يَمُوتُ بِيْطَاءٍ.

* دمه للتراب، وأطرافه للغيوم
يسمع الماء يحلم، والضوء يكتب،
والليل يقرأ أشعاره للنجوم.

إِنْ يَجِيءُ مَوْتُهُ الْآنَ فِي خَرْشَنَهُ،
فَأَعِيرُوا لِحُثْمَانِهِ
كَتِفَ الْجَامِعِ الْعَتِيقِ وَعُكَّازَهُ.
وَأَعِيرُوا لِحُلْبَابِهِ
قَامَةَ الْمِثْدَنَةِ.

- ٨٢ -

- ١ -

أَنْتَ أَشْلَسْتُ^(١) لِي

صَبَّوَاتِي، وَعَرَفْتَنِي

بِنَفْسِي، وَزَيَّيْتَنِي -

كُنْتُ، فِي كُلِّ شَيْءٍ، أَبَا.

غَيْرَ أَنِّي لَا بُدَّ أَنْ أَقْتَلَكَ

إِمَضٍ وَاقْرَأْ هَوَانَا

يَا صَدِيقِي، مِنْ أَوَّلٍ،

فِي كِتَابِ الْفَلَكَ!

(١) الخليفة المتوكل،
مخاطباً الأمير إيتاخ الخزري،
واليه على مكة.

* فِكْرٌ كَمِثْلِ فِقَاعَاتٍ يَمُوجُ بِهَا
مَاءُ الْحَيَاةِ، - حَيَاةُ الْخَالِقِ الْجَسَدُ
يُسْتَقْطَرُ الْفِكْرُ مِنْ حُمَاهُ جَامِحَةً
وَفِي حُمَيَاهُ نَارُ الشَّعْرِ تَتَّقِدُ.

- ع -

أَعْرِفُ: الْعُنُقُ أَبْقَى مِنَ السَّيْفِ،

لكن،

كيف، أُنِّي

متى يتوقَّف طوفانُ

هذي القُؤُوسُ

جارفاتٍ، تجرُّ توارِيخَنَا

وتجرُّ الرُّؤُوسُ؟

- ب -

في سامِزَاءٍ، رَجُلٌ^(١) قَالَ:

أَتَى جَبْرِيلُ إِلَيَّ بِهَذَا

الْمُصْحَفِ - هَذَا

قِرَآنُ

وَأَنَا ذُو الْقَرْنَيْنِ!

ضَرْبُوهُ حَتَّى مَاتَ، وَقَالُوا:

مَجْنُونٌ! مِنْ أَيْنَ لَهُ

أَنْ يَتَحَدَّثَ مَعَ جَبْرِيلَ -

مِنْ أَيْنَ؟

* بَقِيَ الْحَبْرُ، لَكِنَّمَا الْكَلِمَاتُ امْتَحَتْ:

كَانَ يُمْلِي عَلَى لَيْلِهِ،

رِسَالَةً حُبًّا.

(١) اسمه محمود بن الفرَج
النيسابوري.

- ف -

(١) الإشارة إلى سيف
الدولة.

تلك هنريطُ تَعْنُو،
وَأَمْدُ «يَنْيَضُ بالسَّيِّ»
«خلف الفرنجة» ذَعْرُ
والمَدَى يتطاوَلُ في ناظريك^(١).
قل لجيشك: مَهْلًا،
تَرْفُقُ بِهِمْ،
مثلما عَوَّدْتَهُمْ ظُبَاكَ،
وَمُدَّ لَأَوْجَاعِهِمْ يَدِيكَ.

- ج -

أمرَ المتوَكِّل أن يلبسَ التَّصَارِي
زنانيرَ مخصوصةً
وطيَّالسةً عَسَلِيَّةً،
أن يكونَ إِزَارُ النِّسَاءِ
كذلك، من لونها عَسَلِيًّا،
أن تُعَلَّقَ من فوق أبوابِهِمْ،
صورٌ،
لشياطينَ من خشبٍ،
كي تُمَيِّزَ عن دُور جيرانِهِمْ
من المسلمين،
نَهَى أن يُعَلَّمَ أولادُهُمْ

* أَلْسَبِيَّةٌ هَذْبَاءٌ، فِي عُثْقِهَا
جَرَسٌ خَاشِعٌ، وَبَيْنَ يَدَيْهَا
وَجْهٌ أَيْقُونَةٌ.

هي «الحَدَثُ الحمراء» عهدك ساهِرٌ
عليها، وفي أحضانك الدهرُ نائمٌ
جمعتَ بها خَدَّينِ: شرقك، صاحياً
وغرباً عليه من رؤاهُ غمائمٌ
وما السرُّ في ما كتَّمتهُ جراحُها
ولكنه السرُّ الذي أنتَ عالمٌ
هوئى حاقِداً، حَقِداً مُحِبّاً، فمن تُرى
يَفِيءُ إلى المعنى، وأين التَّراجُمُ؟

في كتابيّ للمسلمين،
نَهَى أن يُعَلِّمَهُم مُسْلِمٌ،
وأن يُسْتَعانَ بِهِم في
الدَّواوين، أو يظهروا صلياً
في شعائِنهم -

أمرأ

أن تُسَوَّى قبورُهُم كُلُّها مع
الأرضِ كي لا تشابه ما عند
جيرانهم من قبورٍ.

وقال: إذا كانت الكنيسةُ

مبنيةً، حديثاً، فلا بُدَّ

من هَدمِها.

وإذا كانت الكنيسةُ في موضعٍ

واسعٍ،

فلا بُدَّ من أن تُصيرَ إلى مسجدٍ،

أو إلى ساحةٍ.

* عَطِشْتُ في الفراتِ، الضَّفافُ
تَتَبَّأُ عَمَّا سَتَحْمَلُ قافلةُ الرَّمْلِ
لِلقاعدين، وما سيكون القطافُ.

- ٨٣ -

أَمَرَ الْمُتَوَكِّلُ : لَا بُدَّ مِنْ
هَذَا قَبْرِ الْحُسَيْنِ،
وَمَا حَوْلَهُ مِنْ بَيْوتٍ .
أَمَرَ الْمُتَوَكِّلُ : لَا بُدَّ أَنْ يُحْرَثَ
الْمَكَانُ، وَلَا بُدَّ مِنْ
زَرْعِهِ،
وَمِنْ سَقْيِهِ،
وَلَا بُدَّ أَنْ يُمْنَعَ النَّاسُ مِنْ
أَنْ يَجِثُوا إِلَيْهِ .

- ق -

لَمْ يَزَلْ أَلَسٌ يَتَدَفَّقُ، أُمُوجُهُ
خَلَعَتْ ثَوْبَهَا الْقَدِيمَ، الدَّرُوبُ الَّتِي
رَافَقَتْهُ،
غَيَّرَتْ سَمْتَهَا،
وَأَرَى مَاءَهُ يَتَكَسَّرُ فِي حِيرَةٍ .
وَكَأَنَّ الضَّفَافَ الَّتِي تَحْتَوِيهِ
مَنَحَتْ صَوْتَهَا
مَنَحَتْ صَمْتَهَا
لِرُؤْيَى وَلِغَايِ
يَتَعَذَّرُ أَنْ يَتَقَرَّى مَدَاهَا سِوَى شَاعِرٍ .

* فِي أَلَسٍ قَمَرٌ، كَمْ سَالَ مَدْمَعُهُ
وَجَدَاً، وَكَمْ قَطَرَتْ مِنْ دَمْعِهِ قُبُلُ
يَحْيَا وَحِيداً بِلَا جُنْدٍ وَلَا حَرَسٍ
وَحَوْلَهُ النَّاسُ وَالْأَوْهَامُ تَفْتَتِلُ .

رُومٌ هُنَاكَ، ورومٌ هَاهُنَا^(١):

زَحَفْتُ

مِنَ الدُّمُسْتَقِ رَايَاتُ،

وَمِنْ مُضَرٍ،

تُرِيدُ غَزْوَكُ: تَمْحُو مَا عَمَرْتَ بِهِ

هَذِي الْبِلَادَ، وَلَا تُبْقِي عَلَى أَثَرٍ.

أَخَذْتَ تَضْحَكُ، لَكِنْ غَيْرَ مَكْتَرٍ

وَرَحْتَ تَعْصِفُ، لَكِنْ غَيْرَ مُفْتَخِرٍ.

- ٨٤ -

- ١ -

وجه أرمينيا غَضِبَ ودماء،-

قتلوا يوسف^(٢)،

قتلوا بعضَ مَنْ آزروه.

أمرؤا الآخرين: انزعوا ما عليكم

من ثيابٍ، وفروا

عِراء!

جُلْهِم مَاتَ بَرْدًا

في الطريق إلى بيته!

(١) إشارة إلى قول المتنبي
يخاطب سيف الدولة، في
إحدى قصائده:

«وسوى الروم، خلف ظهرك
رومٌ
فعلى أي جانبيك تميل؟»

(٢) يوسف بن محمد الذي
كان عاملاً على أرمينية.

* ذهب الموت يصطأده، فراه

نائماً في سرير امرأة:

- لَا تَخَفْ، أَيُّهَا الْمَوْتُ، نَوِّزْ

بِأَسَارِيرِنَا النِّيرَاتِ أَسَارِيرَكَ الْمَطْفَأَةَ.

- ب -

أمر المتوكل: لا بد من غزو

أرمينيا. غزاها بُعَا -

قيل جَمَعَ

من ثلاثين ألفاً، قُتِلُوا

غيرَ مَنْ بَيْعَ، أو كان سَبِيًّا.

- ج -

أمر المتوكل أن يُنزَلَ

الخِزَاعِي^(١) مِنْ صُلْبِهِ.

أن تُسَلَّمَ جُثَّتُهُ لِدَوِيهِ،

وأن تُدْفَنَا.

- ش -

مَرَّ وَجْهُ قُسْنُطِينَةٍ، وَمَرَّتْ

حَلَبٌ فِي مَرَايَا التَّعَبِ:

مَسْرُوحٌ يَدْخُلُ النَّاسُ فِيهِ

فِي تَمَاثِيلِ مَوْتَاهُمْ

فِي السَّيُوفِ الَّتِي احْتَرَقُوا

بَيْنَ أَشْفَارِهَا:

جَسَدٌ مَوْقِدٌ

جَسَدٌ حَزْمَةٌ مِنْ حَطَبٍ.

مَسْرُوحٌ: يَجْمَعُ النَّاسُ أَحْلَامَهُمْ

وَيَكْبُونُهَا

فِي جَحِيمِ اللَّهَبِ.

* يَتَشَبَّهُ لَيْلِي حِيناً بَلِيلَ الْحَجَرِ:

لَا يَرَى الشَّمْسُ إِلَّا

بِالْحِجَابِ الَّذِي يَتَرَاكُمُ فِي وَجْهِهِ

مِنْ غَبَارِ السَّفَرِ.

(١) أحمد بن نصر الخزاعي،
الذي قتله الواثق وصلبه، لأنه
رفض القول بخلق القرآن.

يا بُعَا،

ذاك إِسْحَاقُ^(٢) مولى أُمِّيَّة:

تَفْلِسُ فِي قَبْضَتِيهِ، فإلى

عَزَوْهَا.

تلك تَفْلِسُ محروقة

وأُخْرِقَ سُكَّانُهَا.

قيل: خمسون ألفاً،

وإِسْحَاقُ فارقه رأسه.

أَسْرُوا جَنَدَهُ الْهَارِبِينَ

نَهَبُوا مَا تَبَقَّى -

نَهَبُوا الْمَيْتِينَ.

ما لَكُمْ تَهْرَفُونَ

الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ رَبِّ رَحِيمٍ

في تعاليمكم،

كيف أَصْبَحَ فِي حَرْبِكُمْ حِرَاباً

وبه تَقْتُلُونَ؟

- هَيُّوا لِلْأَمِيرِ الْأَسِيرِ

مُقَاماً كَرِيماً^(١).

* غِيْمَةٌ خَلَعَتْ ثَوْبَهَا

فوق صفصافة.

أَلْمِيَاهُ الَّتِي تَتَحَدَّرُ مِنْ حَوْلِهَا

فَتَحَتْ سَاعِدَيْهَا، احْتِفَاءً.

(١) لما أسر سيف الدولة
قسطنطين ابن ملك الروم،
أكرمه، وأقام عنده مدة في
حلب، سنة ٣٤٢هـ.

(٢) إسحاق بن إسماعيل
مولى أمية في تفلis.

- ث -

إمّش، تابع مسيرك، أسرع
ليس هذا مكاناً

لكي تتوقف فيه.

هذه لحظة الرحيل،

ولحظة نيرانه الخامدة

والذين تسائل عنهم، رموهم

أمس، في حفرة واحدة.

- ٨٦ -

- أ -

بعد الآن،

لن يركب أهل الذمة إلا

حُمراً وبغالاً^(١).

لا خيل، أبداً.

- ب -

أمر المتوكل: خير

أن يتقى هذا الشاعر^(٢)

لخراسان.

خير أن يُبعد هذا البدوي

السكنى،

عن بغداد - لؤلؤة الحاضر.

* كان ذلك في يوم عيد

وشعرتُ كأنّ المصلين أعرف مني

بحالي:

جرّفتني إلى حشدهم رمالي.

(١) بأمر من الخليفة
المتوكل.

(٢) علي بن الجهم.

أهل حمص يشورون: قُتلى.
 طردوا صاحب الخراج.
 التصاري
 أزرروا الثائرين.
 قُوتلوا
 بعضهم صلبوه.
 «فتنة» مثلما وصفوها
 والذي كان رأساً لها^(١)،
 من المارقين -
 علّقوا رأسه فوق تلّ.

- خ -

نَاقَةُ الْجُوعِ وَالْقَشِّ لَا تَتَوَقَّفُ
 عَنْ جَزِيهَا فِي الْقُرَى
 يَفْتَفِيهَا وَيَكْتُبُ آثَارَهَا
 فَارِسُ
 يَعْرِفُ النَّارَ مِنْ أَيْنَ تَأْتِي،
 وَيَرَاهَا،
 وَلَكِنَّهُ لَا يُرَى.

(١) شخص يدعى
 عبد الملك بن إسحاق بن
 عمارة.

* لأراغن خُضِرْ

تتنقل بين رفوف العصافير،
 كان المطرُ
 يترنح من غبطة،
 في رؤوس الشجر.

(١) شخص اسمه عيسى بن جعفر.

جَلَسْتُ: شُرْفَةُ الْبَيْتِ أَبْهَى مَكَانٍ.

رِيَّاحُ

رَفَعْتُ ثَوْبَهَا - أَنْزَلْتُهُ عَلَى رَكْبَتَيْهَا،

بِرَفْقٍ.

كَانَ دَمْعُ سَرِيٍّ يَهِيمٌ عَلَى وَجْهِهَا

كَنْجُومٍ

لَا مَدَارَ لَهَا.

خُيِّلَ الْبَيْتُ يَطْفُو كَمِثْلِ السَّفِينَةِ

فِي هَبَاءِ الْمَدِينَةِ.

قِيلَ عَنْهُ^(١):

شَاتِمٌ لِلصَّحَابَةِ. جَاؤُوا إِلَيْهِ،

قَتَلُوهُ،

وَأَلْقَوْهُ فِي دَجَلَةٍ.

* رَمَتْ الْقَافِلَةَ

لِلسَّهْوِ وَعَقْبَانَهَا

مَا تَبَقَّى لَهَا

مِنْ رُؤُوسِ الْأَشْقَاءِ فِي حَرْبِهَا

الْعَادِلَةُ!

- ض -

أخذتنا خُطائنا إلى حوض وَرْدٍ
كانت الشمس تجلس في بابه
بين حردون ماءٍ وحردون صَخْرٍ.
لم يكن صاحب الحوض في بيته،
وبكت أمه
حينما شاهدتنا -

لم يكن ظنّها صحيحاً (لم نجئ
لنُعزّي. كُنا

نكره الموتَ والعرسَ)، لكن
أخذ الورد يقرأ أحزانه علينا، أو لعلّي أكونُ
قريباً إلى الحقّ لو قلتُ: شُبّه لي بين
صُحبي أنّي أصغي إلى الورد يقرأ أحزانه
علينا.

* لِلنّوافذ أهداب خَيْلٍ، والزّوايا
طحالبُ. كان الدّخانُ
يتصاعَدُ من كوّةٍ
والطيور تروُدُ المكانَ.

- ٨٩ -

قتل المتوكل شخصاً
كان أسلم، ثمّ تراجع
وارتدّ. لكته
استُيب: أبى
أن يعودَ لإسلامه.
ضربوا عنقه،
أخرقوه.

- ٩٠ -

حَزْبَةٌ، قِيلَ كَانَتْ

لِلنَّبِيِّ، اسْمُهَا: عَنَزَةٌ.

(قَبْلَ ذَلِكَ، كَانَتْ

لِلنَّجَاشِيِّ) صَارَتْ

فِي يَدِ الْمُتَوَكِّلِ - يَا أَيُّهَا
الْمُتَوَكِّلُ،

قُمْ وَكَبِّرْ، وَهَلِّلْ!

- ظ -

جَسَدٌ يَتَمَدَّدُ. سَيْفٌ تَجَرَّدَ مِنْ غَمْدِهِ

يَتَمَدَّدُ. نَمْلٌ عَلَى

السَّيْفِ، نَمْلٌ

حَوْلَ رَأْسِ الْقَتِيلِ:

(جَسَدٌ لَا يَزَالُ طَرِيًّا)،

غَيْرَ أَنَّ الْكَوَاسِرَ عَمَّا قَلِيلٍ،

سَتَهْجُمُ.

لَيْلٌ طَوِيلٌ طَوِيلٌ.

* فِي السَّمَاءِ ضَجِيجٌ (هَلْ تَضَجُّ
الْمَلَائِكُ؟)

وَالْغَيْمُ يَطْلُقُ أَفْرَاسَهُ.

مَرْكَبُ الْكَلِمَاتِ الَّتِي سَتَسَافِرُ،
فَجْرًا، إِلَى حَبَّهَا، جَانِحٌ.

- مَنْ أَحَبَّ إِلَيْكَ؟ هُمَا^(١)

أَمْ تُرَى حَسَنٌ وَحُسَيْنٌ؟

- قَبِيرٌ^(١) مِنْهُمَا أَفْضَلُ.

- سَوْفَ أَقْتُلُكَ الْآنَ،

يَا شَرٌّ مَنْ يُقْتَلُ.

أَمَرَ الْجَنْدَ: دُسُّوْا عَلَيَّ بَطْنِي،

وَسَلُّوْا اللِّسَانَ،

إِلَى أَنْ يَمُوتَ.

- غ -

مَاتَ أَبْنَاؤُنَا، فَلْتَمُتْ

هَذِهِ الْحَرْبُ. لَا بَأْسَ بِاللَّهِوِ، حِينًا،

وَبِآلَائِهِ،

وَلْتَعُدْ هَذِهِ السَّيُوفُ لِأَغْمَادِهَا.

لِتَمُتْ هَذِهِ الْحَرْبُ. حَوْلَ بَيُوتَاتِنَا

بَيُوتٌ لِأَطْفَالِنَا

عَمَرُوهَا وَمَاتُوا.

لِتَمُتْ هَذِهِ الْحَرْبُ - وَجْهَ الْحَقُولِ

يَتَنَوَّرُ فِي دَمْعِهِ وَفِي صِمْتِهِ

مَا تَقُولُ الْفُصُولُ وَمَا لَا تَقُولُ.

* أَرَى رَجَالًا، وَلَكِنْ لَا دُرُوبَ لَهُمْ

أَرَى دُرُوبًا وَلَكِنْ لَا رَجَالَ لَهَا، -

دَمٌّ عَلَى شُرُفَاتِ الشَّرْقِ يَنْسَكِبُ:

أَهْذِهِ أَرْضُ رُومٍ، أَمْ تُرَى حَلَبُ؟

(١) حوار بين الخليفة
المتوكل، ويعقوب بن
السكيت الإمام في العربية.
كان يعلم أولاده، وسأله يوماً
هذا السؤال عن ولديه - المعتز
والمؤيد. وقبر هو خادم علي
ابن أبي طالب.

هوامش



كَأَنَّ جَفُونِي عَلَى مَقْلَتِي
ثِيَابُ شُقُقْنَ عَلَى ثَاكِلِ .
المتنبّي

الحسين بن الضحاک

كان شاعراً خليعاً.
مات سنة ٢٥٠هـ.

الحياةُ بكاءً:

هكذا قالت الآلهة

أنا صخرة؟

أم سديمٌ بلا جنةٍ ونارٍ؟

أم بقايا هباء؟

من يقول لأعماقي الوالهة:

لم لا أستطيعُ البكاء؟

أبو الحسن البكري

توفي سنة ٢٥٠هـ. قال
فيه الذهبي: «واضع القصص
التي لم تكن قط». ونعته
بالكذاب الدجال. ترك
«الروايات» التالية: ضياء
الأنوار، رأس الغول، شر
الذهر، حصن الدولاب،
كلندجة، الحصون السبعة
وصاحبها، (هضام بن
الجحاف وحروب الإمام علي
معه)، غزوة الأحزاب، قصة
إسلام الطفيل بن عامر
الدوسي.

كان يروي الغرائب، أعطى الكلام إلى المتخيل،
والمستحيل، وفي وهمه أوغلا
وضع الأرض في قبضة الظن - كم ضاع في
الشبهات، وكم أولاً
كان بحرأ من الجبر، أمعن في الفيض،
واسترسلا
ربما كان قصاصنا الأولاً.

السَّقْطِي (سَرِي بن المغلس)

توفي سنة ٢٥٣هـ /
٨٦٧م، أساذ الجنيد وحاله .
في رأيه أن حروف القرآن
مخلوقة مكر فكره المحبة،
فالمحبون يفوقون في النعيم .
أتباع الأبياء .

عَسَقَ يرسم الشَّمْسَ فوق يديه -
يَدَاهُ على الأرضِ ظِلُّ كمثل الهلالِ
هل سَيُضْغِي إليَّ إذا قلتُ: وَجْهِي
كوجهك، يدخلُ في ليله؟
هل سيرسم وَجْهِي
بأشعةِ آفاقه؟
ولماذا، ونحن الصديقان، هذا السؤال؟

الجاحظ

مات سنة ٢٥٥هـ.

قوله،

والحياةُ التي يتقلبُ في حضنها
وتقلبُ في حضنه
شُرْفَتانِ على مُفْتَرَقِ
وَعِلاَبٌ بلا غالبِ.

كيف لي أن أوحّدَ بين المنظر والكاتبِ
وأوفقَ ما بين هذا الصباحِ، وذاك الغسقِ؟

البخاري

صاحب «الصحیح»،
مات سنة ٢٥٦هـ.

مُوقِنٌ أَنْ بَيْتاً
أفردته المدينة في حَيِّ فَقْرٍ،
يقرأ الآن، في ليله،
إِبْنُ بُرْدٍ وَأَصْحَابُهُ.

مُوقِنٌ أَنَّ هَذَا
ما تقول الأسرّة للعاشقين
عندما يطبق الحبّ أجفانه عليهم.

مُوقِنٌ أَنَّ هَذَا غَدُ الْعَالَمِينَ.

الكِندي

(أبو يوسف، يعقوب بن إسحاق)

قال يشكو إلى فكره:

لم أرَ الحبَّ إلّا

في شَذَى وَرْدَةٍ -

كان هذا كمثل الندى، عابراً.

أُتراه سيشكو إلى حبه

مَا تُشيعُ النجومُ

عن جَفَافِ الغيومِ؟

توفي سنة ٢٦٠هـ /
٨٧٣م، يُلقب بـ «فيلسوف
العرب». عاش في زمن
المأمون والمعتصم، وكان
أستاذاً لأحمد بن المعتصم.
من تلامذته: ابن الطيّب
السرّخي. يروي البيهقي أنّه
«كان يهودياً ثم أسلم»، وقال
بعضهم: كان نصرانياً. من
أقواله: «لا تنجو مما تكره،
حتى تمتنع عن كثيرٍ ممّا
تحب».

البسطامي، أبو يزيد طيفور

توفي سنة ٢٦١هـ /
٨٧٤م.

نَهَرَ للحنين، لأغواره
يتدفق من ذروات الكلام
ماحيًا، حاضيًا موته
منصتًا لبواح الألوهة
في فلات الهيام.

حنين بن إسحاق

مات سنة ٢٦٠هـ /
٨٩٣م. كان طبيباً ومترجماً.
عينه المأمون على «بيت
الحكمة». ولد سنة ١٩٤هـ /
٨٠٩م.

«مرّة، في الحياة التي لا تصدّق أقوالها،
كنت رِيحانة -

أتوسّطُ ورداً

وأجاور صَفْصافةً»:

قالت امرأةٌ كان بيني وبين أساريها

كتبُ ورسائلُ. قالت:

لم تثق بحياتي وقولي، ثم اختفت.

شَجَنِي قَوْسٌ حُبٌّ على بابها.

المُزْنِي

توفي سنة ٢٦٤هـ. قال
عنه الإمام الشافعي: «لو ناظر
الشيطان لغلبه».

لو كان الشيطانُ خصيماً
للمزني، ولو ناظره
لمضى الشيطان حسيراً، أو قُل: مغلوباً.

يا مُزْنِي
من أين أتيت؟
وثني أنت؟ وأين رأيت التور، وكيف رأيت؟
هات يديك، إليك يدي.

سهل التُّستري

مات منفيًا في البصرة،
سنة ٢٨٣هـ / ٨٩٦م. كان
أستاذ الحلاج، ويوصف بأنه
«في عداد الحكماء
المتألهين».

يَتَأَلَّهُ يَنْسَى كَمَنْ يَتَأَنَسُنْ، يَعْلُو، يُحَايِثُ

ما الْفَرْقُ؟ مَوْجٌ

وَاحِدٌ يَتَقَلَّبُ: يَنْسَى

يَتَأَلَّهُ

يَعْلُو

يُحَايِثُ: دَوْرٌ - مَدَى

إِنَّهُ صَوْتُهُ -

وَالْحَيَاةُ الْفَضَاءُ لِهَذَا الصَّدَى.

الرواية

VI

وكان أبجد قد رأى مرّة في المدينة صاد رجلاً
دائم الطواف يُدعى، كما قيل، بَيْسَر. قال: «رأيتُه
يدنو من النار يتناول بيمينه خنجراً ويشقّ صدره
يخرج كبده بيده اليسرى يحتزّ منها قطعة وهو يتكلّم
يقطّعها بالخنجر يلقيها إلى من حوله تهاوناً بالموت
ورأيتُه يَهوي في النار.»

※

وسمع أن لحاكم هذه المدينة مريدين يأتيهم
الشك فجأة في بعض الساعات وقيل: جاؤوا إليه في
ساعة شكّ، وقالوا:

«- إن كنت حاكماً صادقاً، فأظهر لنا من هذه الصخرة
ناقة، ولتكن سوداء صافية اللون.»

قام وقعدَ تمتّم أصغى أشار تحركت الصخرة
تململت بدا منها أنينٌ انصدعت بعد مخاضٍ شديدٍ
كمثل مخاض المرأة وظهرت منها ناقة سوداء صافية
اللون.»

وقيل له إِنَّ حاكم المدينة ضاد استيقظ يوماً فرأى
أسداً جاء به الصيادون في قفصٍ ووضعوه في صحن
القصر. قال أمراً:

«- اخلعوا باب القفص وأطلقوه لا يُحبس الأسد
خلعوا باب القفص خرج الأسد يزأر ويضرب الأرض
هرب الناس وأغلقوا الأبواب في وجهه وبقي الحاكم
جالساً

دنا منه الأسد مَدَّ يده إليه هَزَّه وقع الأسدُ مَيَّتاً
جاء الناس فرأوا أصابع يده قد زالت عن مواضعها
استدعى من رَدَّها كما كانت

وجلس الحاكم معهم كأَنه لم يفعل شيئاً.»

※

وكان لي صديق في هذه المدينة اسمه يارجوج
أخبرني أَنه كان لحاكمها عَمَّ اسمه دِمْنَانَة كرهه وأمرَ
بقتله

«دخل عليه في بيته سيّاف الحاكم، وكان معه في
البيت امرأة

بدأ بدمنانة فخنقه ومدّه على الفراش،

وحين أخذ الجارية ليخنقها، قالت:

- اقتلني، لكن لا تقتلني خنقاً.

خنقها وضعها مع دمنانة على الفراش أدخل يده

تحت جنبها أدخل يدها تحت جنبه،

هدم عليهما البيت^(١).

✱

وحكى يارجوج أن حاكم المدينة خاف من أخ له

على ملكه فأمر بقتله. حين رأى أخوه السيّافين

يدخلون بيته، أخذ وسادة وضعها على وجهه وصاح:

« لا تقتلونني. أنا شقيق الحاكم.

ضربه سيّاف في جبهته،

نخسه آخر في خاصرته آخر في سُرّته.

ثم ذبحوه وأخذوا رأسه إلى أخيه الحاكم. أمر

بنصب الرأس في صحن الدار على خشبة. أمر كلّ

سيّاف يقبض مكافأته أن يلعنه.

كان السيّاف يقبض المكافأة ويلعن الرأس،

والحاكم يبتسم.

✱

(١) وروى رجل في هذه

المدينة أنه رأى في نومه:

«كأنّ الناس يعرضون على الله

عزّ وجلّ. جاءت امرأة عليها

ثياب رقيقة، هبّت ريح

كشفتها. أعرّض عنها، تبارك

وتعالى، قائلاً: اذهبوا بها إلى

النار، كانت تتبرّج.

(المنامات، للحافظ أبي

الدنيا، مكتبة القرآن الكريم،

القاهرة ١٩٨٩، ص ١٤٢).

(١) وقال رجل: «مات رجل

في حيننا صاحب خمارات،

رأيت في النوم، وسألته:

- ماذا فعل بك الله؟

أجاب:

- قال لي ربي: لو لم

تكن شيخاً لعذبتك.

(المنامات، ص ١٨٦).

وقال أبجد:

«أخبرني صديقي يارجوج أن حاكم المدينة طاء
غضب مرةً على رجل. جاء به سألته:

- أنت كيكم؟

- نعم، يا مولاي.

أوماً إلى السيافين. جردوه من ثيابه، قطعوا يمينه
وضربوا بها وجهه وفعلوا مثل ذلك بيده اليسرى
ورجليه

ثم أمر سيافاً أن يدخل سيفه بين ضلعين من
أضلاع كيكم، وأمر بقطع لسانه

ثم أمر بصلب أطرافه المقطوعة إلى جوار
جسمه، على جسر المدينة.

بعد ذلك أمر أن يطاف به في جميع أنحاء المدينة،
وقد عُلق معه رأس حمار ميت، ووضع في عنقه قيدٌ
تدلى منه رقانة حديد،

ثم شُدَّ بالحبال وألقي في بئر.

※

وكان لحاكم المدينة ظاء، ثلاث عشيقَات اتفقن
على عصيانه، فقتلهن، -

(١) قال أحدهم لأبجد إن
المدينة ضاد هي مدينة
المنامات. وروى له أن رجلاً
رأى في نومه أنه مات وسيق
إلى النار. فجأة، رأى حجراً
يكبر، ويسدُّ دونه باب جهنم.
عندما أفاق من نومه، تذكر أنه
كان، حين يُصَلِّي، يجعل في
قبلته سبعة أحجار، فإذا قضى
صلاته، قال: أشهدك، أيتها
الأحجار أن لا إله إلا الله.
ولهذه الرواية أضلّ ربّما
أخذت عنه في الكتاب التالي:
(المنامات، الحافظ أبي
الدنيا، مكتبة القرآن، القاهرة
١٩٨٩، ص ١٤٢).

«أمر أن تُحَفَّرَ للأولى حفرة عميقة، يُدَلَّى رأسها فيها ويُطرح فوقه التراب وأن يبقى نصفها الأسفل ظاهراً

أمر أن تُكْتَفَ الثانية وتُقَيَّدَ ثم تحشى بالقطن أذناها وأنفها وفمها وأن تُنْفَخَ بالمنافخ حتى يصير جسمها كالجمل ثم تنزع المنافخ ويوضع مكانها القطن ثم تفصد من العرقين اللذين فوق الحاجبين حيث تخرج الروح ولها صفير.

أما الثالثة، فشرَّح بيديه لحمها، من فخذيهاء وعجيزتها، ورماه إلى مماليكه.»

✱

وثار على حاكم المدينة عين، أحد أنصاره الأشداء ويدعى سَندر. جمع حوله فئة قوية لكن الحاكم استطاع أن يطرده وينفيه. قبل ذلك أوصى سندر أنصاره قائلاً:

«- من جاءكم على صورتى، فاقتلوه. سيأتي إليكم أناسٌ يتشبهون بي لا تقبلوا ما يقولون واقتلوهم. بعد زمن استطاع سندر أن يتسلل عائداً. أخذ أنصاره يتهيأون لقتله. ولما هموا بذلك صاح قائلاً: ويحكم، أنا سندر. قالوا: أمرنا سندر بقتل من يتشبه به. قال: لكن، أنا سندر. قالوا: لا بُدَّ من قتلِكَ، وقتلوه.»

(استطرد)

هو أو يوم من أيام المدينة الأولى

ثم استطرد أبجد، ناقلاً ما سمعه عن حاكم قديم حكم المدينة الأولى، قال:

«نهض صلى الفجر جلس يصغي لقصاصه حتى فرغ من قصصه قرأ جزءاً من المصحف دخل إلى منزله أمر نهي صلى خرج إلى مجلسه أذن لخاصته حدثهم وحدثوه دخل عليه وزراؤه كلموه بما يريدونه

أذن بالغداء الأصغر تحدث طويلاً قام الحرس تقدم الضعيف الأعرابي الصبي المرأة من ليس له أحد قال: انظروا في أمورهم

جلس على السرير قال: ائذنوا للناس وفقاً لمنازلهم لا يشغلني أحد عن رد السلام يا هؤلاء: سُميتم أشرفاً لأنكم شرفتم من دونكم ارفعوا لنا حاجة من لا يصل إلينا

اقضوا حاجاتهم اخدموهم

دخل منزله صلى أربع ركعات نادى خاصة الخاصة دخل عليه وزراؤه اتاهم بالفواكه والأقراص المعجونة بالسكر واللبن جلس إلى العصر صلى العصر جلس

على سريره أذن للناس وفقاً لمنازلهم أتي بالعشاء سمر
ثلث الليل في أخبار العرب والعجم وأيامهم أتته من
نسائه غرائب الحلوى والمأكول

نام ثلث الليل قام قعد قرأ عليه غلمانة سير الملوك
أخبار الحروب والمكائد خرج صلى الفجر

استأنف ما بدأه مما وصفناه

وهذا شأنه في كل نهار وليل.

الذِّكْرَى

VI

المدينة شين

إصنع من جراحك جوقة، امنحها آلات المنفى،
وعلمها عزيف النفي. سترى آنذاك أن أسنان الوقت هي
جمهورك الأول. سترى أن الدم نهر يمر في وادي عبقر الذي
احتلته الكواكب منذ تاريخ ما، وطردت منه كل أثر للأرض.
سترى أن أكبر قاعة لاستقبال هذه الجوقة هي المدينة
شين.

✱

إنتاج رؤوس وإنتاج مقاصل، -
إيقاع هائل، لكن في محيط من الزبد:
ما أدهى غيبك، أيتها المدينة شين.

✱

كيف أفتح أفقاً لا يصدأ
عندما يلامسه هواء المدينة شين؟

✱

لماذا ترفض، أيها البحر، أن تسكن في ذاكرتي؟ لماذا
ترفضين، أنت أيضاً، أيتها الشمس؟
- «لن يكون في ذاكرتك غير الرعب»:
تجيب المدينة شين.

✱

للشرطي والزمن في المدينة شين،
عين واحدة.

✱

تفرض عليّ المدينة شين
برغبة أحرار في تفسيرها،
أن أصحاب عقارب الساعة، وأعادي الوقت.

✱

هذا الجسد المعلق على خشبة الفضاء
المنصوب على عتبة الريح، كأنه أول الموت،
ليس إلا جسد المدينة شين.

✱

قلت للمدينة شين وأكرر:
عبثاً تحاولين قتلي، -
لا يرقى إلى عنقي إلا سيفي.

✱

يعرف الإنسان في المدينة شين بأنه:
«طريدة -

غير أنه لن ينجو من الوقوع في الفخ».

✱

أينما وضعت قدميك في المدينة شين،
ينبت التعب.

✱

تاريخ المرأة في المدينة شين :
«تولد ليلاً،

وتموت عند الفجر».

※

أتريد أن تعرف الطبيعة وما وراءها؟ إذن، عليك أن
تعرف جسد المرأة وما وراءه.
لكن، لماذا في المدينة شين، يحرم على الناس مثل هذا
السؤال، وهذا الجواب؟

※

سأبني بيتاً من الحجر لعناكب الصبر، وربما الحزن، لكي
أوحي بمناخ المدينة شين.

※

لا أعرف لماذا يشبه لي القمر، أحياناً، في المدينة
شين، كأنه مزيج من الدمع والصلاة، مسكوب في إناء أبيض
له شكل القرن.

※

لم أزر المدينة شين إلا مرة واحدة (لا أقدر). مع
ذلك، لم أسافر مرةً إلا مررت فيها - خفية.
كأنني أراها، في هذه اللحظة، تبكي وتمسح دموعها
بكلماتي.

※

يحدث، غالباً، في المدينة شين، أن يكون الشحم
ورماً، والورم شحماً. (وعذراً من صديقي المتنبئ).

المدينة تاء

تقول المدينة تاء

إنها شربت رحيق التاريخ.

✽

الحلم الذي لا يفارق المدينة تاء،
هو أن تكون طابعاً بريدياً على غلاف
اسمه الكون.

✽

«دَرْبَ ظَهْرِكَ عَلَى الانحناء»:
لافتة تتكرر كثيراً على جدران المدينة تاء،
وفي شوارعها.

✽

يجلس الجمل على عصفور،
يتكئ الجبل على بنفسجة،
يمسح الماء وجهه بمنديل الغبار:
تلك هي بعض الأمثال السائرة في المدينة تاء.

✽

من كل حرف،
تخلق المدينة تاء كرسياً
من كل كلمة، تخلق بيتاً.

※

حاول أن ترى النهار في المدينة تاء،
وسوف تكتشف أنك لن ترى فيه إلا الليل.

※

«دَفَى حنجرتك بالمدح» -
يقول كتاب الهجاء الذي تفضله المدينة تاء،
والذي تحفظه في خزانة من الثلج.

※

الواقع في المدينة تاء، مناخ
شكله الحياة ومضمونه الموت.
«بعد أن فرغ الخالق من خلق العالم،
أراد أن يرتاح، فجعل من راحته
بيتاً دخل إليه ولم يخرج بعد»:
هذا ما تقوله أسطورة
تنكرها المدينة تاء، لكنها تتسامح معها.

※

«تنهد الخالق بعد خلق العالم،
ومن هذا التنهد، كانت الرياح»:
تقول أسطورة أخرى
لا تنفيها المدينة تاء ولا تثبتها.

✽

تشرب المدينة تاء المعرفة،
لكن بكأس من الورق المنقوع
في ماء الذاكرة.

✽

من أطراف كل كلمة تلفظها المدينة تاء
يتدلى قبر أو يتدلى عرس.

✽

الوردة نفسها قفص في المدينة تاء
والرغيف شرطي.

✽

أقدم وأغنى ذاكرة في المدينة تاء
هي ذاكرة السيف.

✽

فضاء المدينة تاء

سلالم لهبوط الملائكة وصعود الموتى .

✱

جدران -

ليست الأيدي هي التي تبنيتها، بل الألفاظ والأصوات :
تلك هي جدران المدينة تاء .

✱

من علمك، أيتها المدينة تاء،
السَّيرَ بقدم الهلال؟

✱

لا أعرف مكاناً يقدر أن يتسع لجنة الوقت
كمثل المكان في المدينة تاء .

✱

أيتها المدينة المرئية لغيري،
لماذا لم تعودى مرئيةً لي؟

✱

المدينة ثاء

لا تعرف الريح في المدينة ثاء،
أن تمسّط شَعَرَ الشجر.

✱

غريب أمر الناس في المدينة ثاء -
إنهم يعيشون عائمين على أطراف الأظافر.

✱

ليس للحصاة عينان وأذنان،
يد ولسان،
إلا في المدينة ثاء.

✱

تكاد الريح نفسها في المدينة ثاء،
أن تفقد شهوة الهبوب.

✱

النهار في المدينة ثاء، لجة من الدمع،
والليل سفينة غارقة.

✱

ليس القمر إلا الضوء الذي يعكسه،
أو هكذا يبدو.

لكن، لماذا عندما تنظر إليه من المدينة ثاء،
يبدو أن له مخالف تكاد أن تلامس وجهك،
ويبدو كأنه خارج لتوه من الجحيم؟

※

ينبغي أن تكون لك القدرة على التشبه بالضوء،
لكي تستطيع أن تكتب أو تتحدث
عن الظلام في المدينة ثاء.

※

أحياناً،
لكي ترى بوضوح في المدينة ثاء،
لا بد لك من أن تغمض عينيك.

※

كلا، ليست المدينة ثاء،
هي الموعودة بالجنة،
بل الجنة هي الموعودة بها.

※

تريد المدينة ثاء أن تظل شفتها
مختومتين بشفتي ملاك.

VI

ومن صَحَب الدُّنْيَا طَوِيلًا، تَقَلَّبْتُ
عَلَى عَيْنِهِ، حَتَّى يَرَى صِدْقَهَا كِذْبًا.
المتنبي

- أ -

إِذْهَبْ وَشَاهِدْ كَيْفَ تَخْتَلِطُ

النَّجُومُ هَوَى

بِأَثْدَاءِ النِّسَاءِ

إِذْهَبْ وَغَنِّ الرُّومَ

أَغْنِيَةَ الصَّدَاقَةِ وَالْإِخَاءِ -

أُغْسِلْ عَنِ الْأَرْضِ الْجِرَاحَ

وَعَنْ وُجُوهِهِمُ الدَّمَاءَ .

- ٩٢ -

ضربوه^(١) سيّاطاً،

أثقلوه حديدًا،

ورموه إلى السّجن:

يا بَخْتَشُوعَ

أين طَبُّكَ؟

لا طِبَّ عِنْدَ الْخِلَافَةِ،

إِلَّا الْخُضُوعُ!

(١) الإشارة إلى الطبيب
بختيشوع. وقيل ضُرب مئةً
وخمسين سوطاً.

* إِنْ جَنَحْتَ إِلَى شَهْوَةٍ

تَتَأَجَّجُ فِي جَانْحِيكَ

وَتَجَانِسْتُمَا

فَابْتَدِرْهَا، لَا جُنَاحَ عَلَيْكَ .

- شاعرٌ

قَادَهُ الْحَبُّ فِي كُلِّ دَرْبٍ
وَلَهَا، وَاحْتِفَاءً.

يَسْكُبُ الشَّرْقُ فِي غَرْبِهِ،
الْغَرْبُ فِي شَرْقِهِ،
وَيُوَحِّدُ فِيهِ شَتَاتَ الْوُجُودِ.

- مَا أَمْرُ الْفَوَاصِلِ بَيْنَ تَقَالِيدِهِ
وَتَجَارِيهِهِ،
مَا أَمْرُ الْحُدُودِ.

- ٩٣ -

- أ -

- كَيْفَ قَوْلُكَ^(١) فِي دَارِنَا؟

- كُلُّ دُنْيَاكَ فِيهَا.

- كَيْفَ شَرْبُكَ لِلْخَمْرِ؟

- أَعْجَزُ عَنْ شَرْبِهَا:

أَلْقَلِيلُ امْتِيهَانُ

وَالْكَثِيرُ افْتِضَاخُ.

- إِنْسَ هَذَا وَنَادِمُ.

وَمِنْ أَيْنَ أَنْتَ؟

- مِنْ الْبَصْرَةِ.

- كَيْفَ قَوْلُكَ فِيهَا؟

(١) حوار بين الخليفة
المتوكل، وأبي العيناء، (مات
سنة ٢٨٢هـ).

* أَلْشُّرُوقُ صَدِيقُ النُّخِيلِ
رَسْمَتُهُ يَدُ الشَّعْرِ تِيهًا عَلَى
عُنُقِهِ الطَّوِيلِ.

- ج -

أَخَذْتَنِي حَرَّانُ فِي صَمْتِهَا

فِي مِثَالَاتِهَا،

وَاللَّغَاتِ الَّتِي تَرَكْتُهَا الْعَصُورُ

وَرَاءَ سِتَائِهَا الْمُسْدَلَةِ.

لَا تَشْكُ الصَّحَارَى،

تؤكد من أول:

يَعشُق الصَّرْفُ والنحو كوخاً

يَحْنُ إِلَى طَلَلِ الْأَمْثَلَةِ.

- كمثل جهنم، حين تطيب،

- وماذا ترى

فِي عُيَيْدِ بْنِ يَحْيَى^(١)؟

- رَجُلٌ عَاقِلٌ

قَاسِمٌ نَفْسَهُ

بَيْنَ طَاعَةِ خَلَاقِهِ

وَعِدْمَةِ سُلْطَانِهِ.

- ب -

سوف تُمطر بغداد،

لكن دماً.

* يَعْرِفُ الرَّمْلُ أَنْ يَتَنَاثَرَ، أَنْ يَتَكَدَّسَ

فِي الْقَدَمِينَ، وَفِي الرَّأْسِ، أَوْ أَنْ
يَغْطِي

جُثَّتِ الْمَيِّتِينَ

يَعْرِفُ الرَّمْلُ أَنْ يَتَأَخَى مَعَ
الرَّاحِلِينَ.

(١) عبيد الله، الفتح بن
يحيى بن خاقان وزير
المتوكل.

قُتِلَ المَتَوَكِّلُ والْفَتْحُ^(١)، كَانَا
يَشْرَبَانِ الثَّبِيدَ، وَفِي اللَّيْلِ
مَا يُشْبِهَ الْقَمَرَ الْمُنْكَسِرَ
يَتَفَقَّتُ مِنْ فَوْقِهِمْ.
وَأَتَى الشَّارِبُونَ،
وَمَنْ يَأْكُلُونَ،
وَمَنْ يَحْرَسُونَ،
إِلَى الْمُنْتَصِرِ.
سَلِمُوا بِالْخِلَافَةِ، جَاءَ وَصِيفُ^(٢)
وَأَصْحَابُهُ،
بَايَعُوا الْمُنْتَصِرَ.

فِي سَرِيرِي عِطْرٌ

مِنْ جَنَائِنِ أَيَّامِهَا،

فِي لَهَاثِي،

صَحَبْتُ مِنْ حَنَاجِرِ أَسْوَاقِهَا.

كَيْفَ أُرْوِي لِقُسْطُنْطِينِيَّةَ حَبِي لَهَا؟

كَيْفَ أَسْكِبُ حَلْمِي

بَيْنَ أَجْفَانِهَا

وَأَفْوُضُ حَبْرِي لِأَوْرَاقِهَا؟

* يحلم أن يتحوَّلَ فِيهِ النَّبْضُ
وَيُحَوَّلَهُ
جَذْرًا بَرِّيًّا،
يَحْيَا وَيَسَافِرُ تَحْتَ الْأَرْضِ.

(١) الفتح بن خاقان وزير
المتوكل. وقتل المتوكل في
حضرة البحتري، الذي قال
في غدر المنتصر:

«أَكَانَ وَلِيَّ الْعَهْدِ أَضْمَرَ غَدْرَهُ
فَمَنْ عَجِبَ أَنْ وَلِّيَ الْعَهْدَ
غَادِرُهُ»

كان للمتوكل «أربعة
آلاف جارية وطاهن كلهن».
(المسعودي، مروج الذهب).

(٢) وصيف الخادم.

كيف أروي لأيقونة

ولهي بتجاعيدها،

بالظلال، الخطوط -

أنساياياتها، وتعاريجها؟

لا أخاف، ولن أتكتّم. قولوا

(واعدلوا في تأويلكم)

هو مِمَّن

يتمون لآفاقها

عاشقاً وصديقاً لعشاقها.

- ب -

يا أبي^(١)،

لم أجيء منك، لكن لإقاحك

أثمر من سُمِّي المنتصر

غير أنني من طينة لم تلدها

وتعجز عن أن تراها،

وأنا لا أباهي ولا أفتخر،

بل أقول اعتزلت الدروب

التي رسمتها خطاك،

ووجهت وجهي

لدروب سواها،

وقتلتك حتى أحرز

عطر البُنة

من وزدة الأبوة!

* جرس تركته الطبيعة في حضن

طفل،

أخذ الطفل يلهو به

ذلك اللهو سمّاه حُبُّ المدينة شِعْراً.

(١) الكلام بلسان المنتصر،
ال خليفة الجديد، يخاطب أباه
المتوكل. وقيل: إنه اغتيل في
سامراء بتحريض منه. وكان
المتوكل قد أمر بترك الجدل
في القرآن: لا مخلوق، ولا
غير مخلوق. وهدم قبر
الحسين كما سبقت الإشارة
سنة ٢٣٦هـ.

- ٩٥ -

- أ -

«ليس لي أي عهد

ليس لي أي عقد

في رقاب البشر.

لست أصلح من أي وجه

للخلافة،

من كان في عنقه بيعتي،

فهو حر -

حلال له نقضها.»

- و -

فك راياته وأعماله وأقواله

من سلاسل أوهامه

الخفية والمعلنة

وانحنى مُتعباً

كي يرى العالم الجريح الذي يتدلى

في فضاء المدينة

من عنق المئذنة.

* طَرَفُ الخِيط - أولُهُ في السَّمَاءِ:

تسلقنه، يا جراحى

ألملائكُ جاءت وقصت جناحي.

- ز -

لِسُمِيسَاطَ: أَنْقَاضِهَا

وَبَقَايَا أُسَاطِيرِهَا

الْوَالِهَةِ،

هُوَذَا يَشْرَبُ الْحَجَرُ

رُقْمًا وَتَمَائِيلَ، مِنْ نَشْوَةٍ.

وَكَأَنِّي أُضْغِي لِلْقِيَانِ^(١)

يَسْخَرُ فِي صَمْتِهِ

مَنْ يَقِينُ الْبَشَرِ،

وَمَنْ الْآلِهَةِ.

(١) لوقيان السُميساطي،
كاتب سوري باللغة اليونانية.

(٢) الكلام للمنتصر،
يخاطب أصدقاءه في إحدى
جلساتهم قبيل موته.

- ب -

«أصدقائي^(٢)!

رَأَيْتُ كَأَنِّي فِي النَّوْمِ،

أُضْغِي إِلَى الْمُتَوَكِّلِ،

يَصْرُخُ:

«دَبَّرْتُ قَتْلِي،

لَا تَمْتَعْتَ بَعْدِي،

بِالْخَلَافَةِ...»

- رُؤْيَا،

إِنْشَاهَا وَائْتِنَا بِالنَّبِيذِ -

النَّبِيذِ الْعَزِيزِ اللَّذِيذِ!

- ج -

قِيلَ: شَاوَرَ فِي قَتْلِهِ

فَقَهَاءً،

رَاوِيًا قُبْحَ أَفْعَالِهِ،

فَأَجَازُوا لَهُ قَتْلَهُ.

* إِنَّهَا شَهْوَةٌ عَالِيَةٍ،

وَضَعَ الْفَجْرُ كَفًّا عَلَى كَتْفِ الرِّيحِ،

وَارْتَاخَ، يَنْتَظِرُ الْحَظَّ فِي كَفِّهِ الثَّانِيَةِ.

- ح -

لا تخوم، - مسافات ظن

تتخبط فيها خطانا

وصدى راحلين حيارى

وصدى أمكنة

نزد رمل على باب تدمر

والرياح تحمل في راحتها

شمعة الأزمنة.

- ٩٦ -

- أ -

أطلقوا^(١) كل من في

السجون، لكي يذهبوا

ولكي يهدموا،

ولكي يحرقوا.

- ب -

قتل الشاعر^(٢) -

وجع الشعر طيف

على قبره دائر.

(١) الجند الذين تمردوا،
طلباً لأرزاقهم.(٢) علي بن الجهم، وقتل
قرب حلب.

* المرارات تكسو المدائن -

أقدارها وأحوالها

ما ستفعل، والموت يكتب أيامها
وأعمالها؟

في الكوفة، يظهر يَخْيَى^(٢)
يُدْبَحُ فيها.

أخذوا الرأس، وقالوا:
سَقَّوْرُهُ -

نُستخرجُ منه اللَّبْ،
العَيْنين... ولكن،
هَرَبَ الجَزَارُونَ. تجرأً
سَهْلٌ^(٣): قَوْرُهُ،
وَحِشَاهُ مِسْكَاً.

نُصِبَ الرَّأْسُ بِسَامِرَاءَ،
وفي بغداد.

ثم رموه في صندوق،
في بيت سلاح.

كنتُ، في غزواتِ الطَّفُولَةِ، أسأل
سمعان^(١) عن أولِ الدَّرْبِ،

عَمَّا تَخِيلُهُ الآخرونَ، وعَمَّا تراءى
وعَمَّا يُقالُ

وأنا الآنَ، في غمراتِ الكهولةِ، أسألُ
سمعانَ عن آخرِ الدَّرْبِ:

سَمْعَانُ يسكنُ في صمتهِ
وفي سِرِّهِ،

وأنا ساكِنٌ في السُّؤالِ.

* جَبَلٌ يَتَخَيَّلُ صَوَانَهُ نَبِيًّا،
يا نَبُو^(٢)،

كيف سَمَوَكَ سمعانُ؟ سِرِّ المَدَادِ،
ووَحي القَلَمِ
نُقِشَا خَاتَمَيْنِ على وجناتِ الصَّنَمِ.

(١) سمعان العمودي، ونَبُو
اسمٌ لجبل سمعان،
بالأشورية.

(٢) يحيى بن عمر الطالبي،
وينتهي نسبه إلى علي بن أبي
طالب.

(٣) شخص اسمه سهل
الصفدي.

- ي -

حملوه إلى بيته جريحاً

كانت امرأة (لم يُقَلْ إنها أمه

لَمْ يُقَلْ أخته)،

تَلَقَّاه في البيت، مجروحةً مثله.

أَلْتَوَافِدُ بِيضٌ تُطَلُّ على ريحها الآتية

والطيور التي ترسم الأفق بين التوافد،

بِيضٌ.

والجريحان: يَسْتَجْمَعُ اللقاء أناشيدهُ

ومراثيته بين أيديهما.

كان يَجْمَعُ ما بين وجهيهما

كوكب الهجرة الثانية.

- ب -

قتلوا عدداً

مِمَّنْ تبعوا يَحْيَى.

- ج -

سَيَظَرُ في طبرستان،

الحَسَنُ^(١)، انضَمَّ

الريّ إليه.

- د -

أهل حمصٍ يثورون:

عاملهم يُقْتَلُ.

جاء موسى^(٢) إليهم:

عاثَ حَزَقاً وقتلاً وأسراً،

وعُطِفَ^(٣) يَفَرٌ،

ولا يَسْأَلُ.

(١) الحسن بن زيد الطالبي،
وينتهي نسبه إلى علي بن أبي
طالب.

(٢) موسى بن بغا الكبير.

(٣) عطيف الكلبي، قائد
التمرد، وقد فرّ إلى البادية.

* زهرة للبكاء

تتخيّر عطر الحقول، تُضْمَخُ منديلها

وتُبَلِّلُ وجه السماء.

- ك -

- «أَلْدُمَسْتُ فِي حَلَبٍ»،

- «حَلَبٌ تَهْزَمُ الرُّومَ»: حَرْبٌ

والشَّعَائِرُ حَرْبٌ

واللُّغَاتُ حُرُوبٌ، وَلَا فَرْقَ فِيهَا.

مُسْلِمُونَ وَرُومٌ

وَلَا فَرْقَ مَا بَيْنَهُمْ.

وَالْيَمِينُ هُنَا وَالْيَسَارُ كَمَثَلِ الْيَمِينِ

هُنَاكَ وَمَثَلِ الْيَسَارِ

- أَيْنَ نَمْضِي، إِذْنُ؟

- سَبَقْتُنَا إِلَى شَمْسِ هَذَا النَّهَارِ

زَهْرَةُ الْجُلَنَارِ.

* لَسْنَا مِنْ آلَاتِ الْغَرْبِ، وَلَسْنَا

مِنْ آيَاتِ الشَّرْقِ،

نَحْنُ هُنَاكَ غَيُومٌ، وَهُنَا أَحْجَارٌ مِنْ

سَجَّيلٍ،

لَكِنْ، أَيْنَ الْفَرْقُ؟

- ٩٨ -

- أ -

قَتَلُوا بَاغِرًا^(١)،

وَالْمَوَالِي اضْطَرَابَ وَقَوْضَى.

- ب -

فَتْنَةً. حَرْبُ بَغْدَادِ ضِدَّ

الْخَلِيفَةِ - ضِدَّ الَّذِينَ

خَلَعُوا الْمُسْتَعِينَ^(٢).

- ج -

فِي سَامَرَاءَ -

هُزِمَ الْأَتْرَاكُ، وَتَلَكَ

بِغَالٍ وَجَوَالِقٍ

كَيْ تُنْقَلَ كُلُّ رُؤُوسِ

الْمَقْتُولِينَ مِنَ الْأَتْرَاكِ

إِلَى بَغْدَادِ.

(١) باغر التركي، وكان أحد قتلة المتوكل، «فَزِيدَ لَذَلِكَ فِي أَرْزَاقِهِ، وَأَقْطَعَ قَطَائِعَ».

(٢) لكي يبايعوا المعتز ابن المتوكل.

- ل -

سَيَرى هذا الجندي ذراعَ أخيه
حيث يُصَلّي.

سَيَرى

قدمين، حذاءً، وبقايا شَعْرِ
أو أسنانٍ.

سَيَرى خُوْدَةً روميّ في جهةِ القُبْلَة:

مسجد رُغْبِ

لم يَشْهَدْ أَحَدٌ قَبْلَهُ.

- د -

مَنْ جاء برأسِ تُزْكِيّ،
يُعْطى جائزةً.

- ه -

في كلِّ مكانٍ،
قَتلى،
وَنُبِواتٌ.

* ليس تاريخ آبائنا غير ألفاظنا،
نَتَلَمَّظُ إيقاعها، ونترك أبناءنا
يتمشّون في حيرةٍ
بين لفظٍ ولفظٍ.

- ٩٩ -

- ١ -

يَسْتَقِيلُ الْخَلِيفَةُ مِنْ نَفْسِهِ^(١).

بعضهم قال ذلك شعراً:

«خُلِعَ الْخِلَافَةُ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ

وَسَيُقْتَلُ التَّالِي لَهُ، أَوْ يُخْلَعُ».

- ب -

بعضهم وَصَفَ الْمُسْتَعِينَ،

وقالوا:

كان ذلك وصفاً أميناً:

«خَلِيفَةُ فِي قَفْصٍ

بَيْنَ وَصِيفٍ وَبُعَا

يَقُولُ مَا قَالَا لَهُ

كَمَا يَقُولُ الْبَيْغَا».

- م -

تلبس الشمس جَلْبَابَ وَرْدٍ

وتخرج مِنْ بَيْتِهَا،

بَيْتُهَا حِلْمٌ آخَرٌ

في مدارٍ خَفِيٍّ.

في شبابه

يتوهج جَمْرُ السَّفَرِ،

الْفَضَاءُ لَهُ مِثْلُ وَحْيٍ

والغيومُ السُّورُ.

* أحياناً يَكْتُبُ، لا يَكْتُبُ إِلَّا

كي يتزحزح نِيرُ الْأَخْطَاءِ

عن عُتْقِ الْأَشْيَاءِ.

(١) خلع المستعين ابن المعتصم، نفسه من الخلافة، وبإيعاع المعتز ابن المتوكل.

- ن -

الأسير^(١) المغطى بأوجاعه،

كيف لا تفتديه القصائد؟

ماذا يُسرّ عليّ^(٢)؟

الأسيرُ المسرَّبَلُ بالهم في سجنه

يَسْرِبَلُ حَقْدًا عليّ. صحيحٌ

لا أحبّ المدارَ الذي يتحرّكُ فيه

ويُحرّكُ أوهامه.

غيرَ أنّي أقولُ: هوَ الشعرُ يجمع ما بيننا،

وأقولُ لأعدائه:

غَرَضِي أن يعودَ من الأسرِ، هل لِعليّ

غَرَضٌ آخَرُ؟

- ج -

سُلمَ المستعينُ إلى حاجِب^(٢):

- «خذهُ، واضربه حتى

يموتَ» - ولكن

لم يُطع.

حَزَ، في لحظةٍ، رأسه،

وقالوا:

أثقلوه حِجاراً،

وألْقَوْهُ في دجلةٍ.

(١) الإشارة إلى أبي فراس
الحمداني. وعليّ هو سيف
الدولة، وكان كما قيل يتردد
في فدائه من الأسر.

(٢) اسمه سعيد بن صالح.

* كيف لي أن أخلص نفسي

من ذلك الشتات؟

آه، ما أجملَ السّجنَ، إن كان بَوَابُهُ

الْفُرَات!

- س -

هل يحقّ لِمثلي شكوى؟
ولمن أتشكى؟
عندما تقرأ الشمسُ أغوارَ نفسي،
وأقرأ أغوارها،
لا أرى أيّ فَرْقٍ
بين أطفالِ بيزنطيا
والسهول التي تتلأأُ فيها حلبُ.
إنّهُ الشعرُ كالشمسِ -
كلّ الحدودِ له شُرُفاتُ
أينما حلّ في الأرضِ، أو
أينما ذهبَ.

- د -

أَلخِلافَةُ أضحوكةُ
والبلادِ وأنحَاؤها
تتمزّقُ مِثْلَ الخِرْقِ.
أُمَّةٌ مِنْ قشورِ،
أُمَّةٌ مِنْ وَرَقِ!

* قدماي انشطارُ: خطوةٌ في الشروقِ،
خطى في الغروبِ
ربّما سأصالح ياسي، وتبّاً
للدروب، وتبّاً لابتكار الدروبِ.

بَالِسْ^(١)

- ١٠٠ -

(١) بلدة قديمة على الفرات،
كانت من مراكز تمرّد بني
كلاب على سيف الدولة.

(٢) وصيف الخادم.

(٣) طلب منه المعتز أن يخلع
نفسه من ولاية العهد، ففعل،
ثم حُبس وقُتل.

غَابَةُ مِنْ رِمَاحٍ
يَتَاكَلُ فِيهَا الْوَطَنُ.

- أ -

رَأْسُ وَصِيفٍ^(٢) حُزٌّ،

وَقَالُوا:

نَصْبُوهُ فِي تَنْوِيرٍ.

- ب -

الْمُؤَيَّدُ^(٣) فِي الْحَبْسِ، -

أُخْرِجَ مِنْ حَبْسِهِ،

مَيِّتًا.

* لُغَةٌ تَتَوَالَدُ فِيهَا، -

هِيَ فِي آنٍ

مِحْرَابُ حَرَابٍ

يَتَبَطَّنُهُ مِحْرَابُ صَلَاةٍ.

- ف -

- هل زُرتَ مَنبَجَ^(١)؟

- أُمُّهُ تَذُوِي،

وَيُسَلِّمُهَا الْعَذَابُ إِلَى الْعَذَابِ،

وَتَقُولُ سَاهِمَةً: يَمُوتُ،

«وَلَمْ يُمَتِّعْ بِالشَّبَابِ»^(١)

- هل زرتَ مَنبَجَ؟

- كَيْفَ أَحْضَنْ فِي الطَّرِيقِ تُرَابَهَا،

وَأَقُولُ مَا بَيَ لِلتُّرَابِ؟

(١) بلدة أبي فراس، وكانت
أُمُّهُ تعيش فيها. يصفها في
إحدى قصائده قائلاً:

«حيث التفتُّ، رأيت ماءً

سائحاً، ورأيت ظلاً».

وما بين المزدوجتين،
مأخوذة من قوله: «زَيْنُ
الشَّبَابِ أَبُو فِرَاسٍ، لَمْ يُمَتِّعْ
بِالشَّبَابِ».

(٢) الإشارة إلى بُغَا.

(٣) اعتراف الخليفة المعتز
بخوفه من بُغَا.

- ١٠١ -

- أ -

نُهَيْتَ دَارَهُ^(٢)،

وَتَفَرَّقَ عَنْهُ مَنْ يُوَالِيهِ.

قتلوه،

نصبوا رأسه،

أحرقوه.

- ب -

«لَا يَلْذُ لِي النَّوْمُ: لَيْلاً نَهَاراً،

فِي سِلَاحِي، خَوْفاً

مِنْ بُغَا - كُنْتُ أَخْشَى

أَنْ يَجِيءَ مِنَ الْجَوِّ، أَوْ أَنْ

يَجِيءَ مِنَ الْأَرْضِ، وَالْآنَ

طَابَتْ حَيَاتِي^(٣)».

* لَا مَفَرَّ وَلَا مَخْرَجُ

أَسْرَتُهُ

فِي شِبَاكِ مَرَارَاتِهَا مَنبَجُ.

أَوَّلُ اللَّيْلِ . مَنْ أَيْنَ تَأْتِي
شهوة النوم في أَوَّلِ اللَّيْلِ ؟ تَمْضِي
بُرْهَةً ،

أَتَغْلِبُ فِيهَا عَلَى النَّوْمِ ، لَكِنْ
بَعْدَ ذَلِكَ صَخَوٌ ،
تَعَبٌ كَاسِرٌ وَصَخَوٌ .

ولماذا

هذه الحربُ ما بين صَخَوِي وَنَوْمِي ،
فَتَاكَّةٌ ؟

* صَدَفٌ هَاتِفٌ (لَا أَشِيرُ إِلَى آلَةٍ)
لِلشَّوَاطِئِ ، لِلْمَوْجِ أَعْمَاقِ حَبٍّ ،
وَالرَّمَالِ مَرَارَاتِهَا -
صَدَفٌ هَاتِفٌ تَخِيلَ أَنَّي مَرْسَى لَهُ .

- ١٠٢ -

بعد أن خَلَعُوهُ ،

أَخَذُوهُ إِلَى الْمَهْتَدِي :

- مَا جَزَى ، يَا أَخِي ؟

- هُوَ أَمْرٌ

لَا رِضَى لِي فِيهِ ، وَلَسْتُ

لَهُ صَالِحاً ، وَهُمْ لَا

يُرِيدُونَنِي ،

وَأَجْلُكَ مِنْ بِيْعَتِي .

أَرْجِعُوهُ إِلَى سَجْنِهِ .

ضَرْبُهُ

بِالدَّبَائِيسِ ، جَزَوْهُ مِنْ

قَدَمَيْهِ ،

أَدْخَلُوهُ لِكَهْفٍ

أَطْبَقُوا بَابَهُ عَلَيْهِ .

- ١٠٣ -

- أ -

قتلوا صالح بن وصيف
حملوا رأسه فوق رمح
وطافوا به .
صرخوا : إنه جزاء الذي
خان مولاه^(١) . قالوا :
أدخلوه ، كمولاه ،
في قُزن نار .

- ب -

ضرب المهدي عُقَّة^(٢) ،
ورمى رأسه لأصحابه .

- ق -

(رسالة شفوية من شخص
شارك في الحرب العربية - الرومية)

» (. . .)

مِثْلَ جِسمي ،
تَمَزَّقَ بيني وبين المدينةِ جسم المكانِ
ولماذا أعودُ ، وعيناي ليلٌ
ويداي الرُّومانيِّ مقطوعتان ؟
رايةٌ رفَعْتُني ، رايةٌ أنْزَلْتُني :
بين ذاك الصُّعودِ وهذا التَّزولِ
ما أشقَّ الحياةَ ، ويا ويلتا لحياتي
لم يُيسِّرْ لها
أن تترنلَ إلا نشيد الأُفولِ .

* نائماً في العراءِ

يتحدّث مع كل شيءٍ ، ويَهْذي
ألحصى كلماتٍ
والتذكرُ بيتٌ مفاتيحه البُكاءُ .

(١) الإشارة إلى الخليفة
المعتز .

(٢) عنق بايكباك .

(رسالة)

(١) أحمد بن المتوكل .

(٢) بايكباك .

«إِنْ أُمْتُ، بَيْنَ أَمْوَاجِ سِيحَانٍ،
أَوْ فِي ضِفافِ قَوَيْقٍ،
فَأَنَا لَا أَرَى فَارِقًا.
السَّمَاءُ هُنَا، كَالسَّمَاءِ هُنَالِكَ،
وَالْأَرْضُ وَاحِدَةٌ لِلْكَفَنِ.
عِنْدَمَا يَطْبِقُ الْمَوْتَ عَيْنُكَ،
يَهْمَسُ فِي أُذُنِكَ:
«الْتَرَابُ هُنَا: وَهَنَاكَ - الْوَطَنُ».

- ج -

خُلِعَ المهتدي
بُويَعُ المعتمد^(١).

- د -

إِبْنُ عَمِّ لِبَايَاكْبَاكٍ^(٢)،
كَانَ أَوَّلَ مَنْ ضَرَبَ المهتدي
بَيْنَ أَوْدَاجِهِ:
شَقَّهَا،
فَارَ مِنْهَا دَمٌ، رَاحَ
يَمْتَصُّ مِنْهُ،
وَيَكْرَعُ حَتَّى ارْتَوَى.
قَالَ: يَا صَخْبَنَا،
كَانَ لِي دَمُهُ، الْيَوْمَ، خَمْرًا.

* مِنْ أَيْنَ يَجِيءُ إِلَيْكَ الْوَطَنُ؟
مِنْ أَيْنَ تَجِيءُ إِلَيْهِ؟
وَالْقَتْلُ طَرِيقٌ، وَالْقَتْلُ فِضَاءٌ، وَالْقَتْلُ
الزَّمَنُ.

«هل سأدخلُ تلك الجنانَ التي
وَعَدُونَا بها؟ هل سأخذ فيها
مَكَاني بين وَلَدَانِهَا؟ ولماذا، لم يَزُرْني
إلى الآنِ أيُّ ملاكٍ؟
مَنْ يُعَلِّمُني كيف أقرع أبوابها، وَمِنْ أيِّ بابٍ
سَأُتي إليها، وما سأقول لبوابه؟
ولباسي ما سيكونُ، وكيف سأمشي:
خِزْلِي؟ هَيْدَبِي؟
لم يَزُرْني مَلَكٌ إلى الآنِ - يَأْتِي؟ أَتَى؟
ما له غَضَبٌ يتحدَّثُ مع تُرْجَمَانٍ؟
أَمْ تراني تَوَهَّمْتُ؟ لا ذلك الملاكُ ملاكي،
ولا تَلَكُمُ الجنانُ جِنَانِي».

* ليس للشمس بيتٌ
ليس للشمس دربٌ
ليس للشمس ثوبٌ،
سوى ضوئها.

- ه -

بعضهم قال: كلا،
عَصِرَتْ خَضِيئَتَاهُ^(١)
إلى أن قَضَى.
وزوى آخرون:
جَعَلُوهُ بين لَوْحَيْنِ، شَدَّوهُمَا
بِالْجِبَالِ إلى أن قَضَى.

- و -

الْأُبْلَةُ في قَبْضَةِ الزَنْجِ:
قَتْلٌ وَحَرْقٌ
وَعِبَادَانُ تَفْتَحُ أَبْوَابَهَا
لِرَايَاتِهِمْ.

«- ماذا؟

لا ذئبٌ يَعْوِي، لا طَيْرٌ مَرٌّ، ولا حشراتٌ

تتراقص حولي .

ثَلَجٌ، ثَلَجٌ - فَبِمَنْ أَسْتَأْنِسُ،

أَوْ أَتَدَفُّ؟ مَنْ سَأْضَمَّ إِلَيَّ؟

وكيف أُعِدُّ لِمَوْتِي حَفْلَ استقبالٍ؟

لستُ حظيًّا عند أميرٍ، أو عند الناسِ،

جراحي

تُفَرِّدُ وَجْهِي عَنْهُمْ، تُفَرِّدُ حَظِّي

لا مُلْكَ لَوَجْهِي إِلَّا وَجْهِي .

سَأودِّعُ نَفْسِي، أَسْتودِعُهَا

صندوقَ رِيَّاحٍ».

- ١٠٤ -

قَتَلَ الزَّنجُ سَعِيداً^(١)،

وَالْمَنْضَمِينَ إِلَيْهِ .

زَعَمُوا:

جاءَ الزَّنجُ وَمِنْ أَسْنَانِهِمْ

تَدَلَّى

كُلُّ رُؤُوسِ الْمَقْتُولِينَ،

وَقَالُوا: اقْتَسَمَ الزَّنجُ

لَحُومَ الْقَتْلَى،

وَتَهَادَوْهَا .

* كان يرطُنُ حولي، وأنا شِبْهُ مَيِّتٍ

يُدْنِدُنْ - أَحْسَسْتُ جِسْراً،

جامعاً بيننا، عِبرَ آهَاتِنَا .

- ث -

يَنْبَغِي أَنْ تُسَافَرَ فِي أَعْيُنِ الْجُنْدِ
فِي اللَّيْلِ - تَلْتَفُّ أَعْنَاقَهُمْ

بمناديله،

لِتَرَى كَيْفَ تَمْتَرِجُ الْأَمَكْنَةُ

بتباريحهم،

بزفير الزَّمانِ،

وَحَمْحَمَةِ الْأَحْصَنَةِ.

- ١٠٥ -

- أ -

أَسِيرَ الْبَحْرَانِيِّ^(١)

صديقُ عليّ.

ورفيقُ الأيامِ الأولى،

قُطِعَتْ رِجْلَاهُ، يَدَاهُ،

وقالوا:

دَبَحُوهُ،

أَخْرِقْ بَعْدَ الذَّنَجِ،

وقالَ عليّ:

«خُوطِبْتُ بِمَوْتِ الْبَحْرَانِيِّ،

جميلُ

أَنْ تُقْتَلَ، يَا يَحْيَى:

كنتُ أَكُولاً».

(١) يحيى بن محمد
البحراني. وعليّ هو صاحب
الزنج، عليّ بن محمد.

* بِاسْمِ مَاضٍ وَآتٍ
أَكْلُوا كَيْ يُصَلُّوا، وَصَلُّوا لِكَيْ
يَأْكُلُوا
مَا الَّذِي تَفْعَلُ الصَّلَاةَ
لِتُحَرَّرَ مِنْ مَوْتِهَا - الْحَيَاةُ؟

- خ -

(١) رجل من سامراء،
مجهول الاسم.

مِثْلَ فِرْسَانِهَا،

تَتَأَبَّى الدُّخُولَ إِلَى حَلَبَاتٍ

لَا تَكُونُ خُطَاها مَفَاتِيحَها

وَأَقُولُ هُنَا مَا أَقُولُ

لَا لِشَيْءٍ

سِوَى أَنْ أَحْيِي

هَيَامَ الْخِيُولِ بِفُرْسَانِهَا،

وَأُحْيِي الْخِيُولَ.

- ب -

أَلْفُ سَوِطٍ

وَعَشْرُونَ، كَانَ جِزَاءً

لَأَبِي قُحَّعٍ^(١).

وَالْجَرِيمَةُ شَتَمُ السَّلَفِ:

إِنَّهَا عِبْرَةٌ لِلْخَلْفِ!

* عَبَقَ الزَّهْرُ ثَوْبُ

يُجَرَّرُ أَذْيَالُهُ الْهَوَاءَ

فِي رِوَاقِ الْفَضَاءِ.

كلّ ليلٍ،

أقول لنفسي: خُذيني وسيري

في الجهات الخفية من جسد الشيء،

من هذه الصور الزائلات،

وأصرخ: واحيرتي! علّمني

علّمي كلماتي، يدَيّ

كيف أكتب هذا الخفاء الذي يتحارب

في حلب وقسطنطينة،

ويروح ويأتي، ويعلو ويهوي

ويرين على كاهلي؟

- ١٠٦ -

قال نبي الزنج^(١): صراطي

لا بيض،

لا سودان -

الثورة ميثاق الأشياء

والفاسق من لا يؤمن

أنّ السودان كمثل

البيض،

سواء.

* لا تضايقُ

سَفَرَ العِطَرِ من كُمِّهِ

إلى حَقْلِهِ.

(١) علي بن محمد، الذي
قاد ثورة الزنج من بداياتها
سنة ٢٥٥هـ، حتى نهايتها،
سنة ٢٧٠هـ. هكذا استمرت
أربع عشرة سنة وأربعة أشهر،
وسنة أيام.

- ض -

نقطة من دم، -

أُتْرَاهُ الْحِصَانُ الَّذِي كَانَ يُومِي
فِي مَا يُحْشَرُجُ، أَمْ ذَلِكَ الْفَارِسُ؟

لَا تَسَلْ.

لَمْ أَجِءْ كِي أَشَاهِدَ قَبْرًا وَلَا جُثَّةً،

لَمْ أَجِءْ كِي أَذْكَرَ نَفْسِي

بَنِيرَانِهَا وَأَحْوَالِهَا،

لَمْ أَجِءْ كِي أَقُولَ: الْبِلَادُ صَلَاةٌ لِسَجَانِهَا

وَسَجُودٌ لِأَغْلَالِهَا.

لَا تَسَلْ،

لَنْ أَجِيكَ، يَا أَيُّهَا الْحَارِسُ.

*

قَالَ نَبِيُّ الزَّنَجِ أَتْنِي

سُورٌ

غَابَتْ عَنِّي -

كَانَتْ تَجْرِي

فَوْقَ لِسَانِي مَاءٌ عَذْبًا،

مِنْهَا سَبْحَانُ،

وَمِنْهَا الْكَهْفُ وَصَادُ.

*

ضِيقُ بِسْوَءِ الطَّاعَةِ،

لَكِنْ

أَبْنُ، وَأَتَى امْضِي؟

* لَا يَرِيدُ الصَّحَارَى، يَرِيدُ الطَّرِيقَ
إِلَيْهَا

لَا يَرِيدُ الطَّرِيقَ إِلَيْهَا،

لَا يَرِيدُ سِوَى بُعْدِهَا وَسِوَى صَمْتِهَا.

- ظ -

لا أريدُ من الرّوم شيئاً

لا أريد سواها -

طفلةً في الطّريق

لا أريد سوى جرحها

لا أريدُ من الجرح إلاّ

أن أمّر كفي عليه

وأبْلِسِمَ أوجاعه

لا أريد سوى أن أقول: الحريقُ

الذي يتأجج في جرحها،

حريقي .

*

هوذا غيمٌ

يأتي ويظللني .

رعدٌ، صَوْتُ من أغوار

الرّغد، يخاطبني:

سِرْ لِلْبَصْرَةِ!

ما أكرم سيري،

ما أكرم هذي الفكرة!

*

جَبَلٌ سُمِّيَ بالشَّيْطَانِ،

ولا يَسْكُنُهُ

إِلَّا شَيْطَانٌ -

فيه، كان مقامي، وَاخْذِي

والصّحراء ليجندي .

* في فم الأرض سَمٌّ غريبٌ

يجرُّ الهواء

بيدِ تبرّكٍ باللّه والأنبياء .

(١) هو يحيى بن محمد الأزرق، ويُعرف بالبحراني وقد سبقت الإشارة إليه، وإلى مقتله.

(٢) اسمه سليمان بن جامع.

«لا أريد الصعود إلى جنة شهيداً:

لا لِحورية، شهواتي

بل إلى امرأة أتشوق أعضائها

أتلمس أعضائها

مثلما أتلمس طيناً.

فأنا عاشق لطين نَماني،

ويعزّ على فطرتي

أن يضيع المنى العزيز الرّواء

في سرير السّماء».

✱

هوذا،

بين الأعراب، يقلبُ

أوراق الصّحراء،

مَعهُ مَوْلى^(١)

مِنْ أَهْلِ الْأَخْساءِ.

مَعهُ مَوْلى آخَرُ^(٢)

قَادَ الْجَيْشَ

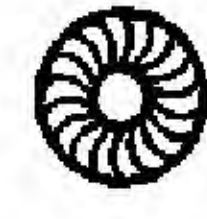
لِدُخْرِ الْأَعْدَاءِ.

✱ زهرة طافية

فوق ماءٍ: لها حين تنأى جسدٌ باذخٌ

ولها حين تدنو قدمٌ حافية.

هوامش



وَمَنْ يَكُ ذَا فَمِ مُرٌّ مَرِيضٍ
يَجِدُ مُرًّا بِهِ الْمَاءُ الزُّلَالًا.

المتنبي

ابن الرومي

هو أبو الحسن علي بن
العباس بن جريج . مات سنة
٢٨٣هـ .

بهدوءٍ، بِرْفَقٍ

أَخَذَ الضَّوْءَ فَرشَاتَهُ

أَخَذَ الضَّوْءَ يرسم في الحقل قَبْرًا

بحروفٍ من العشب، حول الحروفِ

زهوَرٌ: لَيْلَكَ

وورودٌ

وفي آخر الحقل بَيْتٌ

يتمايل حزناً كعبادِ شمسٍ .

أَيُّهَا الضَّوْءُ، من أين تعرفُ أَنَّ الذي يسكن

القبرَ، حُبٌّ؟

البحثري

مات سنة ٢٨٣هـ.

سكبت وردةً عطرَها

في يد الرّيح - تفرع باب المساء

لملاقاته .

فوض الشاعر المنور للرّيح أوراقه -

لم يقل : كيف ؟ لم يتساءل

لم يشأ أن يعكّر هذا اللقاء .

أحمد بن الطيب السرخسي

توفي سنة ٢٨٦هـ.
فيلسوف قرأ على الكندي.
قيل: قتله المعتضد لأنه دعاه
إلى الإلحاد. وكان مستشاراً
عنده. ترك مؤلفات عديدة
بينها: المسالك والممالك،
كتاب السياسة، كتاب
الموسيقى الكبير، كتاب
الشاكين وطريق اعتقادهم،
كتاب النفس، وصف مذهب
الصابئين، كتاب أنولوطيقا،
كتاب قاطيغورياس، كتاب
الأرتماطيقى والجبر
والمقابلة، المدخل إلى
صناعة النجوم، القيان، اللهو
والملاهي.

وقيل: اخترع أبجدية
صوتية في أربعين حرفاً لكي
تؤدّي بالعربية أصوات اللغات
الأجنبية، المعروفة في عصره
(الفارسية، السريانية،
اليونانية).

اسألوا السيّد الخليفة:

هل كان يعقل؟

هل كان يعرف ماذا يقول اسمه؟

واسألوه:

ما الذي كان يهرّف عن دينه علمه؟

ولماذا،

إن يكن قرشياً ومن ورثاء النبي

قتل السرخسي؟

إسحق الأحمر

توفي سنة ٢٨٦هـ.

كوفي - زعموا

أن له أوراقاً

سمّاها بعض القراء كتاباً

فيه زندقة، وثنوا: فيه قرمطة.

ورَوَوْا: كان له أصحاب

سمّوهم إسحاقية

كانت لهم في ليل علي

صور ومعان

لا تفصح عنها

إلا رؤيا لاهوتية.

ابن القط، أحمد بن معاوية

توفي سنة ٢٨٨هـ. من
بيت الخلافة الأموي في
الأندلس. كان عالماً بالهيئة
والنجوم. ثار وهاجم جليقية
Calice، ودعا أهلها إلى
الإسلام. خذله من معه. قُتل
ونصب رأسه على باب
سمورة.

لا النجوم ولا هيئة الفلك

نصرتك، استعنت بما لا يعين

ومن لا يعين. لماذا

خنت أبهى وأقرب عون

لما كُتته - مقولك؟

وأرى رأسك الآن يعلو ويصرخ:

ها، هيت لك

أيهذا الفلك.

ثابت بن قرّة

في الأخبار أنّ له نحواً
من مئة وخمسين كتاباً في
الطب والفلسفة والعلوم
والهندسة والموسيقى، وأنه
كان يحسن أكثر اللّغات
الشائعة في عصره. توفي سنة
٢٨٨هـ - ٩٠١م. كان طبيباً
وفيلسوفاً ورياضياً.

كان بين العلوم وما بينه جسورٌ

تَصِلُ النَّارَ بالسَّحَابِ

وبالبدعة الصّلاة،

أل هذا،

كان يؤوي العناصرَ في أصغرِهِ

ويعرف أسرارَ كلِّ اللّغات؟

أبو علي نطّاحة

توفي سنة ٢٩٠هـ. من
الكتاب المترسلين. مات
قتلاً. له «صفة النفس»، وهي
مجموعة رسائل من ألف
ورقة، كما يقال، وله «طبقات
الكتاب».

«صِفَةُ النَّفْسِ» تَبْكِيكَ وَ «الطَّبَقَاتُ»، وَلَكِنْ
لَا الرِّسَائِلُ نَطَّاحَةٌ، لَا الْكَلَامُ رِمَاحُ
وَالسِّيُوفُ الَّتِي تَقْطَعُ الرِّقَابُ
تَتَرَبَّصُ فِي شَرَفَاتِ الْكِتَابِ.

هل تقول لمن سوف يخلف ذاك الشرار الذي قدحته
خُطَاكَ: اعتبرْ، واتَّعِظْ؟

هل تقول لأوراقك ارسميني
أثراً من جراحِ
رَقْشٍ عَشَبٍ عَلَى جَسَدٍ مِنْ تَرَابٍ؟

ابن وحشية

توفي سنة ٢٩١هـ.
كلداني أو نبطي، عالم
بالكيمياء، ينسب إليه
الاشتغال بالسحر والشعوذة،
وينعت بالصوفي. من كتبه:
ترجمة كتاب الفلاحة النبطية،
شوق المستهام في معرفة
رموز الأعلام.

أيها العالم السّاحرُ المستهامُ
ما الذي قالت الكيمياءُ، ترى كان عقلك في وجهةٍ،
وقلبك في وجهةٍ -

حين أوغلتَ فيها؟ ولمَ السّحرُ؟ شغوذتَ -
قالوا. وتصوّفتَ: قالوا،

وخلطتَ الكلامَ
بتخاييلك -

اصدقِ القولَ:

من أين يأتي إلى الناسِ هذا الظلامُ؟

ابن المعتز

قتل سنة ٢٩٦هـ.

وَلَهُ فِي يَنْقَضُ يَشْطَحُ

حَتَّى كَانَ عُرُوقِي لَهُ مُنْجَدَرُ

وَلَهُ - أَتَعْلَمُ فِيهِ

كَيْفَ تَحْيَا سِوَاءَ

لِغَتِي وَتَبَارِيحُهَا

وَالْحَقُولُ، وَهَذِي الْغَيُومُ، وَتِلْكَ السَّمَاءُ،

وَهَذَا الشَّجَرُ.

ابن الراوندي

قتل صلباً سنة ٢٩٨هـ -
٩١٠م. قيل: ترك مئة وأربعة
عشر كتاباً لم يصل شيء
منها. بقيت أسماء بعضها:
الدامغ للقرآن، التاج، فضيحة
المعتزلة، الزمردة، نعت
الحكمة، قضيب الذهب.

قال ابن الأثير في
حوادث سنة ٢٩٨هـ: «مات
في هذه السنة أحمد بن
يحيى بن إسحاق أبو الحسين
البغدادي المعروف بابن
الراوندي الماجن، المنسوب
إلى الهزل والزندقة، كان أبوه
يهودياً فأسلم هو. فكانت
اليهود تقول للمسلمين:
«احذروا أن يفسد عليكم هذا
كتابكم، كما أفسد أبوه علينا
كتابنا». صنف كتباً كثيرة في
الزندقة، منها: بعث الحكمة
في تقوية القول بالاثنتين،
وكتاب الدامغ للقرآن، وكتاب
الزمردة، والتاج والفريد.
وأمره في الزندقة والمخرقة
أشهر من أن يذكر. عليه
اللعنة والخزي».

- ١ -

وصفوه: «غاية في الذكاء»

قدّم الكون - لا صانع، لا نبوة: بعض
من مقالاته.

كان يطعن مستهزئاً

بالشرائع والأنبياء.

- ٢ -

قال يوماً لإحدى مریداته:

«بعض روعي يحيا

في كتاب، وبعض

في كتاب، وبعض

في مكان غريب لا طريق له.

هل أصدق وهمي

أم أقول: بلى، لست حياً

ولا أتحرك إلا بجسمي؟».

VII

وما تَسَعُ الأَزْمَانُ
عِلْمِي بِأَمْرِهَا . . .

المتنبي

مِنْ أَيْنَ، كَيْفَ تَمْشَتْ فِي دَمِي حَلْبُ؟
 سَقَيْتَهَا لَغْتِي، حَتَّى إِذَا سَكِرَتْ
 تَمَرَّدَتْ، وَسَبَّاهَا سُكْرُهَا الْعَجَبُ
 هَلْ جِئْتُهَا لِأَرَى نَفْسِي، كَمَا فُطِرْتُ
 أَمْ جِئْتُ أَوْغَلَ فِي نَفْسِي، وَأَغْتَرِبُ؟
 لِقَامَةِ الشَّعْرِ تَزْهُونِي وَتَلْبَسُنِي
 خَلَعْتُ ثَوْبِي: لَيْلُ الْكُونِ مُؤْتَلِقُ
 بِمَا أَبُوحُ، وَعَطَرَ الْخَلْقِ مُنْسَكِبُ.
 أَخِيْتُ فِي كَيْمِيَاءِ الشَّعْرِ أَخِيلَتِي
 حَتَّى تَمَازَجَ فِي الرُّومِ وَالْعَرَبِ
 لَا نَارَ فِيَّ إِذَا لَمْ تَشْتَعِلْ مَطْرًا
 لَا مَاءَ فِيَّ إِذَا لَمْ يُجْرِهِ اللَّهَبُ،
 مِنْ أَيْنَ، كَيْفَ تَمْشَتْ فِي دَمِي حَلْبُ؟

*
 هُوَذَا^(١) فِي الْبَضْرَةِ،
 كَانَ النَّاسُ سُكَارَى
 بَطْرًا، أَوْ كَانُوا
 يُخْتَضِرُونَ هَوَانًا.

حَزَّكَ فِيهِمْ جَمْرَ الرَّفْضِ، -
 دَعَا الشَّبَانَ (وَكُنْ يُقَالُ لَهُمْ:
 غُلْمَانٌ). كَثُرُوا،
 قَامَ خَطِيبًا فِيهِمْ:
 «سَبَدُلُ هَذِي الْحَالِ
 وَيَكُونُ لَكُمْ
 مَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ -
 أَرْضًا، أَوْ مَالًا».

* أَوَّلُوا أَنَّهُ
 لَا يَقُولُ بِمَا قَالَهُ الْأَنْبِيَاءُ
 أَوَّلُوا أَنَّهُ
 يَتَهَيَّأُ كَيْ يُصْلِحَ السَّمَاءُ.

- ب -

أُذِرْكَ الْآنَ أَنِّي فِي حَيْرَةٍ فِي عَذَابٍ :
 لَا أَرَى مَا يَمَيِّزُ هَذَا الْحَجَرُ
 عَنْ بَوَارِقَ خَلَابِيَّةٍ .

أُسْمِي

وَأَقْعًا مَا أَرَى ، أَمْ خِيَالًا؟

أَمْ أَقُولُ : النَّظَرُ

هُوَ طَوْرًا تَرَابٌ ، وَطَوْرًا

سَرَابٌ؟

كَادَ أَنْ يَصْرَخَ التَّرَابُ : انفِجِرْ ، أَيُّهَا الْمَاءُ ،

لَمْ يَتَّقَ غَيْرَ الْخَرَابِ .

*

فِي عَسْكَرِهِ ،

قَالَ لِكُلِّ مَوَالِيهِمْ :

«أَسْرَفْتُمْ فِي قَهْرٍ

الْغُلَامِ ، وَلَوْ لَمْ يَشْفَعْ

أَصْحَابِي فِيكُمْ ،

لَقَتَلْتُكُمْ .

هَيَّا ، انْطَلِقُوا ،

لَكِنْ ،

إِيَّاكُمْ أَنْ تَزُورُوا

شَيْئًا مِمَّا شَاهَدْتُمْ

عِنْدِي .

* رُبَّمَا ،

لَمْ يَعِدْ أَيُّ مَعْنَى لِرَأْسِكَ ، إِلَّا

أَنْ يَكُونَ مُرُوقًا .

- ج -

(١) رسول الموالى إلى قائد
الزنج.

حَضَنْتُ عَضْرِي - أطويه وأنشره
أخطه وأغنيه، وأزّجّل
أزور أرض صباباتي، أطوفُ بها
أقيم، أنقض ما أبني، وأزّجّل
منوراً بدمي، مستنيراً ولهي
كأنني برحيقٍ ساحرٍ ثملُ،
طوفانُ حبيّ ميثاقي، فلا قلّقي
يَبْلَى، ولا جرحي الخلاق يندملُ.

*

قال رُمَيْسٌ^(١):

- «غلمانُ أُنّاقُ،

وغداً يمضون، فلا يُتَّقونَ

عليك، ولا يُبقونَ علينا.

لا تأخذهم، خذ مالا».

- «للعبد الحقُّ بضرب

المولى»، قال، وأكمل:

«قوموا، وليضرب كلُّ

مولاةً بجريد النخل،

لكم أن تختاروا فيهم

ما شئتم -

إلا القتل».

* يا هذا الفِطْنُ، الجَوَابُ، الحَذِرُ
الْتَمَلُ،
قُلْ لي، علّمني
كيف تُدْخِرُ قرصَ الشَّمْسِ،
وكيف تسوسُ الرَّمْلُ؟

أَلْتَحِيَّةُ مِنْ أَوَّلِ

لِلسَّوَادِ لِأَهْلِ السَّوَادِ لِهَذَا النَّهَارِ
الَّذِي بَدَأَ الْآنَ يَسْوَدُّ فِيَّ /
عَرَفْتُ السَّوَادَ الَّذِي يَتَحَدَّرُ مِنْ جَسَدِ
الشَّمْسِ، حِينًا، وَمِنْ جَسَدِ اللَّيْلِ،
حِينًا،
وَأَعْرِفُ جِنْسَ الثَّقُوبِ الَّتِي فِيهِ، أَعْرِفُ
مَا تُخْبِيءُ الثَّقُوبُ / السَّوَادُ مَدَانَا
وَالسَّوَادُ مَوَائِقُنَا وَهَوَانَا.

*

يَوْمَ الْفِطْرِ،
هَبَّ الزَّنَجَ جَمِيعًا، وَانْضَمُّوا
مُنْقَادِينَ إِلَيْهِ فِي مِثْلِ السَّحَرِ.
حَيَاهُمْ،
وَدَعَا لِصَلَاةِ الْفِطْرِ، وَصَلَّى
صَلَّوْا، قَامَ خُطْبِيًّا
فِيهِمْ.

أُنْكَرَ مَا كَانُوا فِيهِ

مِنْ سُوءِ الْحَالِ، وَأَقْسَمَ
أَنْ يُنْقِذَهُمْ،
وَيَمْلِكَهُمْ -
أَمْوَالًا وَيُيَوِّنَا.

* أَلْحَقُولُ الْأَزَقَّةُ مِنْ وَقَعِ أَقْدَامِنَا
تَجْفَلُ، -
أَتُرَاهَا أَعَاصِيرُنَا
بَدَأَتْ تُقْبِلُ؟

أَتَيْقُنُ : هذا دُواري

ليس لي مِن مكانٍ .
حَلَبُ تَتَضَاءُلُ ، والأَرْضُ
ضاقَتْ .

سَأَفَوِّضُ أَمْرِي لِعَفْوِ الْفَضَاءِ
سَأَقُولُ لِنَفْسِي : كوني
كُرَّةً ، والبَسِينِي
واهْبِطِي واضْعِدِي
في الظُّنُونِ على دَرَجِ الكِيمِيَاءِ .

*

قال نبي الزنج :
انسأل الجبرُّ الأسودُ
فوق صحائفِ هذا
العالمِ :
ليس هناك بياضُ
إن لم يَلْقَحه
ألقَ زنجي .

* هو هذا دَمُ اللآنهايةِ
دافقاً - تعجبونَ؟ رويداً
بعدُ، لم يُولدِ الكلامُ، ولم
تبدأ الحكايةُ .

حَلَبٌ -

كيف أَفْفوكِ، أَرَى زَهْرِي فِي حَوْضِكِ
أَشْجَارَ لِقَاحَاتِكِ، وَالطَّلَعُ كَمَا
كَانَ، وَلَا يَجْمَعُنَا الْآنَ سِوَى
جَمْرِ الشَّتَاتِ؟

هَذَا أَشْعَلُ قَنْدِيلَ ظَنُونِي
هَذَا أَقْرُوكِ الْآنَ، وَأَسْتَقْرِيءُ مَا
كُنْتُ
وَأَسْتَطْلِعُ أَغْوَارِكِ فِي كُلِّ
الْجِهَاتِ...

* نَمْلَةٌ خَيَّمَتْ

فَوْقَ رَأْسِ الْجَبَلِ،
تَتَسَاءَلُ: مِنْ أَيْنَ تَوْتِي السَّمَاءُ،
وَمَا سَيَكُونُ الْعَمَلُ؟

*

كَانَ الْجَيْشُ بَدُونِ سِلَاحٍ.
بَدَأُوا بِثَلَاثَةِ أَشْيَافٍ:
سَيْفِ عَلِيٍّ،
سَيْفِ ابْنِ أَبَانَ،
سَيْفِ مُحَمَّدٍ.
كَانَ النَّصْرُ حَلِيفًا لَهُمْ
فِي أَوَّلِ حَرْبٍ خَاضُوهَا.

غَنَمُوا أَمْوَالًا وَسِلَاحًا
قَتَلُوا أَعْدَاءَهُ. قَالُوا:
«حُمِلَتْ كُلُّ رُؤُوسِ الْمَقْتُولِينَ
فَوْقَ بَغَالِ الْمَهْزُومِينَ».

قَصُرُ من الرِّيحِ يَطْوِينِي وينشرني، -
 لم يَزُوْ من حَلَبِ ظَنِّي، ولستُ بلا
 شَكٍّ يُلِحُّ، وما ضاقتُ بها سُبُلِي.

وها أنا بين أَيْامِي وأَخِيلَتِي
 مُبَعَثَرٌ بِطَرٍّ هَشٍّ وَبِي شَغَفٌ
 يطوفُ يَبْحَثُ مجرُوفاً بلهفتهِ
 كأنه يَقْنِصُ التَّارِيخَ في حَجَرٍ
 يَنَامُ في الرَّمْلِ، أو في راحتي طَلَلٍ.

*

قال نبي الزنج:
 الرغبة في الأشياء
 دَمُ الأشياء.

* واضحٌ مُبَهَمٌ، لا يَبُوحُ ولا يَكْتُمُ:
 شَبَّخَ للكلام، لأخرف وَضَلِ
 وَفَضَلَ،
 على وجهه يُرْسَمُ.

الآن، كلانا

يشكو ظلم الآخر، يشكو
بعد الآخر عنه.

يسأل كل منا:

كيف، لماذا لا نتساوى؟

من أين سنبدأ؟ مني؟ حسناً
لا أملك إلا الجرح فخذهُ

كي نتقارب، كي نتساوى.

وأدلك: حدق، هذي طريقي

أكداس غيوب ومرارات
هل تسلكها

كي نتلاقى، كي نتقارب، كي نتساوى؟

أتراني إن أعطيتك ملكي هذا

نتباعد، أم نتقارب، أم نتساوى؟

* الضياء الذي حملته إلى الشارع

الشمس: بعض

أخذته المفارق، بعض

أخذته الزوايا.

بقي العابرون يسرون في ليلهم.

*

فوضى - خاف السودان

أن يرجعهم لمواليهم.

جاء إليهم، طمأنهم.

قال: «اثتوني، وأحيطوني،

ليكن حولي منكم جمع

وليفتك بي،

إن أحسنتم مني غدراً.

لم أخرج أبداً لحطام

أو عرض من أعراض الدنيا.

لم أخرج إلا غضباً لله،

ولما يملأ هذي الأرض

فساداً».

(١) الكلام لقائد الزنج.
والقرية تدعى الجعفرية، على
نهر دجلة.

هذا زمانني؟ لا، لا شيء يربطني
بحبله، لا مقالات ولا كتب
مدّ الفرات يديه، ضارِعاً لِغَدٍ
يرجّه، وبكت أنفاسها حلب
لم يَبْقَ مُتَسَعِّ لِّلَّيْلِ فِي جَسَدِي
كَأَنَّهُ غَابَةٌ سَوْدَاءُ تَلْتَهَبُ
تركت شِعْرِي فِي جِرْدَاءٍ قَاحِلَةٍ
يَسْرِي، وَرَاحِلَتَاهُ الرِّفْضُ وَالْغَضَبُ
لِي مِنْ دُجَاهُ كَشُوفٌ تَسْتَضِيءُ بِهَا
أَفْلَاكُ نَفْسِي، وَلِي مِنْ نُورِهِ حَجَبٌ.

«لا تتهبوا»^(١) شيئاً
من هذي القرية،
لا تَسْبُوا أَحَدًا.
مَنْ يَفْعَلْ،
يُقْتَلْ».

* بين أفراحه ينام،
وفي حزنه يستفيق
هو كالأرض: جسمٌ يظلّ جديداً
وجرحٌ عتيق.

- ي -

لا أريدُ طمأنينةً، بل أريدُ الترنحَ
 في طرفِ الخيطِ،
 في آخرِ الأفقِ، أو بين
 مهوى ومهوى.
 هكذا عشتُ حربي - حربي
 لم تكن خارجاً،
 مع الآخر الصديق، أو القاتلِ،
 حربي في داخلي.

*

كان لعلِّي أصحابُ
 ينضمون إليهِ في
 عزلته،
 يتساقون الخمرَ،
 وكانت
 جلاً في عسكره.

* لم يَجِئْهُ من العيش إلا التقلبُ
 في تيه جرح وداء،
 لم يَجِئْهُ من التيه إلا فضاء يقودُ
 الفضاء.

- ك -

(١) من قريتي القادسية
والشيفيا، لأنهما لم تُسلما له
قاتل أحد أصحابه، كما ذكر
الطبري.

من زمان، وتعرف عني هذا،

أتشهى الرحيل

أيها الفارس المتردد في داخلي، يا دمي.

هوذا أنت، في ذروات الترحل - عينك،

صدرك، أحشاؤك الوديعه

محروقة،

والجراح التي مزقتك يناعيها.

كان يُغريك هذا الدخول إلى كل ما لا يُطاق

وها أنتما الآن في وحدة:

أنت والمستحيل.

*

قال نبي الزنج:

العالم - هذا العالم،

عهد

مع طغيان عاهد عرشاً،

وأنا من هذا العهد براء.

*

أول سني^(١):

غلمان،

مال وجلي،

ذهب

ونساء.

* أعاره الليل عينيه، وأسلمه

خيط الرؤى لفضاء الحلم والصُّور

لم يقرأ الأرض إلا وهي حانية

على الرماد، ولم يكتب سوى

الشر.

كَبُرَتْ خَطَوَاتِي
وَدُرُوبِي صَغُرَتْ:

أَيْنَ أَوْجَهَ وَجْهِي؟
مِثْلِي ذَاكَ الْجَبَلُ الضَّخْمُ: لَهُ آفَاقٌ
وَلَهُ ذُرُواتٌ.

كَيْفَ اسْتَقْصَى أَسْرَارِي
وَتَغْلَغَلَ فِيهَا،
وَاسْتَسَخَّ هَمِّي،
كَيْفَ تَمَاهَى مَعَ أَحْلَامِي؟

*

حَرَمَ شَرْبَ الْخَمْرِ، لِئَلَّا
يُشْغَلَ مَنْ كَانُوا مَعَهُ
بِحُرُوبٍ أُخْرَى
فِي مَا بَيْنَهُمْ.

*

أَسْرَى،
وَرُؤُوسٌ قُطِعَتْ.

* تَعَبْتُ قَدَمًا نَهْرٍ قَوِيْقٍ. لَنْ يَشْفَى
بَعْدَ الْآنِ. قَوِيْقٌ شَيْخُ نَبَاتٍ، طِفْلٌ
حَقُولٍ،
لَمْ يَحْمِلْ غَيْرَ صَفَاءِ الْمَاءِ،
مَنْ أَيْنَ أَتَاهُ ذَاكَ الدَّاءُ؟

أتهجى البلاد:

اليمين الشمال وراء الأمام

أتهجى العلو، الأسافل -

ما كان من كلمات

وما لم يكن.

وأنادي، وأصغي، وأشعر أتي

مؤثق بخطاي، كأني أنادي

غيابي، وأنادي الظلام.

*

سفن:

بعض الحجاج، وتجار.

قالوا: لسنا

من أصحاب السلطان،

فأطلق كل منهم.

*

قال نبي الزنج: أفيقوا،

هذي الأرض قطاف

والريخ رخاء.

* أقول: أفرغني دمي مني،

ومزقني ستاري؟

حلب تئن معي - تحل إزارها

بيدي، وتدخل في إزاري.

عَالَمٌ - مَشْهَدٌ

- ن -

*

نَهْرُ شَيْطَانٍ^(١)

ضَلَّلَنِي عَنْ صَنْحِي

ضَلَّلَهُمْ عَنِّي .

أَمْشِي - فِي رِجْلِي نَعْلٌ

سِنْدِي

وَعِمَامَتِي انْحَلَّتْ .

أَمْشِي - قَصَزْتُ . تَحِيرُ

صَنْحِي مِنْ فَقْدِي .

سَكَنُوا حِينَ رَأَوْنِي .

أَخَذَ الْبُضْرِيُّونَ مَتَاعاً

مِنِّْي :

كُتِبَ، إِضْطَرَّ لَا بَاتٍ . . .

غَيْرَ أَنَّ الْمِمْتَثِلَ وَالْمَسْرُوحِيَّةَ

وَالنَّاطِرِينَ إِلَيْهَا

وَالَّذِينَ أَتَوْا قَبْلَهُمْ

وَالَّذِينَ سَيَأْتُونَ مِنْ بَعْدِهِمْ ،

كُرَّةٌ فِي فِرَاقٍ

وَالْفِرَاقُ الْمَكَانُ -

عَجَباً! كَيْفَ لَا يَتَوَقَّفُ

ذَاكَ الدَّمُ الْبَهْلَوَانُ؟

* هَلْ غَدَت نَارُهُ

مِثْلَ مَاءٍ عَلَى الْمَائِدَةِ؟

هَلْ أَقُولُ التَّحِيَّةَ مِنْ أَوَّلٍ ، أَمْ أَقُولُ

التَّوَهُّجُ مِنْ أَوَّلٍ ،

لِبَرَاكِينِهِ الرَّاقِدَةِ؟

(١) فِي إِحْدَى الْمَعَارِكِ عَلَى
نَهْرٍ يُسَمَّى «نَهْرَ شَيْطَانٍ» .
(الطَّبْرِي) .

كُلُّ يَجْهَرُ: «حَقًّا،

لِلَّهِ،

لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ،

لِلْأَمْرَاءِ وَلِلْفُقَهَاءِ، الْأَمْرُ»،

وَيَتَابِعُ كُلُّ:

«أَحْنِي رَأْسِي -

مُلْكِي هَذَا الْفَقْرُ، وَهَذَا

الْأَسْرُ.»

كَلَّا، كَلَّا يَا آدَمَ

«مَمْلَكَتِي لَيْسَتْ

مِنْ هَذَا الْعَالَمِ».

* إِغْوَاءُ مُفْتَرِقٍ وَوَسْوَسةِ اخْتِبَارٍ:

أَهْنَاكَ مَا يَخْتَارُهُ؟

أَيَفْرُ مِنْ طِينٍ إِلَى طِينٍ، وَمِنْ نَارٍ

لِنَارٍ؟

*

سَاعَةُ عُشْرِ!

يَا رَبِّ أَعْنِي!

... وَرَأَيْتُ طَيوراً بَيْضاً

تَتَلَقَّى جَمْعَ الْأَعْدَاءِ

غَرَقَتْ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ

قُتِلَتْ طَائِفَةٌ

هَرَبَتْ طَائِفَةٌ

أَكْثَرُ مَنْ فِي هَذَا الْجَمْعِ أُبِيدُوا.

يَوْمَ سَمَوَهُ يَوْمَ شَذَا^(١) -

جَاؤُوا بِرُؤُوسِ الْقَتْلَى،

جَاءَ النَّاسُ لِيَأْخُذَ كُلُّ مِنْهُمْ

رَأْسَ أَبِي،

أَوْ رَأْسَ ابْنِ،

أَوْ رَأْسَ قَرِيبٍ.

(١) الشَّذَا جمع شَذَاة، نوعٌ من السفن الخاصة في البصرة، في ذلك الوقت.

ويوم الشَّذَا: «قُتِلَ فِيهِ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ جَمَاعَةٌ مِنْ وَلَدِ جَعْفَرِ بْنِ سَلِيمَانَ وَأَرْبَعُونَ رَجُلًا مِنَ الرِّمَاءِ الْمَشْهُورِينَ فِي خَلْقِ كَثِيرٍ، لَا يُحْصَى عَدْدُهُمْ». (الطبري).

- ع -

حَبِلْتُ أُمَّهُ، وَعَنِيتُ الْأَمِيرَ،

(خِلَافاً لِمَا تَعْرِفُ النِّسَاءُ)،

كَمَا تَحْبِلُ الْغَيُومُ

أَرْضَعْتُهُ (خِلَافاً لِمَا يَعْرِفُ الْآخَرُونَ)،

كَمَا يَرْضَعُ الضَّوُّ ثَدْيَ الثُّجُومِ.

هَكَذَا يَرِثُ الْحَرْثُ وَالزَّرْعُ،

يَمْتَلِكُ الْأَرْضَ وَالْعَالَمِينَ

بِاسْمِنَا، نَحْنُ عَبْدَانُهُ

وَأَعْوَانُهُ،

الْمُؤْمِنِينَ بِهِ، التَّابِعِينَ.

*

مَا لَمْ يُؤْخَذْ مِنْهَا

وَضَعُوهُ فَوْقَ بَسَاطٍ

مِنْ خَشَبٍ.

قَذَفُوهُ فِي الْجَزْرِ إِلَى

الْبَصْرَةِ

جَاءَ النَّاسُ إِلَيْهِ

كُلُّ

يَأْخُذُ رَأْسًا يَعْرِفُهُ.

* تِلْكَ نَارِي وَحَرْبِي :

لَا أُتَابِعُ إِلَّا هَوَايَ :

وَلَا عَرْشَ لِي غَيْرُ قَلْبِي .

- ف -

عندما تكتب الشمسُ شعرَ الفضاءِ،
وتُسألُ عما تبقى
عندما يلبسُ الفجرُ تاجَ الزمانِ،
ويكتبُ تاريخه،
ويُسألُ عما تبقى، -

ما الذي يتبقى من الرّانِ من تلّ بطريق،
أو قلعة الحدث،
غيرُ تلك الجُثث؟

*

قال نبيّ الزّنج:
بيوضُ كواكب
تُحصنُ في أعشاش
الرّفُض،
ستُعيد عيد الأرض.

* تجلسُ الآنْهايةُ
خَرْساءَ في وكرٍ
نَمَلٍ.

- غَنِّ، صَلِّ، ابتهجْ

للمكان الذي صار فينا زماناً

للزمان الذي صار فينا مكاناً

غَنِّ، صَلِّ، ابتهجْ للسَّقِيفَةِ:

لا تزال إلى الآن ممدودةً

كي، يَجِيءُ الخليفةُ.

- تتحدّثُ عن وطن، أم بقايا دِمْنٍ؟

وطني حيث شعري حرٌّ، وبيتي حرٌّ،

وحبي حرٌّ،

- غَنِّ، صَلِّ، ابتهجْ

لا مكانَ لهذا الوطنِ.

*

ما أَوْهَنَهُم - أهلُ البُضْرَةِ

لا تَجْمَعُهُمْ آيَةُ فِكْرِهِ!

يا رَبِّ، أعني

في تعجيل خراب

البُضْرَةِ!

خُوطِبْتُ: «البَصْرَةُ بين

يديكَ رَغِيفٌ. كلُّهُ،

وإبدأ بالأطرافِ».

تراءى

نصفُ رَغِيفٍ، مكسورٌ.

قلت: كمثُلُ كسوفِ القمرِ،

اليومَ، غداً، أو بعد غدٍ.

* إِمْضِ، طَمُئِنِّ رُؤُوسَ العبيدِ

سيفه ليس وقفاً على القَطْعِ والبَثْرِ،

فالسَّيْفُ أيضاً نَشِيدٌ.

- ق -

(١) أسماء أمكنة تاريخية
شهدت معارك وحروباً بين
سيف الدولة والزوم.

(٢) اسم نهر.

(٣) ما بين المزدوجتين
للمتبي.

سَرُوجٌ، سَمْنِينٌ، حَضْنُ الرَّانِ، خَرْشَنَّةٌ^(١)
رؤى على عتباتِ الله تَزْدَحِمُ
لأَرْسِنَاسٍ^(٢) هديرٌ في جوانبِها
كأنه، حين تَطْغى، سيلُها العَرِمُ
«ترعى السيوفُ بها»^(٣)، فيما تُعانقها
نارُ القتالِ، «نباتاً إسمه اللَّمَمُ».
أَضْرَمْتُ جَمرةً شعري في مواجِعِها
حتى التوى الرَّمْحُ ممَّا قاله القَلَمُ
ولم تك الحربُ حربي، كنتُ من وَلَهٍ
قيثارَ حبٍّ، وسيفَ الدَّولةِ النَّعَمُ
واليومَ أَهْجَرُ: هَجْرِي في تمرِّده
بَوْحُ المولِ - لا شكوى، ولا نَدَمُ.

*

جاؤوا،

جاءت قبلهم نيرانٌ

في المربد، في زهران،

بني حِمَانِ

في وقتٍ واحدٍ.

أهل البصرة بين الهارب،

والمبتلِّد، والسَّاجِد.

ذاك تمامُ الرؤيا

بتمامِ خرابِ البَصْرَةِ!

* ضَعُ يَدِيكَ على وجنتي، تأكِّدْ
أَنَّ رَأْسِي يَأْسِي.

ما تكونين من بعد، يا حلب الشعر،
نهداك رمل

وعيناك معصوبتان

كيف لي أن أعود إليك؟

أخطأ الفقهاء بما قولوك،

وأخطأ تأويلهم والبيان.

عجباً! خرقه

تحجب الشمس عن ناظريك.

*

قال نبي الزنج، غداة دخول

الزنج إليها:

«رُفعت بين يدي البصرة

أصحابي فيها طوفان

لا مهرب منه.

ورأيت كأن ملائكة

تأتي وتقاتل مع أصحابي.

نضري، لا من بشر

نضري رباني».

* أنكر ما شئت: فضاء الشعر وسر
الشعر،

لست غباراً،

كي أعلو فيك، وتعلو نحوي،

يا هذا العصر!

- ش -

حملتُ شمسي وأيامي وأسئلتني
ورختُ أستقرىء الدنيا وأمتحنُ، -
لا أرض، لا وطن
إلا خطاك تروى الموت، تفتحهُ
درباً،
وشعرك بيت الموت، والكفن.

*

قال نبي الزنج:
التاريخ زواج
بين الصورة والمعنى.

*

- هل أنت نبي؟
- أُعطيت نبوة هذا الدهر،
أبيت،
- لماذا؟
- عبء أخشى ألا أقدر
أن أحمله.

* بلدٌ بالله، بكل نبي، شيم
عامر
فلماذا يصغر
يُصبح فترا
حين يسافر فيه الشاعر؟

(١) هو ابن أبي أحمد
المتوكل.

مُرْهَقٌ بِسَطْوَعِي.

شَغَفِي الْآنَ، أَنْ أَتَحَوَّلَ ظِلًّا

أَنْ أَمَازِجَ سِرِّي بِسِرِّ الْهَبَاءِ،

وَأُعْطِي جِسْمِي

لِقَمِيصِ الْغِيَابِ،

شَغَفِي أَنْ أَكُونَ، تُرَابًا

وَأَدْخَلَ فِي كِيمِيَاءِ السَّحَابِ.

(٢) «الفاسق»، «الفاجر»،
«الخبيث»... إلخ، من
النعوت التي يطلقها الطبري
على قائد الزنج، وداعيه إلى
التوبة هو أبو أحمد بن
المتوكل أي الخليفة الواثق.

✱

قالوا: في واسطٍ أعطى

اللَّهُ أبا العباس^(١)

أَكْتَفَ الزَّنجِ، انْهَزَمُوا

وَارْتَاخَ هُنَاكَ النَّاسُ.

✱

قالوا: دُعِيَ الْفَاسِقُ^(٢)

لِلتَّوْبَةِ مِنْ تَقْتِيلِ النَّاسِ،

وَمِنْ تَخْرِيبِ الْبُلْدَانِ،

وَمِنْ دَعْوَى

لَمْ يَجْعَلَهُ اللَّهُ لَهَا أَهْلًا.

لكن، لم يَأْبَهُ

وَأَزْدَادَ غُلُوءًا فِي ثَوْرَتِهِ.

✱ جَبَلٌ لَا يَرِيدُ سِوَى أَنْ يَكُونَ ذِرَاعًا،

لِسَمَاءٍ،

لَا تَرِيدُ سِوَى أَنْ يَقَالَ لَهَا: أَنْتِ

خَضِرٌ.

*

قال نبي الزنج:

الطوفان الطوفان

كي تغرق مملكة

الطغيان.

*

قالوا: سيف، رمح، قوس

عزادات ومجانيق

مقلاع وحجار -

ذاك سلاح الزنج،

- وكيف، إذن

فروا؟ فرّ علي؟

- ث -

هذا الصّباح - رمى ماضٍ فريسته

في نحرها، وبكى ربّ على صمّ

دمٌ يضرّج أقداماً وأقنعةً

وثائرون يرون الشحم كالورم

يؤرّخون لآتيهم بلا لغةٍ

ويُنشدون لماضيهم بلا كليم

أتيت أسأل عن معنى، فأحدق بي

سيفٌ، وشرّدتني في صمته قلمي -

«أتى الزّمان بنوه في شبّيته

فسرّهم، وأتيناها على الهرم».

* تاريخٌ يمشي:

بين يديه

تمشي الأشياء

من دون طريق، من دون ضياء، من

دون فضاء.

- خ -

مَنْ أَسْأَلُ؟ ماذا تَهْدَمُ؟ هذا
 الثَّرَابُ الذي فِي؟ ظَنِّي؟ وَهَمَ التَّوَقُّعُ؟
 ذاك الفضاء الذي كنت سَمَيْتُهُ مكاني
 واصطفيتُ أَحِبَّائِي فِيهِ، وَأَشْرَعْتُ
 غَابَاتِهِ لرياحِ الأَمَلِ؟
 مَنْ أَسْأَلُ؟ ذاك الغراب الذي فِي؟ أم ذلك
 الذئب؟ أم يَأْسِي المَرَّ؟ أم غَضَبَ
 الشعر يَضَعُقُ تَارِيخَ تلك العروشِ،
 وتلك المحارِبِ، تلك المِلَلِ؟

ما بَقَائِي فِي حَلَبٍ، ما العَمَلُ؟

*

خُوصِرَ جيشُ الزَّنجِ،
 اسْتَأْمَنَ بَعْضُ،
 بَعْضُ أُعْطِيَ مَالاً،
 وكَثِيرٌ قُتِلُوا.

قالوا: حَزُوا لِلزَّنجِ
 رؤوساً
 لم يُحْضَوْهَا.

* فِي تَرْحَالِي،

أَحْمَلُ بَيْنَ يَدَيِّ الرِّيحِ،
 وَأَسْأَلُ تِيهِيَ عَنْ أَحْوَالِي.

الوجوه التي حضتني وأحببتها تضيقُ
والبيوت التي شربت ماء شعري
وحرّكت جذرانها
ولها وانتشاء، تضيقُ،
والمسافة بين الجراح وآلامها تضيقُ.
غير أنّ المدارَ الصّفيّ الصّديقُ
في المجاهيل في بوحها
وتباريح إشراقها،
عاهد الأرض في وفي خطواتي:
لن يضيقَ إليها مساري، لن تضيقَ الطريقُ.
آه، من أين؟ أتى، وكيف وماذا؟
أهنالك حقاً طريق؟

* يتنشّق رائحة الواقع،
عارفاً كيف يدخل في كنهه، كاتماً
سرّه.
ويظلّ يسافر فيه كنجم
يتشرد في فلك ضائع.

*

قال نبي الزنج: بهي
أن تَرْتَدَّ لجذرك، تُمسي
في مِذْراة الرّيح غباراً.

يا رب أعني
كيف أعين هذا المشهد؟
أتناسخ؟
أهبط في ملكوت
ضيائِكَ،
أم أصعد؟

- ض -

السَّحَابُ رَفِيقٌ لَوَجْهِي، سَأَحْلُمُ:

قَلْتُ السَّحَابُ ثِيَابٌ

بِتَخَارِيمِ ضَوْءٍ وَظِلٍّ.

أَيُّهَا الْأَصْدِقَاءُ، اعْذِرُونِي، فَقَدْ ضَعْتُ

مَا عَدْتُ أَعْرِفُ. مَنْ أَيْنَ تَأْتِي،

وَلَا كَيْفَ تَأْتِي إِلَى حَبْرِكُمْ

كَلِمَاتِي،

وَاسْمَحُوا لِي - أَحِبَّ ضِيَاعِي

هَذَا،

أَتَنُورُ سِرِّي فِيهِ،

وَأُسْرَحُ فِي ضَوْئِهِ خَطَوَاتِي.

*

أَسْرَى وَرُؤُوسَ

فِي شَذَوَاتٍ وَسُمَيْرِيَّاتٍ.

صَلَبَ الْأَسْرَى وَتَدَلَّى

فِي كُلِّ مَكَانٍ رَأْسَ.

زَعَمُوا: كَانَ حَصَارًا،

فِيهِ نَبَشُ الزَّنْجِ الْمَوْتَى،

دَفَعَا لِلْجُوعِ،

وَبَاعُوا الْأَكْفَانَ وَقَالُوا:

أَكَلَ الزَّنْجُ نِسَاءَ

أَكَلُوا أَطْفَالَ.

* فِي دَفْتَرِ الرِّيحِ بَعْضُ مَنْ خَوَاطِرُهُ،

وَفِي الْمَحِيطَاتِ بَعْضُ مَنْ حَنَائَاهُ

لَوَجْهِهِ فَلَكُ شَطَطُ الْمَدَارِ بِهِ

كَأَنَّمَا صُنِعَتْ مِنْهُ مَرَايَاهُ.

حَلَبْ تَذْهَبْ

وَأَنَا مِثْلَهَا أَذْهَبْ

وَالظَّلَامُ هُوَ الْمُسْتَرِيحُ عَلَى عَرْشِهِ،

وَالضِيَاءُ هُوَ الْمَتَعِبُ.

أَيُّهَا الْكُوكَبُ الْجَامِحُ الْمَتَفَرِّدُ فِي نَأْيِهِ وَفِي

قُرْبِهِ،

هَلْ يَقُولُ لَكَ الضُّوءُ، مِنْ أَيْنَ جِئْتَ،

إِلَى أَيْنَ تَمْضِي؟

أَمْ تُرَى أَنْتَ مِثْلِي، غِيهْبٌ حَائِرٌ

وَالْيَقِينُ الَّذِي يَتَفَتَّقُ، فِي بَعْدِنَا

وَفِي قَرِينَا، غِيهْبٌ؟

✱

رَأْسُ نَبِيِّ الزَّنجِ يُحْزَنُ

وَيُلْقَى

بَيْنَ يَدَيْهِ^(١).

رَأْسٌ مِنْ أَحْلَامٍ

صَارَ رَمَادًا.

✱

جَاءَ نَبِيُّ الزَّنجِ يَقُولُ

الزَّنجُ نَجُومٌ أُخْرَى

فِي هَذَا الشَّرْقِ،

وَلَهُمْ فِي كُلِّ بَيَاضٍ عِزٌّ.

كَانَ جِزَاءَ الْقَوْلِ الْحَرْقُ.

✱ كَيْفَ أَقُولُ لِفَكْرِي:

انْظُرْ حَوْلَكَ أَنْكَرَ نَفْسِكَ حَيْثُ

حَلَلْتَ

كَيْ تَعْرِفَ كَيْفَ أَتَيْتَ وَكَيْفَ

ضَلَلْتَ.

- غ -

إِنَّه زَمَنُ الْإِبْتِدَاءِ

زَمَنُ الْمَاءِ يَسْتَنْبِثُ النَّارَ،

وَالرَّيْحُ تَتْرُكُ أَبْنَاءَهَا لِلْعَرَاءِ

زَمَنُ الْمَوْمِيَاءِ -

ضَارِباً فِي الْجُدُورِ، وَفِي

طَبَقَاتِ السَّمَاءِ،

زَمَنُ الْقَيْدِ وَالْحَدِّ وَالْأَرْضِ -

سَابِحَةً فِي الدَّمَاءِ

إِنَّه زَمَنُ الْإِبْتِدَاءِ

زَمَنُ الْخَلْقِ يُوْغِلُ فِي كَيْمِيَاءِ الْهَبَاءِ

زَمَنُ الْإِبْتِدَاءِ.

*

كَانَ نَبِيُّ الزَّيْجِ يَقُولُ

الَّيْلُ فُضَاءٌ الْمَعْنَى

وَالْمَعْنَى لُغَةً

لَا لِلشَّرْعِ، وَلَا لِلْحَدِّ،

وَلَكِنْ

كَيْ تُخْلَقَ - بَدْءاً مِنْهَا،

لُغَةً أُخْرَى

وَمَعَانٍ أُخْرَى.

* لَمْ تَعُدْ حَلَبٌ غَيْرَ ذَاكَ الْغُبَارِ الَّذِي

قَذَفْتَهُ خَطَاهُ

نَحْوَ ذَاكَ الْمَكَانِ الَّذِي لَا مَكَانَ

سِوَاهُ.

هوامش



أنا الغريقُ،
فما خَوْفي مِنَ البَلَلِ؟

المتنبي

سمنون الصوفي

مات سنة ٢٩٨هـ. سَمَى
نفسه سمنوناً الكذاب لقوله:

«فليس لي في سواك حظٌ

فكيفما شئت فامتحنني».

ولأنه كان يطوف على
المكاتب ويقول للصبيان:
«ادعوا لعمكم الكذاب».

لن تعرفني

لن تعرف كيف سترسم وجهي.

وجهي ماء في عاصفة -

هل تعرف كيف تحيط بوجه الماء

في عاصفة؟

حقاً

غاب الشرُّ الخالق عنك،

وغابت معه

سُورُ الأشياء.

أبو القاسم الجنيد

مات سنة ٢٩٧ أو
٢٩٨هـ، «كان إمام الدنيا في
وقته»، كما يوصف، وكان
يُلقَّب «شيخ الطائفة»،
و«طاووس العلماء». وحين
مات، قيل: «اضطرب الوقت
لموته».

لم يعد يعرف أن يجلس في مجلسهم،

لم يعد يعرف أن يصغي إليهم

لم يعد يعرف أن يحيا كما يحيا سواه -

لم يعد يعرف غير الجبر،

مسكوباً على خيرته.

الجنابي القرمطي

قتل سنة ٣٠١ هـ. يقال:
قتله خادم له صقلبي، وهو
في الحمام، بهجر.

كَانَ فِي هَجَرٍ وَالْقَطِيفِ وَأَكْثَرَ مِنْ بَلَدٍ آخِرٍ،
يَلْجَأُونَ إِلَيْهِ، يُسَمُّونَهُ السَّيِّدَا
وَزَعَّ الْمَالَ وَالْمَلِكَ مَا بَيْنَهُمْ
(لا أقول سوى ما روته التواريخ عنه)
وَتَحَكَّمُ وَاسْتَأْصَدَا،
وَتَفَرَّدَ فِي الْقَوْلِ: لَا كُتِبَ مَنْزَلَاتُ إِنْ تَكُنْ حِجَّةً
لِلْقَوِيِّ لَكِي يَأْسِرَ الضَّعِيفَ، وَيَبْتَزَّهُ. الْأَرْضُ مَلِكُ
لِعَمَالِهَا، سِوَاءٍ.

قتله يدا خادم!
هَجَرٌ، أَصْبَحَتْ هَجَرٌ
عِبْرَةٌ مُرَّةً، وَالسَّوَالُ يُكْرَرُ:
مِنْ أَيْنَ يُبْدَأُ؟ أَيْ، وَكَيْفَ؟
بِمَاذَا، بِمَنْ يُعْتَبَرُ؟

النَّسَائِي، أَحْمَدُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ

توفي سنة ٣٠٣هـ. من
الفقهاء المعروفين، دفن في
بيت المقدس، أو في مكة -
في رواية أخرى.

صَلَّى فِي الرَّمْلَةِ - فِي جَامِعِهَا

سَأَلُوهُ:

- وَمَعَاوِيَةُ؟ وَفَضَائِلُهُ؟

مَا رَأَيْكَ فِيهِ؟

أَمْسَكَ. آثَرَ أَلَّا يَتَحَدَّثَ عَنْهُ

ضَرْبُوه حَتَّى الْمَوْتِ. جَحِيمٌ

أَنْ تَسْكُنَ أَرْضاً

صَمْتُكَ فِيهَا مَوْتُ

وَكَلَامُكَ مَوْتُ.

أبو بكر الرازي، محمد بن زكريا

توفي سنة ٣١٠هـ -
٩٢٥م، وقيل: ولد سنة
٢٥٠هـ - ٨٦٤م. يوصف بأنه
«طبيب المسلمين»، ويلقب
بـ «جالينوس العرب»، وفي
حين كان الفكر السائد في
وقته يؤكد على دور النبوة
والوحي في المعرفة وإيقاظ
النفوس، كان هو يؤكد على
دور الفلسفة والعقل.

هذي صَحَارِي مرارتي - مزجتُ بها

غدي بوجهي

وفَجَّرَ الأرضَ بالغسقِ

خليلي العَقْلُ - مَثُوراً على طبقي

من الجراحِ، ومنظوماً على طبقي

كَوْنٌ - سِبَاقٌ، وتُعْطيني أَعْيَتْهَا

إلى الأَقَاصِي، خيولُ السَيِّدِ الأفقِ.

ابن العلاف

توفي سنة ٣١٨هـ. كتب
قصيدة في رثاء ابن المعتز،
لكنه خاف من الخليفة
المقتدر، فحوّلها وجعلها في
رثاء هــ. وهي قصيدة
مشهورة.

جُنَّ حزنًا على هــ، رثاه

لا تزال القصيدة محفوفة

بتهاويلها

وتأويلها

لا تزال كما قالها

يُنكَرُ فيها، ويُعرَّفُ فيها

زمنٌ باثِرٌ ماكرٌ

كيف صار الخليفة هــ؟

مَنْ نُسَائِلُ؟ والشعر هل سيجيب،

إذا سئل الشعر، يا أيها الشاعر؟

ابن مسرّة، محمد بن عبد الله

توفي سنة ٣١٩هـ -
٩٣١م، يقول عنه الفرد
غيّوم: «هو أول من قدّم
للغرب الاستعمال الغامض
الملتبس للكلمات العادية».
ومذهبه الفكري باطني صارم،
يقوم على هرميّة سرّية.
(معجم الفلاسفة، لجورج
طرايشي).

مثلما تسكنُ الرّيحُ بيتَ الفضاءِ:

الترحّلُ قنديلُهُ

والحنين له طُرُقَاتٌ.

جسمهُ لغةٌ - فِطْرَةٌ

تترصدُ شمساً تُنَوِّرُ أَيَّامَهُ.

ساكِنٌ في طفولةٍ أسرارِهِ.

الترمذي

(أبو عبد الله محمد بن علي، الحكيم)

توفي سنة ٣٢٠هـ -
٩٣٢م، نُفي من ترمذ، مُتهماً
بالزندقة، يقول: إن الولاية
متقدمة على النبوة. من أهم
كتبه: ختم الولاية.

أخذتكَ الولاية، أعطتك أسرارها وتأويلها.

معنا أنت، في الصُّورِ المُستسرة، في كل شيء.

ولنا ضوءك الغوي اللغات

يتحدّر من شهب نيرات

زرعتها بروقك في رَحِمِ الكلمات

ونطوف به، ونقول لأيماننا:

إنه عهدنا،

إنه وقْتنا.

البلخي (أبو زيد، أحمد بن سهل)

توفي حوالى سنة ٣٢٢هـ
- ٩٣٤م. «كان حرّ التفكير لا
يخشى أن يرمى بالزندقة.
يرى أن أسماء الله الحسنى في
القرآن مأخوذة عن السريانية.
اشتهر بوصفه عالماً جغرافياً،
له: صور الأقاليم، وتقويم
البلدان». (معجم الفلاسفة،
طرايشي).

كَأْسُكَ الْآنَ مَلَانَّةٌ

بِاللَّغَاتِ، بِمَا قَوْلُهَا، وَقَالُوا.

هَلْ سَتَجْرُو مِنْ أَوَّلِ

وَتُوشِوشِ ذَاكَ الْأَبْدُ:

مَرْحَبًا، يَا صَدِيقِي،

أَيُّهَذَا الزَّبْدُ؟

أبو بكر الصنوبري

توفي سنة ٣٣٤هـ. كان
يحضر مجالس سيف الدولة،
وكان أميناً على كتب خزائنه.
شعره يتمحور حول الرياض
والأزهار.

ادخل إلى روضةٍ

يا شاعر الزَّهر، احتضنْ زهرةً

وقل لها: وجهك وجه امرأه

تعيش مسجونةً

في بردٍ أحزانها،

والأرض من حولها

بحيرةٌ من دمٍ

وجمرةٌ مُطفأه.

الرواية

VII

«جاء حكيمٌ إلى سيّد المدينة غين، قال له:

- إذا قطعتَ رأسَ وزيرك طوغان، ودفنته، تخرج منه شجرة تثمر ثمراً عظيماً يعود بالخير على رعيتك وعلى الدّنيا كلّها.

قال سيّد المدينة:

- وإذا لم يظهر ما ذكرت؟

- تصنع برأسي كما صنعت برأسه.

أمر سيّد المدينة برأس الوزير فقطع. أخذ الحكيم وغرس في دماغه نواة غريبة جميلة عالَجها حتى صارت شجرة. أثمرت هذه الشجرة ثمراً لا عهد للناس به -

لهذا الثمر عيان وفم، وله ليفٌ

كالشعر

وفي داخله مثل الدّماغ.

عادَ هذا الثمر، كما قال الحكيم، بالخير على المدينة، وعلى الدّنيا كلّها.

وسمّع أبجد أن حاكم المدن فاء، وكاف، ولام، وميم، ونون، وهاء، وواو، وياء، وكانت متّحدة في

نظام واحد، استدعى مرةً فيلسوفها ويدعى
الخلجان بن الوهم وكان بارعاً في وصف الإنسان.
سأله:

- ماذا تعرف عن الذكر والأنثى؟

فأجابه، بعد روية وتمعن:

- يجتمعان بشهوة اللحم والعظم، لإيداع الماء في
بيته. وهو ماء يتدفع من بين الصُّلب والثرائب. ثم
يصير هو نفسه عظاماً تتخذ اللحم ثوباً يُشد بالأعصاب
ويُنسج بالعروق.

- وماذا تعرف عن رأس الإنسان؟

- أعرف العين: لها أشفائر كالنوافذ تُفتح وتُغلق.
وأعرف السَّمع: هو شقٌّ ملآن بالرطوبة المرة لقتل
الدود والهوام، وملآن بتعويجات الصّوت. وأعرف
الأنف، وهو لاستنشاق روح الحياة، غذاء للقلب
وترويحاً لحرارة الباطن. وأعرف الحنجرة وهي
أنبوبة، بأشكال مختلفة في الضيق والسعة والخشونة
والملاسة وصلابة الجواهر ورخاوته والطول والقصر،
لتختلف الأصوات ويتميز الناس. وأعرف الرقبة وهي
مركز الرأس. وهي برجٌ يتكوّن من سبع خرزات
مجوّفة، مستديرة، زائدة، ناقصة، لينطبق بعضها على

بعض، ويطول ذكر الحكمة.

- صِفْ لنا الكَفَّ والأظافر؟

- الكَفَّ، إذا بُسِطت كانت طبقاً، وإن جُمِعت كانت آلة للضرب، وإن ضُمَّت كانت مغرفة.

أما الأظافر فعمادٌ خلفيٌّ ومناقير لالتقاط ما تعجز عنه الأنامل ورادارٌ يهدي إلى مواضع الحَكِّ في الجسم في النهار والليل، في النوم واليقظة.

- وما الرِّئة؟

- مروحة لحرارة القلب.

- وما العظام؟

- كثيرةٌ وبينها مفاصل وأوتادٌ كالرِّباط لجَرِّ الحركة، والعضلات آلات لتحريكها.

وسمعت أن هذا الفيلسوف، الخلجان بن الوهم، اختفى بعد ذلك، ولم يُعثر له على أثر.

(استطرد)

[أحبُّ أبجد هنا أن يستطردَ فيروي ما قاله القلم أول الخلق عن كيفية إيجاد هذا الكائن الذي سُمِّي الإنسان. قال:]

«أمر الخالق ملاكاً، قيل إنه جبرائيل^(١)، أن يأتيه بطين من الأرض. غضبت الأرض وقالت للملاك: أعوذ بالله منك أن تُنقص مني وتشييني.

آنذاك، بعث الخالق الملاك عزرائيل، وهو ملاك الموت. قال للأرض أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمر ربي. أخذ تراباً أحمر وأبيض وأسود

سكب عليه ماء حتى صار طيناً

ترك حتى صار حمأً مسنوناً

ترك حتى صار صلصالاً

منه جاء آدم وجاء بنوه حمراً وبيضاً وسوداً

وسمي آدم لأنه خلق من أديم الأرض.

مكث آدم أربعين سنة جسداً ملقى. كان إبليس^(٢) يأتي فيضربه برجله ويقول له: لست شيئاً.

عندما نفخ الخالق الروح في طينة آدم، دخلت من رأسه، ثم جرت فيها فصارت لحماً وعظماً.

عطس آدم فقالت له الملائكة: قل الحمد لله.

(١) «هو نفسه الذي رفع مدائن قوم لوط، وكن سبعا، بمن فيهم من البشر والحيوانات، على طرف جناحه حتى بلغ بها أوج السماء. سمعت الملائكة نباح الكلاب في هذه المدائن وصياح الديكة. ثم قلب هذه المدائن فجعل عاليها سافلها.

وهو نفسه الذي يظهر أحياناً في صورة أعرابي. وفي المأثور أن له ستمئة جناح بين الواحد والآخر كمثّل ما بين المشرق والمغرب».

(٢) «في المأثور أنه هو الذي قاتل الجن الذين كانوا أول من سكن الأرض وقتل بعضهم بعضاً، فقاتلهم وشتتهم، ومن يومها عرف الشتات. أخذه الغرور بهذا النصر فاستكبر على خالقه، وقال: صنعت ما لم يصنعه أحد. ومن يومها عرفت الفرادة.

وفي المأثور أيضاً أن إبليس من أشد الملائكة اجتهداً وأكثرهم علماً، وأنه حي الآن. له عرش على وجه البحر، وهو جالس عليه، وبعث سراياه يلقون بين الناس الشر والفتن. وهو أصل الجن، كما أن آدم أصل البشر».

سجدَ له الملائكة إلا إبليس^(١) قال :

أنا خيرٌ منه

لا أسجد لكائنٍ من الطين .

طُرد من الجنة أعورٌ عليه عمامة وفي إحدى رجليه نعلٌ .
أُسكنَ آدم الجنة بعد طرد إبليس . كان يمشي فيها فَرْدًا .

مرّةً نام آدم . استيقظ . رأى عند رأسه امرأةً
خلقها الخالق من ضلعه . سألها :

- مَنْ أَنْتِ؟

أجابت :

- امرأة .

- لِمَ خُلِقْتِ؟

- لتسكن إليّ .

سأله الملائكة لترى علمه :

- ما اسمُها؟

- حواء .

- لم سمّيت حواء؟

- لأنها خلقت من حيّ .

وسوس الشيطان لهما (وكانت الحيّة حملته بين

(١) «في المأثور أنّ إبليس
سخر من البيت المعمور الذي
يقال إنه مسجد في السماء
يقال له الضُّراح، يدخله كل
يوم سبعون ألف ملاك ثم لا
يرونه قطّ . وهو في السماء
السابعة بمنزلة الكعبة في
الأرض . وسخر كذلك من
القول: «ليس في السماوات
السبع موضع قدم، ولا شبر
ولا كف إلا وفيه ملك قائم أو
ملك ساجد أو ملك راکع» .
وسخر من القول: «إن فيها
لِلَّهِ ملكاً لو قيل له: التقم
السماوات والأرض بلقمة
واحدة، لفعل» .

ومن القول: «فيها ملك
من حملة العرش، ما بين
شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة
سبعمئة عام .

وسخر من سدرة المنتهى
التي جاء في المأثور أنّ
«ورقها كأذان الفيلة . يخرج
من أصلها نهران باطنان
ونهران ظاهران . الباطنان في
الجنة، والظاهران النّيل
والفرات» .

وفي المأثور أنّ إبليس
هو أول من أعطاه الخالق
ملكاً، ملكه على سماء الدنيا
وجعله خازناً من خزان
الجنة . استكبر على الربّ
وآذع الربوبية، ودعا من كان
تحتة إلى عبادته . مسخه الربّ
شيطاناً، وسلبه ما كان أعطاه،
ولعنه وطرده من سماواته» .

أنيابها وأدخلته الجنة)، فقال :

- يا آدم، هل أدلك على شجرة الخلد ومُلْكٍ لا يَبْلَى؟
مالت حواء :

وعندما دعاها آدم إلى حاجته قالت لا، إلا أن
تأكلَ من هذه الشجرة. أكلَ وأكلت. بدت لهما
سوءاُتهما. ذهب آدمُ هارباً في الجنة. ناداه ربّه :
- أتفرّ مني يا آدم؟

- حياءُ منك، يا رب!«.

خيل إلى أبجد أنّه كان، فيما يروي، ينظر إليه
حجرٌ أسود يشعّ من جهة القلعة. كان القميص الذي
ترتديه السماء ممزّقاً وبلون البنفسج تقريباً. إلى يسار
الشعاع الطالع من الحجر، جسرٌ مكسور. يعلو، غير
بَعِيدٍ عنه، سورٌ يبدو كمثّل دماءٍ عالية تخثرت.

كان في الجهات كلّها ضوءٌ يتكلّم :

هل اللّغة نجمةٌ تسيرُ بقدمين؟ سأل مدار الكلام،
الذي كان يتحرّك ولا ينطق.

امتزجت خطاه بخطوات الوقت، واختلط
صوتاهما. لمسَ بأهدابه صورة الأرض -

صحراءٌ ينهض فيها كتاب أشرعةٍ وأمواج

وجه آخر مرئي للهيب غير مرئي
خارج الحجر شفافية سيقولها يوماً
داخل الحجر جدار سيخرقه يوماً

أخذت الريح تفرش البسط وتمد الوسائد . جلس
على مقعد دعتة إليه . نهض ، أسند ذراعه اليسرى على
نافذة متحركة في بيت الفضاء .

عندما حاول أن يتحدث مع حارس يلتصق بباب
التاريخ ، أحس أن صوته يعلو ويهبط في حنجرتة كأنه
حصاة غير مدورة وملساء ،

وجاء يشهد عليه الغسق الذي رسمته ، أمس ،
حول النوافذ قدم الشمس ،
وجاء ملك الرمل .

هل بيت الله في هذه الجهة؟
أكد له صوت صارخ أنه ، عقاباً على هذا
السؤال ، سينزل قريباً في بئر من النار .
كيف يواجه العتبة التي يتغلغل شعاع منها بين
أصابع قدميه؟

والقوس التي تشبه جفن غزالة ولدت
لتوها غزالاً؟

وخشب الباب الذي يمتلىء بالأهلة،
والذي يتغير، بحسب النظرة
واللحظة، كمثل دمية في يد
الضوء؟

سَيَسْتَعِينُ على ذلك بشجرة السدر، وبالنخيل أولاً.
قبل ذلك، عليه أن يتجزأ، أن يدفن بعضه في
جوف كلمة، وفي صخرة بعضاً آخر.

مَرَّتْ عَرَبَةٌ رَمَلٍ تَجْرُهَا الرِّيحُ، ولا مست وجنتيه -
كان قد وضع قدميه على عتبة القلعة.

الذِّكْرَى

VII

المدينة خاء

قمر المدينة خاء طيب . يأخذ تعاليمه من ورقٍ تتنافس
في تزيينه جميع الألوان ، - ورق ينضاف إليه دائماً كلامٌ يهبط
عليه من جُرْف عالٍ كأنه رأس كوكب أو كَتِفُ نجمة .

✱

الشوك في المدينة خاء ، أكثر ألفةً من اليد ، والنافذة فيها
ترى أكثر مما ترى العين .

✱

يتساقط الزمن في المدينة خاء ، كمثل أوراق شجرة لا
اسم لها .

✱

لا أظن أن في الأرض مكاناً يتعذب دون جدوى ، كهذا
المكان الذي يسمّى المدينة خاء .

✱

تتقاطر الكلمات في المدينة خاء ، كأنها ناقيات عجاف
يحملن على ظهورهن - أثقالاً تُسمّى أفكاراً .

✱

كتب لي قارئ من المدينة خاء :
«عندي جسدان، - واحد أدخل به إليها، وآخر أخرج به
منها» .

※

كان وجميع أخواتها في المدينة خاء، أسماك تسبح في
بحيرة آسنة، وتكاد أن تجف .

※

الجبر، والكيمياء، ونجمة الصبح، جسد واحد يرتجف
بين يدي المدينة خاء .

※

ليس في اللغة التي تتحدث بها المدينة خاء، أسماء أو
أفعال، فهي كلها مجرورات ونعوت .

※

مجلس الفضة هو الذي ينتخب أعضاء الذهب :
تلك هي صيغة الحكم في المدينة خاء، كما يقول
سكانها .

※

الآن، تصغي إليّ ريحٌ ليست لها أذنان، -
ريح تهبّ من جهة المدينة خاء .

※

الحياة في المدينة خاء ليست حلماً
ولست إنجازاً، -
أعطها موعداً بين ذراعيك أيتها الوقت.

✱

بوفاء كامل،
سأخون المدينة خاء.

✱

أحببتك حيناً، وكرهتك أحياناً،-
كان الخبز نفسه وسخاً على مائدتك . وما انحنيت لك،
حتى عندما كان ظلامك يطبق عليّ وعلى أنحائي .
ولست أريد منك أيتها المدينة خاء،
إلا شيئاً واحداً:
أن تكوني في مستوى التراب الذي تنهضين فوقه.

المدينة ذال

يخيل في المدينة ذال أن الأشباح هي الكائنات الوحيدة
التي تحمل رؤوساً تشبه الرؤوس الآدمية .

✱

في إناء اسمه المدينة ذال،
يعيش نبات لا يذبل أبداً، اسمه القتل .

✱

أمرت المدينة ذال مؤرخيها أن يكتبوا تاريخاً يؤكد أن
رأسها ينتمي إلى سلالة اسمها تاج الدين، وأن قدميها تنتميان
إلى سلالة أخرى اسمها تاج الدنيا .

✱

تعلم المدينة ذال سكانها أن يندروا حياتهم كلها لعمل
واحد: أن يلوّثوا ضوء الشمس .

✱

ليس في الدم الذي يملأ عروق المدينة ذال، غير
الأبواق .

✱

لا أحد في المدينة ذال يعرف نفسه:
تلبس النعامة لينة الأسد،

ويمشي الذئب بأرجل الحمامة .

✱

تتراشق جدران المدينة ذال بِكُرَاتٍ غريبة يؤكد الذين
رأوها، أنها ليست إلا رؤوساً .

✱

أجلّوا العدالة إلى وقتٍ آخر،
أجلّوا العمل إلى وقتٍ آخر،
أجلّوا الحب إلى وقتٍ آخر،
أجلّوا العلم إلى وقتٍ آخر،
أجلّوا الخبز إلى وقتٍ آخر،
أجلّوا الحرية إلى وقتٍ آخر،
أجلّوا حقوق الإنسان الأخرى إلى وقتٍ آخر،
أجلّوا الإنسان إلى وقتٍ آخر:
تلك هي المبادئ التي تهيمن على المدينة ذال، وفي
هذه المبادئ يتنافس المتنافسون . . .

✱

الطرق التي تبدأ من المدينة ذال، جراح لا تشفى .

✱

إن شئت أن تعيش في المدينة ذال، فلن تقدر أن
تمارس إلا عملاً يهدم الفكر، أو فكراً يهدم العمل .

✱

الرؤوس في المدينة ذال هي نفسها السجون،
والأعمدة الفقرية عتبات للدخول والخروج.

※

مندور ساكن المدينة ذال لنضالٍ وحيد:
أن يأكل لحم أخيه.

※

موت الإنسان في المدينة ذال، هو الدليل الوحيد على
أنه كان حيًا.

※

لا تعرف الحياة في المدينة ذال أن تصفّق إلا للموت.

※

بعد الأشياء التي قرأتها، وتلك التي سمعتها عن المدينة
ذال، قرّرت أن أزورها مرة ثانية - لكن في عربة من الخيال.
كانت، لحظة وصولي، مقفلة. ويقال إنها مقفلة دائماً،
مع ذلك يمكن الدخول إليها من ثقبٍ ما، بإذنٍ ما، بورقةٍ ما،
بتوقيعٍ محدّد وخاصّ، يوحي بأن هذا الدخول نعمة وامتياز.
تدخل. ترى. تختبر، - لا تقدر أن تصادق في هذه
المدينة أيّ شيء. وقال لي أكثر من واحد: حتى عندما
يصادق الإنسان جسده أو عقله، فإن هذه المدينة تنظر إليه كأنه
متهم، وربما تعرّض لأن يفقد جسده أو عقله، أو كليهما معاً.

وتؤكد لك الخبرة أن كل شخص يسير في المدينة ذال،
يسير وراءه أو أمامه، إلى يمينه أو يساره، نوع غريب من
العَسَس.

وتلمس لمس اليد كيف أن أسياد المدينة ذال يمضون
أوقاتهم في العمل على حفر نفق ضخم، وإجبار الناس على
المرور فيه لكي يصلوا إلى ما يسمونه المستقبل أو الفجر
المقبل.

وهؤلاء الأسياد هم الذين يصنعون للناس رؤوساً ثانية
يركبونها داخل رؤوسهم الأولى. وكثيراً ما تتحول الرؤوس،
كما روى لي أكثر من شاهد، إلى قطع تبديل. لهذا حين
يتحدث مواطن مع زائر، يسأله هامساً:

- هل تريد أن أحاورك برأسي الأول، أم برأسي الثاني؟
لكنه سرعان ما يستدرك، هامساً أيضاً:

- كلا، كلا، لا أقدر أن أحاورك إلا برأسي الثاني.
ويقال، في رواية ثانية، لا يُعدّ مواطناً صالحاً إلا
الشخص الذي مسح هؤلاء الأسياد رأسه بأيديهم.

ومع ذلك، هناك من يوحد مصيره مع مصير المدينة
ذال، غير مدرك أنه في عمله هذا كمن يربط نفسه بعمود من
الضباب.

ما أعجب المدينة ذال،-

إنها تناضل كمن يخطط لكي يقلص الفضاء.

رموز وعبر من : «كتاب آخر للأمثال» .

قرأته في المدينة ذال

أ -

قال ابن عباس :

«كان عرشه على الماء،

وعندما أراد أن يخلق الخلق،

أخرج من الماء دخاناً ارتفع فوق الماء وسما عليه،

فسماء سماء .

ثم أَيْسَسَ الماء فجعله أرضاً واحدة،

ثم فَتَقَّ الأرض فجعلها سبع أرضين، وذلك في يومي
الأحد والاثنين .

وخلق الأرض على حوتٍ هو التَّون، -

الحوت في الماء

والماء على صَفَاةٍ

والصفاة على ظَهْر مَلَكٍ

والمَلَكُ على صخرة

والصخرة على الرِّيح

وهي الصخرة التي ذكرها لقمان ليست في السماء
وليست في الأرض .

وعندما تحرك الحوت واضطرب،

تزلزلت الأرض،

فَأَزْسَى عَلَيْهَا الْجِبَالِ، فَاسْتَقَرَّتْ .

(١) بعد التحقيق، تبين أن
هذه رواية شائعة ومكررة في
كتب التاريخ كلها.

يوم الثلاثاء،

خلقت الجبال وما فيهن من المنافع،

ويوم الأربعاء،

خلق الشجر والماء، وخلقت المدائن والعمران

والخراب،

وفي يومي الخميس والجمعة،

فُتِّقَت السماء وكانت رتقاً فصارت سبع سماوات .

ثم خلقت الكواكب

زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يُهتدى

بها.

ولَمَّا فرغ الخالق من خلق ما أحبه،

استوى على العرش» .

ب -

روي عن محمد بن إسحاق أنه قال :

«يقول أهل التوراة إن الله ابتداءً الخلق يوم الأحد،

ويقول أهل الإنجيل ابتداءً يوم الاثنين،

ونقول نحن المسلمون ابتداءً يوم السبت» ،

وإلى هذا القول الأخير مال طائفة من فقهاء

الشافعية^(١) .

المدينة ضاد

بشر يهرولون بين الكلمات، يتخذون من حروفها
شرايين، ومن نقاطها عيوناً،
أسافل تهبط في اتجاه أسافل أبعد غوراً،
ظلام يأخذ العرش، ونور يأخذه المنفى،
سيوف تسكن الأعناق، ورماح تسكن الخواصر،
وحدة بين الفكر والسجن،
زمن يعارض الماء،
فضاء لا يتسع لأكثر من ببغاء،-
أقول: رأيت هذا كله
رؤية العين،
وكان ذلك في المدينة ضاد.

✱

- ١ - في المدينة ضاد، لا يولد الغيم من الماء، ولا من الغيم، - يولد من الحجر.
- ٢ - الغراب نفسه في المدينة ضاد دفتر أبيض.
- ٣ - رجل في المدينة ضاد توفيت زوجته. نام ليلة، حزيناً، فرأى في نومه نساء لم ير معهن زوجته. سألهن عنها، قلن:

- «قَصُرَتْ فِي كَفْنِهَا، فَهِيَ تَسْتَحْيِي أَنْ تَخْرُجَ مَعَنَا.»

٤ - قَالَ رَجُلٌ فِي الْمَدِينَةِ ضَادَ: «رَأَيْتُ فِي النَّوْمِ
حَسَنَاتِي وَسَيِّئَاتِي. فِي حَسَنَاتِي، رَأَيْتُ حَبَاتِ رَمَانٍ. وَكُنْتُ
مَرَّةً، قَبِيلَ مَوْتِي، أَكَلْتُ رَمَانًا فَسَقَطَتْ عَلَى الْأَرْضِ ثَلَاثُ
حَبَاتٍ، لِمَمْتِهَنَ عَنِ الْأَرْضِ وَأَكَلْتِهَنَ.
وَرَأَيْتُ فِي سَيِّئَاتِي خَيْطِي حَرِيرٍ كَانَا فِي قُلُوسَوْتِي.»

٥ - رَوَى رَجُلٌ آخَرُ فِي الْمَدِينَةِ ضَادَ: «رَأَيْتُ فِي نَوْمِي
النَّاسَ يَجْتَمِعُونَ حَوْلَ رَجُلٍ عِنْدَ الْمَسْجِدِ. اقْتَرَبْتُ، وَسَأَلْتُ:
- مَنْ هَذَا؟
- هَذَا رَجُلٌ جَاءَ مِنَ الْآخِرَةِ إِلَى الدُّنْيَا، لِيُخْبِرَ النَّاسَ عَنْ
مَوْتَاهُمْ.»

٦ - وَقَالَ رَجُلٌ آخَرُ فِي الْمَدِينَةِ ضَادَ: «رَأَيْتُ رَجُلًا
شَاهِرًا سَيْفَهُ، يَضْرِبُ رُؤُوسَنَا. كَانَ كُلَّمَا وَقَعَ رَأْسٌ، يَأْخُذُهُ،
وَيُعِيدُهُ إِلَى مَكَانِهِ.

أَتَى إِلَيَّ، وَضَرَبَ رَأْسِي. وَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ. أَخَذْتُهُ،
نَفَضْتُ عَنْهُ التُّرَابَ، ثُمَّ وَضَعْتُهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ، وَأَعَدْتُهُ كَمَا كَانَ.»

✱

عَجِبًا لِلْمَدِينَةِ ضَادَ،

كَيْفَ تَجِدُ الْمُتَشَعِّعَ لِكَيْ تَجْلِسَ، حِينًا، تَحْتَ كُرْسِيٍّ
وَحِينًا بَيْنَ قَدَمَيْنِ.

✱

أحاول (بلا نجاح حتى الآن)
أن أضع في فلاة كتب المدينة ضاد،
لغاية واحدة: أن أحرّر الورق!

✱

تحيا المدينة ضاد، كأنها اللب
وتعمل كأنها القشر،
يا لهذا الجدل بين عبث باطن وعبث ظاهر.

✱

الضوء في المدينة ضاد
يأس من المصابيح،
والمصابيح يائسة من العيون.

✱

لا يقدر النهار في المدينة ضاد
أن يكون أكثر من سرير،
لا يقدر الليل فيها
أن يكون أكثر من غطاء.

✱

إن شئت أن تسكن في المدينة ضاد،
فلن تجد بيتاً تسكنه غير الكلام - عنيث:
قفص الكلام،

وسوف يواكبك حرس خاص ينتظم في صف لا ينتهي،
أوله السماء وآخره الغبار.

✱

لا تحيا في المدينة ضاد، إلا بعد أن تموت،
سلفاً، منذ ولادتك، بل قبل أن تولد:
أنت من الأسلاف!

※

للمدينة ضاد
جدران تتواطأ مع عميان
يتسربون إليها من بين النجوم.

※

يبدو الجسد في المدينة ضاد، كمثل الشجرة،
والروح ثمرة - للفصول كلها،
ولا تكف عن السقوط،
وأحياناً، تبدو الروح نفسها كمثل الشجرة
والجسد ثمرة للفصول كلها،
ولا يكف عن السقوط.

المدينة ظاء

خوفاً من سلطة البرد الذي يحكم شوارع المدينة ظاء،
لبس الجوع معطفه،

صعد إلى المسرح، مسرح الساحة العاقمة،
وأخذ يمومئ الشع.

※

الأخضر معتقل، والبياض متهم في المدينة ظاء،
وفيما تحاول الشمس أن تلام جراح السهول، تكاد
الجبال أن تختنق.

على القمم ثلج لا يسقط من جهة السماء، وفي الأودية
صراخ يخرج من ثقب في الأرض تشبه الحناجر.

※

هوذا حكم الريح على ساكن المدينة ظاء:
أن ينقل الماء، طول حياته، من الرمل إلى الرمل.

※

يمكن أن تنفذ الكلمات في المدينة ظاء، ولا تنفذ
قيودها.

※

ها هم يهتفون لنيرون، ويضعون بين يديه رؤوس
القتلى،

تقدموا يا شعراء المدينة ظاء،
إنه دوركم لكي تضعوا على رأسه الغار.

※

أحياناً، يبدو الإنسان في المدينة ظاء،
كأنه شخص التقى بجسده عبثاً، والتقى بروحه
مصادفة.

※

يا للرؤوس التي تتساقط دون توقّف
من أجل تاج يذهب وتاج يجيء:
ذلك هو التاريخ في المدينة ظاء.

※

في لحظة ما، وبسحرٍ ما،
يمكن في اللغة التي تسود المدينة ظاء، أن تسمى الجنة
جحيماً، والجحيم جنة.
وأن تصرخ: أيتها الغزالة، ألن تعترفي أخيراً بأنك
كركدن؟

※

يبددون أصواتهم في الغناء من أجل مستقبل ليس إلا
السرطان الذي يلتهم حناجرهم:
هكذا يصف بعضهم سكان المدينة ظاء.

※

تغصّ المدينة ظاء بمشائق تنتصب في الهواء، سرّياً.

✱

كلمة - تضع في عنقها طَلْسَمَهَا، لكي لا تضيع،
محفورة عالياً، فوق رأس المدينة ظاء،

- وما الغرابة، هنا؟ اللغة في هذه المدينة تحب أن
تستسلم لأحوال الهواء.

المدينة غين

لا يكتشف الإنسان في المدينة غين، تاريخه الحقيقي
إلا في الطبقات السفلى من أنين أيامه.

※

في المدينة غين،
يقتل بعضهم بعضاً كما يأكلون،
وفي محابر الأناشيد المنذورة للعرش،
يسكبون دماء القتلى.

※

عنده، في المدينة غين، مفاتيح لا تحصي
لكن، ليس هناك باب واحد.

※

نزل السيل، سيل الكلام، وادي المدينة غين،
ترك أسنانه في رأس الوادي، وقدميه عند قدميه،
ثم تحوّل إلى ثقب في دولاب الوقت.

※

جلس الليل تحت سقيفته، في المدينة غين،
دعا النجوم إلى الجلوس معه،

ثم أخذ ينتقد الظلام.

✱

أمس، خيل إليّ بقوة لا أعرف كيف أفسرها،
أنني أرى السماء تبذر نجومها في حقول المدينة غين،
تحية لحصاد صلواتها، كما قيل لي.

✱

سكان هذه المدينة في حاجة إليك أيها الأب الموت.

✱

اتبعوا الشارع في تغيراته -
يكاد أن يكون وجهاً مصنوعاً من الموج.
لا أحلم. واليوم غسلت ذاكرتي من أنقاضها.
هذا هو الشارع في المدينة غين، -
مرسوم بزبد كأنه النار، وبنار كأنها الزبد.

✱

كُتبت الكيمياء وغازاتها في سجل الفضاء،
كتب الأرق وكوابيسه،
احتفاءً بالمدينة غين -
هذه الكتابة أرض بلا حدود، وقيل إنها مخلوطة
بالسما.

✱

من أين للكلمات أن تتحول إلى قبائل؟ لا تقيم على
ضفاف اللسان إلا لكي تسبر غور الرحيل.

أتأمل هذه المسألة، فيما أتأمل أحوال المدينة غين.
وأعجب لانحراف خطواتي نحو قمة في جبال الرغبة،
يشاع أنها خرساء.

✱

حقاً، يبدو العالم كمثّل طائر ميت
في عنق المدينة غين.

✱

نادرون جداً أولئك الذين يقدرّون أن ينكروا
أن القرنَ العاشر هو الذي سيعقب
في المدينة غين
القرن العشرين.

✱

قال شاعر هذه المدينة:
الأمة قصيدة والأفراد كلماتها.
قلتُ: لا وجود، إذن، إلّا للغة.

✱

ليست الحياة في هذه المدينة ذروة يشرف منها
الإنسان،

بل نفق يختبئ فيه.

✱

يُصدّق سيّد هذه المدينة أنّه بطل:
أمرٌ لا يُصدّق.

✱

ما أكثر الكتب في هذه المدينة -
لكن، يكفي، لكي تفهمها، أن تقلّب أوراقها.

✱

لن يمتلك الإنسان فصاحة الريح،
لذلك لن يقدر أبداً أن يصف المدينة غين.

✱

قرأت آخر قصيدة كتبها شاعرٌ عاش في هذه المدينة،
قال فيها:-

«الفرس التي يمتطيها الليل في سفره
لا تقدر أن تسير إلا على الطريق
التي تقود إلى الصّباح.
مع ذلك -

أيتها الغيمة التي ولدت واقفةً
والتي ستموت وهي تمشي،
هل تقبلين صداقتي؟».

✱

«قبل أن تقوليني عنه^(١): إنه يحتل مكاناً عالياً،
اسألي: مَنْ أولئك الذين رفعوه، وأولئك الذين ينظرون
إليه.

✱

يغيّر رأيه دون أن يغيّر ذوقه،
أو يغيّر ذوقه دون أن يغيّر رأيه:
في الحالين، لا يتغيّر.

✱

إلى متى نبقى مجبرين على هذا الاختيار:
بين بيت لا يدخله أي نور،
ونور لا يدخلنا إلى أي بيت؟

✱

تسأليني أن أضع معجماً للكلمات من نوع آخر؟
حسناً، لنجرب:

كلمة قذف بها الفضاء من شبّاه الأمامي،
وكان سقوطها حدثاً ماتت فيه الكيمياء،
وابتليت المادّة بالداء الذي لا دواء له.

كلمة لن يقدر المعنى أن يجد له صورة جديدة إلا
إذا ماتت.

كلمة إن كان هناك فرح، فهو أن تقتل الكلمات وأن
تحييها.

كلمة يخرج من عباءتها الجند والخيال والبساتين.

كلمة عمود كبريت يعانق عموداً من الملح.

كلمة رأس مثقوب بالشك.

كلمة لم يولد بعد الأفق الذي يتسع لتلك الأجنحة
التي تبتكرها خطواتي
كلمة ليتني أقدر أن أضيف إلى جسدي جسداً
آخر لكي أقدر أن أحتضنها،
(والبقية آتية لا ريب).

✱

كلّ لم يعد القمر بيتاً لي،
غيرت الطريق بين قدمي وأحلامي.

✱

لم أولد بعد،
سأولد قريباً، أقرب مما يُظنّ.

✱

دخل كمثّل عاصفة بيني وبين آلامي،
ورفعني إليه -
لا تسليني: مَنْ، كيف، ومتى وأين؟

✱

بقدر ما تقتربين من الأفق،
بيتعد عنك:
لن تصلي، إذن، إلى نفسك، أبداً.

✱

لم يكن يبكي -

كان يبكي داخل البكاء .

✱

تصنع المدينة غين حاضرها بأشخاص ماتوا ،
وتصنع المستقبل بكلمات لا حاضرها لها .

✱

مدينة يبدأ فيها سجن المرء
بالسلام على العرش .

✱

الأب في هذه المدينة لا يُقتل ، بل يُبدل .

✱

يتقدم الزمن في هذه المدينة ،
كمثل طحلب على جدار اسمه الأبد .

✱

تجلس الخوذ على رؤوس الشجر ، في هذه المدينة ،
في كل ثمرة رصاصة .

خاتمة

- «الشَّامُ أَمَامَكَ، لا أَحَدٌ يَمْنَعُكَ مِنْهُ»،

قال ناصر الدولة لأخيه سيف الدولة .

ودخل سيف الدولة مدينة حلب

يوم الاثنين، من شهر ربيع الأول،

سنة ٣٣٣هـ.

وكان دم الحرب لا يجف، وكان قتلاها كمثل إبر في

يد الريح تخطط للزمن ثوبه الأكثر التصاقاً بجسده

وكان الدّم يتفجّر من أحشاء القلعة وأطرافها

ليست تُفّاحة حواء هي وحدها الغواية

للتاريخ، هو أيضاً، تُفّاحاته وغواياته.

وفي رواية، وهذا تكرار لما سبق، أنّ القلعة بدأت

خطواتها في أيام سلوقس نيكادور قبل المسيح بثلاثمئة واثنتي

عشرة سنة. ولما صار فيها تلامذة للمسيح أخذ يتعاش فيها

الذين يعبدون الله - يهوداً ونصارى، والذين يسجدون لوجه

الحجر الذي كان يُسمّى الصنم، والذين يسجدون للنار.

ثم هلّلت لخيول أبي عبيدة وسيوفه.

ثم أخذت تتدحرج كمثل كرة تنزف دماً بين يدي

الأرض، وتحت أقدام العرش -

الأموي

العباسي

الطولوني

الحمداني

. المرداسي، العقيلي، التركماني،
الزنكي، الأيوبي، المملوكي، الجركسي، العثماني -

(«سار السلطان سليم
إلى حلب. خَفَّ أهلها لملاقاته. طلع إلى القلعة. رأى أشياء
أدهشته: ذهباً وفضةً وغيرهما
- ومن هؤلاء؟

- خلفاء المشايخ الذين أتوا مع الغوري مسافرون إلى بلادهم.
أمرَ بإحضارهم. رمى رقابهم عن آخرهم».)

«قال بعض الحذاق من المؤرخين إن وقائع الجراكسة
مع السلطان سليم كانت دموية، وكان موته سنة ثمانٍ وعشرين
وتسعمئة بعلّة فزخ الجمر. وهكذا الدنيا تفعل بأهلها. هنيئاً
لمن أعرض عنها ورضي منها باليسير، فإنها غدارة غرارة
سبحان مبيد الأكاسرة ومذلّ الجبابرة وقاهر العباد بالموت،
وهو الذي يرث الأرضَ ومن عليها».

القسم الثاني

أوراق سيف الدولة

أوراق سيف الدولة

(١) السنة التي سيطر فيها
سيف الدولة على حلب.

[كتبت هذه الأوراق، في أوقات
متقطعة بين ٣٣٣هـ - ٣٥٦هـ.]

٣٣٣هـ^(١).

اليوم، بدأت طريقاً
لا أعرف كيف تؤول، وكيف تكون
أعرف أن الأرض
هنا وهناك -

دم، وجنود.

*

لا أحب المطر
حينما لا يسافر كالدمع بين جفون الشجر.

*

ليس بين الخليفة والناس إلا
سيفه والخلافة، -

للسيف من قال: كلاً.
للخلافة أبنائه

(١) أثر أبجد أن يتحدث عن
المدينة عين أيضاً بشكل غير
مباشر، عبر مقاطع من رسالة
كتبها في شكل خواطر، شاعر
إلى صديقة له في هذه
المدينة.

وأبناء أبنائه،

ولهُ الحاشية:

هِيَ فِي الْقَصْرِ حِيناً، ذِثَابٌ
وَهِيَ، حِيناً، قَطِيعٌ مِنَ الْمَاشِيَةِ.

✱

أعراب،

وقبائل طي،

وقرامطة،

لِمَ لا يُجدي غيرُ السَّيفِ؟

أغرث، قتلتُ الهادي^(١)،

وهدمتُ القرية^(٢)، حيث اعتصموا.

✱

من جديدِ ثورِ كلابٍ وأحلافها:

بالسِّ فتنةً، وفسادًا، وفوضى.

لا سبيلٌ سوى العُنفِ، لكن

لن أبالغَ فيه - أكتفي منهم بتأديبهم.

وسأوصي

أن تعادَ إليهم سبائهم.

✱

جند الإخشيدي أسارى

بين يدي، ولكن

لن أقتل منهم جنديًا، وسأعفو عنهم، وأُسرحهم.

(١) اسم القرمطي الثائر.

(٢) اسمها الحدث، وكانت في إقليم حمص.

✱

جَبَلٌ شَاهِقٌ
والدَّرُوبُ إِلَى الْحِصْنِ مَقْطُوعَةٌ
بِخَنَادِقِ نَارٍ وَنَفْطٍ.

✱

لَا حِصَانَةَ غَيْرُ الصُّعُودِ. صَعَدْنَا
وَصَلْنَا إِلَى بَرْزَوِيهِ، دَخَلْنَا إِلَيْهِ،
كُنْتُ أَضْغِي إِلَى أَرْضِهِ - التَّلَالُ،
الصَّخُورُ، الْمَتَارِيسُ، أَسْوَارُهُ
تَتَهَاوَى وَتَنْشَقُّ حَزناً عَلَيْهِ.

فَرْدَسُ (٢) مُخْبَطُ كَسِيرٍ،

وَكَأَنِّي أَرَاهُ

يَتَمَزَّقُ مُسْتَسْلِمًا وَيُجَرَّجُرُّ أَحْشَاءَهُ

فَوْقَ صَخْرٍ وَنَارٍ.

كَانَ نَصْرًا جَمِيلًا تَنَوَّرَتْ فِيهِ

مَا سَيَحْدُثُ، وَازْدَدْتُ فَنَاءً

فِي التَّمَرِّسِ بِالْحَرْبِ.

عَزَزْتُ أَخْلَاقَهَا - أَعَدْتُ إِلَى فَرْدَسِ

إِبْنِهِ (مَاتَ فِي حَرْبِنَا، وَحَمَلْنَاهُ رِفْقًا وَضَنًّا بِهِ أَنْ يَظْلَ

طَعَامًا لَطِيرٍ أَوْ لَوْحَشٍ. نَصَارَى حَلَبٍ سَلَّمُوهُ إِلَيْهِ

وَكَانُوا بَيْنَنَا جَسْرَ وَضَلٍ)

كُنْتُ أَسْتَبْصِرُ الْوَقْتَ فِي نَشْوَةِ النَّصْرِ، حِينَ مَرَرْتُ

بِأَنْطَاكِيَّةِ

وَالْتَقَيْتُ بِأَحْمَدِ (٣). كَانَ اللَّقَاءُ الْمَدَارَ الْأَشَدَّ التَّصَاقًا

بِأَعْمَاقِي النَّائِيَةِ.

(١) السنة التي حَقَّقَ فِيهَا
سَيْفُ الدَّوْلَةِ نَصْرًا مَهْمًا عَلَى
الرُّومِ، وَهِيَ السَّنَةُ نَفْسُهَا الَّتِي
التَّقَى فِيهَا بِالْمُتَنَبِّي فِي
أَنْطَاكِيَّةِ.

(٢) فَرْدَسُ فُقَّاسٌ، قَائِدُ
الرُّومِ، آنَ ذَاكَ.

(٣) الْمُتَنَبِّي.

(١) هو الصّباح بن عمارة،
وكان والياً على قنسرين.

عامرٌ وقشيرٌ وعجلانٌ، أولادُ كعبٍ
وكلابٍ -

كلّهم خارجونَ عليّ . ولكن
كان سهلاً

أن يُردّوا إلى طاعتي . أزلتُ أباطيلهم،
وأوصيتُ جنديّ ألاّ يمسّوا
حريماً لهم . وعفوْتُ، وسامحتُهم
وكانوا قتلوا والياً^(١) .

*

أعرفُ أنّ بكاءَ الناسِ شديداً،
منيّ .

لكن،

سيكونُ عليّ شديداً أيضاً،
حين أموتُ .

*

ظِلُّ رَمَحِي سَوَّالٌ عَنِ الْقَتْلِ وَالْمَوْتِ ،
خُطَّ عَلَى جَسَدِ الشَّمْسِ . وَجْهِي
مِثْلُ طِفْلِ
يُهَيِّئُ أَحْلَامَهُ وَالْعَابَهُ
لِلطَّيُورِ وَأَعْشَاشِهَا .

✱

أَصْدِقَائِي -

يَحْسِبُونَ الْكَوَاكِبَ شِعْرًا
وَالشَّعَاعَ الَّذِي يَتَبَجَّسُ مِنْ دَوْرَةِ الْكَوَاكِبِ ،
وَحْيًا .

مَا يَكُونُ ، إِذَنْ ، جِبْرُهُمْ ؟

✱

لَمْ أَكْتُبْ شَيْئًا . كُنْتُ أَقُولُ : الْحَرْفُ يُمِيتُ ،
وَكُلَّ كِتَابٍ
يَسْخَرُ مِمَّا فِيهِ الْوَرَقُ ،
إِنْ لَمْ تَتَجَدَّدْ فِيهِ الْأَرْضُ ، وَتَبْدَأُ مِمَّا
قَالَ الطُّرُقُ .

✱

كون - لم أقرأ فيه
إلا كلمات
لم ألمح فيه إلا صورة
أين يكون المعنى؟
هل أسأل ما يتغير فيه، أو ما يتبقى؟
هل أسأل جسم الكوكب عن معناه؟
أم أسأل نوره؟

*

ينبغي أن تُسمى الثغور
وطناً آخر
زارعاً حاصداً للقبور.

*

غارة، غارة، في تباريحه العالية،
يتغير طوروس: طوراً
ينحني - يترأى
في خليج قسنطينة، وطوراً
يزدهي - يتقلب في حضن
أنطاكية.

*

لا نِيَالٌ ولا عَرِبَاتٌ . لا دروْعٌ - ولكن

خوْذٌ، لا طُبُولٌ

إِبِلٌ وبيارقُ شَتَّى - خطوطٌ ووشْيٌ، وعمائمُ

تَسْتَنَفِرُ الصَّهَوَاتِ، وتزهو وتخطُ فضاءَ
الخيولِ.

※

يَمْدَحُونَ، ولو عَرَفَ المَادِحُونَ دَخَائِلَ مَنْ

يَمْدَحُونَ، إِذْ لَرَمَوْا ما يَقُولُونَ

فِي سَلَةِ اللِّقْمَامَةِ،

ولكانوا، إِنْ أَرَادُوا الحَيَاةَ بِصَدَقٍ،

رَفَعُوا عُذْرَهُمْ وَأَخْطَاءَهُمْ

فِي الطَّرِيقِ إِلَى مَوْتِهِمْ عِلَامَةً.

※

أَتَرَكُ الرِّيحَ تَعْبُرُ. وَقْتُ المَحَبِّينَ والشَّعْرَاءِ

الْجُذُورُ وَأَسْرَارُهَا، وَأَدَارِي

حَيْرَتِي، وَطَحَالِبَ خَطُوي،

وَأَخْطَاءَ حَقْلِي:

الطَّبِيعَةُ فِي ثِقَلِ أَشْجَارِهَا.

※

بخضوعٍ وزُلْفَى،
يرفعون هواهم وأقوالهم وأعمالهم،
إلى كلِّ عَرْشٍ.
ويمدّون أيّامهم
تحت خَطْوِ سلاطينهم بساطاً،
ويُضيفون أسماءهم
للنبيِّ، وآلِ النبيِّ، وصَحْبِ النبيِّ.
ما الذي يفعل العرشُ،
أجملَ من جَنِي هذا القَطَافِ
الشَّهِيءِ؟

*

خَرَّبُوا حَلَبًا، تَرْكُوهَا
 أَثْرًا بَعْدَ عَيْنٍ
 وَكَأَنِّي أَرَى كُلَّ مَا شَاءَتِ الْخِلَافَةُ مِنِّي،
 وَمَا شِئْتُهُ،
 وَرَقًا عَائِمًا
 فِي مِيَاهِ قُوثَيْقٍ،
 وَدَمَاءٍ تَسِيلُ عَلَى الضَّفَتَيْنِ.

*

حِينَ أَرْنُو إِلَى الْحَرْبِ غَزَوًا وَقِتْلًا وَنَهْبًا،
 أَتَشْكُّكَ: مَاذَا، أَهَذَا جِهَادٌ؟
 أَبْهَذَا نَضَمَ سَوَانَا إِلَى دِينِنَا؟
 أَمْ فِسَادٌ يَجْرُ الْفِسَادُ؟

*

لِمَ لَمْ أَقْرَأِ الرِّيحَ وَهِيَ تُقَلِّبُ بَيْنَ يَدَيْهَا
 كِتَابَ الشَّجَرِ؟
 لِمَ لَمْ أَسْأَلِ النَّهْرَ مِنْ أَيْنَ يَأْتِي بِأَقْلَامِهِ؟
 كَيْفَ يَقْرَأُ، أَوْ كَيْفَ يَقْدِرُ أَنْ يَتَحَدَّثَ
 مَعَ غَيْمَةٍ أَوْ حَجَرٍ؟

ضَحِكَ الضَّوُّ مِنِّي
ضَحَكَتْ أَنْجَمٌ تَمُوجُ أَثْدَاؤُهَا فِي مِيَاهِ قُوقٍ .
وَكَأَنِّي أَرَى لِقُوقٍ يَتَغَامَزُ مَعَ ضِفَّتَيْهِ .
ضَحِكَ الزَّبَدُ الْمَتَرَّبِعُ حُرًّا عَلَى عَرْشِهِ
فَوْقَ وَجْهِ النَّهْرِ .

✱

أَلْخِلَافَةُ بَيْتٍ -

عِنْدَمَا يَدْخُلُ الدَّاخِلُونَ إِلَيْهِ
تُغْلَقُ أَبْوَابُهُ ،
وَتُقَامُ الطَّقُوسُ ، -
الْإِلَهِ عَلَى عَرْشِهِ
سَاهِرٌ بَيْنَ جُدرَانِهِ :
الرَّؤُوسُ تُقَطَّعُ مَخْتِومَةً بِيَدِهِ
وَالْدَّمَاءُ تُرَاقُ عَلَى قَدَمِيهِ .

✱

أَرْسَنَاسُ وَأَطَوَافُهُ وَالزُّوَارِقُ وَالْجُنْدُ وَالْخَيْلُ
وَالْإِبِلُ النَّافِرَاتُ جَوَارٍ إِلَى الْفَلَكَ الْمُتَنَظِّرُ :
عَرَبٌ يَعْبُرُونَ إِلَى الرُّومِ ، فِي نَهْرٍ مِنْ صُورَ .

✱

لم أعد أفهم
كيف يُستَغْفَرُ العرشُ كاللهِ،
أو كيف تُزرَعُ،
من أجل أن تُحصَدَ، الأنجمُ.
أعطني قوّة الرّفْضِ والنُّطْقِ، يا حُبّها
لأقول: بلادي

لا حدود، ولكن
حيثما كان عدلٌ وحبٌّ، بلادي
ولا خوف، لا فَرْقَ فيها،
أعربَ الناسَ أو أعجمُوا.

*

آه، ما أطيّبَ النومَ!
بين السرير وتلك المرايا
حولَ محرابها،
لا فراشٌ لنا
غير عِطْرِ الفضاء،
وغيرُ الفضاءِ الذي سيَجْتُهُ بأهدابها.

*

أَتَقَدَّمُ نَحْوَ الْكُهُولَةِ
وَأَوْشَوْشُ صَخْبِي
وَأَكْرَرُ هَذَا لِسِيفِي
وَأَكْرَرُهُ لِثِيَابِي -
وَأَرْدَدُ مَا أَتَعَزَّى بِهِ :
لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَ التَّقَدُّمِ نَحْوُ الْكُهُولَةِ ، إِلَّا
خُطَوَاتُ الطِّفْلَةِ .

✱

لَمْ أَزْعَمْ يَوْمًا
أَنْ هُيَامِي أَنْ أَرْعَى النَّاسَ ، وَلَكِنْ
صَادَفَ هَذَا .

وَلَهِيَ أَنْ أَسْتَجْلِي
جَسَدَ الْأَشْيَاءِ ، وَأَمْشِي خَلْفَ خُطَايَا
وَلَهِيَ أَنْ أَرْعَى نَجْمًا
أَنْ يَشْرَدَ وَجْهِي فِي وَجْهِ الشَّمْسِ
وَأُسْلِمَ صَدْرِي
لِبِهَاءِ مَدَاهَا .

✱

(١) يشير إلى المتنبي،
والمعروف أنه بقي معه في
حلب، تسع سنوات، بين
٣٣٧هـ - ٣٤٦هـ. (٩٤٨ -
٩٥٧م). والمعروف أيضاً أن
سيف الدولة وُلد في السنة
نفسها لولادة المتنبي، سنة
٣٠٣هـ - ٩١٥م. وأنه مات
بعده بستين ٣٥٦هـ. وأنه
أنشده آخر قصيدة في حلب،
سنة ٣٤٥هـ، والتي يقول
فيها:

ولا تبال بشعرٍ بعد شاعره
قد أفسدَ القول حتى أُخمدَ
الضَّمَمُ.

لولا الفارابي وأحمد^(١) والكتابُ وأهل الفنّ،
ولولا

العلماء،

كانت حلب قفراً.

هُم أعطوني مجدي،

وبهم حلب قالت وتقول رؤاها

وبهم عرفت

أن تُوغل في سِرِّ الأشياء.

❖

أَلَدَمَسْتُكَ يَبْكِي . تَرَهَّبَ . أَشْفَقْتُ . لَنْ يُقْتَلَ
 سِيرِي عِنْدَنَا مَلَاذًا
 وَيُكْرَمُ . أَوْصَيْتُ خَيْرًا بِهِ .
 كَانَ يَأْتِي إِلَيْهِ نَصَارَى حَلَبَ لِلزِّيَارَةِ . يَوْمًا ،
 أَخَذَتْهُ مُوَاجِيذُهُ وَأَسْرَارُهَا ،
 وَارْتَقَى فِي سَلَالِمِ رُؤْيَاهُ : « كَلَّا ،
 لَنْ أَعِيشَ أُسِيرًا ، هُنَا » ، وَقَرَّرَ أَنْ
 يَشْرَبَ السُّمَّ . أَعْطَوْهُ فِي خَفِيَةٍ مَا أَرَادَ
 وَتَغَاضَيْتُ رِفْقًا بِهِمْ
 وَسَمَحْتُ لَهُمْ بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ ، وَالْحَدَادِ عَلَيْهِ ،
 شَأْنَهُمْ فِي تَقَالِيدِهِمْ ،
 وَبِلَبْسِ السَّوَادِ .

*

كَلَّمَا قُلْتُ : رُوْمَ ، أَحَسُّ بِأَنِّي أُضْغِي
 لِعَذَابِ ابْنِ مَرْيَمَ :

- يَا سَيِّدِي

لَمْ أَحَارِبْكَ يَوْمًا .

وأُضْغِي

بحنانٍ وحبٍّ لصوتٍ يُغْنِي

لمجدِ ابنِ مَرْيَمَ :

«أَنْتَ الطَّبِيعَةُ - ما قَبْلَها، وما بَعْدَها،

والتَّحَوُّلُ أَنْتَ، وَأَنْتَ الْفُصُولُ»،

أو يُغْنِي لِصَلْبِ ابنِ مَرْيَمَ :

«أَنْتَ الطَّرِيقُ،

وفي السَّفَرِ اللَّانْهائِيِّ، أَنْتَ الْوُصُولُ».

- لم أَحَارِبْكَ، يا سَيِّدِي، لم أَحَارِبْكَ يَوْمًا.

✱

أَتَسَاءَلُ : مِنْ أَيْنَ جَاءَ يَقِينِي

بَأَنِّي أَعْرِفُ أَحْوَالَ غَيْرِي،

وَأَحْوَالَ نَفْسِي -

وَأَنَا الْآنَ أَجْهَلُ مِنِّي أَمْسٍ؟

✱

ذَاهِبٌ فِي غَزَاةٍ غَدًا. ولماذا؟

أَلْكَى يَتَعَالَى صِرَاحُ الْعَبَثِ

فَوْقَ صَمْتِ الْجُثْثِ؟

✱

ليس لي من طفولتي الآن غير الصُور
صور - ذكريات
لا كلام، ولكن
أبجدية وزد وضوء تتلأأ في طبقات النَّظَر.

*

أُحرقوا، دَمِّروا،
نهبوا كل شيء
والنساء استُبحن: اغتُصبن، سُبين - بماذا
أسوِّغ هذا،
وكيف أَدافع عنه؟
بجهد العدو؟ بنبل الجهاد، وبأسِ
الكفاح؟

والجنود اندفاع رياح:
أهناك سبيل لصد الرياح؟
حيرتي عبث الدهر:
من يأسر الأرض يحيا أسيراً على الأرض،
والمستبيح هنا أو غداً
سيكون هنا أو غداً مستباح.

*

الحروبُ التي خضتها

وانكسرتُ هنا، وانتصرتُ هناك، الحروبُ

التي دَمَرْتُ عدوِّي، أو دَمَرْتَنِي

لم تزدني إلا ضياعاً ويأساً.

✱

في انكساري، في ذروة الفجيعة،

دائماً،

كنت أشعرُ أنني أضعُفُ

وأكثر قرباً لنفسي

وإلى حكمة الطبيعة.

✱

لم أשא أن أطارِدَ كافور^(١)، أو جُنْدَه

والأسارى سمحت لهم أن يعودوا إلى أهلهم:

لم أשא أن أشاهدَ خيلي

تُخَوِّضُ في بُرْكةٍ.

إمضِ كافور - رأسك في مأمِنٍ

وجيشك في مأمِنٍ،

وطريقك مفتوحةً.

✱

(١) لقيه وجنده في الرستن،
قرب حمص، فانهزموا. أمر
سيف الدولة جنده ألا يقتلوا
أحدًا من الأسرى، قائلاً:
«الدم لي، والمال لكم». أسر
نحو أربعة آلاف من الأمراء
وغيرهم. ومضى كافور هارباً
إلى دمشق. ثم أطلق سيف
الدولة هؤلاء الأسرى جميعاً.

خَمْرَةُ الْأَرْضِ أَبْعَدُ مِنْ نَشْوَةِ التَّفَكُّرِ فِي
أَصْلِهَا،

وَالطَّبِيعَةُ أَسْمَى وَأَعَمَقُ

مِمَّا يَقُولُ اسْمُهَا.

✱

فِي الطَّرِيقِ، جُنُودٌ يَمُوتُونَ: بَعْضُ

لَا يَزَالُونَ فِي أَوَّلِ الْعَمْرِ، بَعْضُ شِيُوخٍ.

الذَّبَابُ، الْوَحُوشُ، الطَّيُورُ الْكَوَاسِرُ

تَجْتَاحُ أَحْشَاءَهُمْ.

كُلُّهُمْ خَطٌّ نَقْشًا عَلَى سَاعِدِيهِ،

أَوْ عَلَى صَدْرِهِ - اسْمُهُ وَإِلَهَهُ

أَوْ مِنْ هَذِهِ الْمَتَاهَةِ.

✱

يَا أَطْبَاءَ جِسْمِي^(١)، اذْهَبُوا الْآنَ عَنِّي

إِنَّ رُوحِي فِي حَاجَةٍ

لِأَطْبَائِهَا.

✱

(١) قيل: كان يقف على
مائدة سيف الدولة أربعة
وعشرون طبيباً لينصحوا له
بتناول الطعام الذي ينفع
مزاجه. (الطَّبَاخُ، أَعْلَامُ
النِّبْلَاءِ: ٢٧٩/١).

لم أكن مرّة قريباً لنفسي، كما أشعر الآن:

فوقّي

نجمّة أترصد أحوالها.

أُتراني، يوماً،

مثلما وشوشتني أُمّي:

أتدثر سِرِّبالتها؟

✱

أتساءلُ في وحدتي:

أُتري الليل أجملُ من هذه الشمس؟

والموت، هل هو، حقّاً، ظلامٌ؟

والسؤالُ لكي يُستعادَ

ولعاً بالخفاء وسحر السّواد.

✱

غالباً، أتساءل: كيف عرفنا

وحدة الله؟ لا جسرَ ما بيننا،

لا كلام، ولا صورة.

وأضيفُ بشكٍّ وصمّت:

ربّما - نحن لم نختر الجهلَ بالله، لم نختر المعرفة.

رُبَّما - هو شاء الذي شاء :

ألا نرى منه غير الصِّفَةِ .

✱

يتساءل : ما السرّ في هذه الأرض ؟ ما الغيب ؟

من أين إمكانه والمُحَال ؟

يتساءل - وهو السُّؤال ، وأصلُ السُّؤالِ ، وسِرّ السُّؤالِ .

✱

كُتِبَ ورسائلُ، أوراقُ شِعْرِ وعِلْمٍ
خَطَّها بيديه،

أَخَذَتْ مِنْهُ^(١) فِي هَذِهِ الْحَرْبِ. خَيْلِي
شَتَاتٌ، وَجُنْدِي فِي
مِخْنَةٍ.

وَأَنَا لَسْتُ أَعْرِفُ مَاذَا أَقُولُ
كُلَّ مَا فِيَّ أَنْقَاضُ حُبٍّ وَحَلَمٍ
وَرَمَالٌ بِلَا شَاطِئٍ، وَطُلُولٌ.

✱

حَلَبٌ لَمْ تَكُنْ مَرَّةً مِثْلَهَا الْآنَ:
لِأَلَاءِ بِيْزَنْطِيَا وَخَمِيرَةِ بَغْدَادِ: زَوْجَانِ فِيهَا،
وَالسَّرِيرُ دَمَشَقٌ.

✱

أَتَعَلَّمُ أَنْ أَرْسِمَ الْأَفَقَ بِالْحُبِّ، وَالْأَرْضَ بِالْقَلْبِ:
هَذَا
لِغَةِ فِي الصَّبَاحِ
أَتَنَسَّمُ أَغْوَارَهَا وَأَسْرَارَهَا

(١) الإشارة إلى الخطاط
المشهور علي بن مُقْلَة، (مات
سنة ٣٣٨هـ)، وكان منقطعاً
إلى سيف الدولة وآل
حمدان. وقيل: إن عدد هذه
الأوراق خمسة آلاف، ولا
يعرف ما كان فيها.
وقد سُميت هذه الغزوة،
غزوة المُصْبِيَةِ.

في كتاب الجِراح.

*

قَدَرِي أَنْ أَكُونَ أَلِفًا
وَأُولَدَ فِي كُلِّ يَوْمٍ،
غَرِيبًا.

*

أَحْمَلُ السَّيْفَ قِثَارَةً (هذه لُغَةٌ لَا تُحِبُّ وَأَشْعُرُ
أَنِّي فِي حَاجَةٍ لَكِي أَتَنَكَّبُ عَنْهَا)
وَأَقُولُ لِهَذَا الزَّمَانِ: انْسَكِبْ
بَيْنَ أَوْتَارِهَا
هَلْ يُصَدِّقُ^(١) أَنِّي أَحَنُّ إِلَى أَنْ يَكُونَ أَمِيرًا،
وَأَكُونَ إِلَى جَنْبِهِ شَاعِرًا؟

*

(١) الإشارة إلى المتنبي.

لم يكن مادِحاً
كان يهجو عَمَى الآخرين،
ويقرأ أحواله وأعماله
في شمائلٍ ممدوحه.
كان يرنو إليَّ كأَنِّي صِنُو
ونَدُّ لَهُ،
ويُضيءُ نبوءاته وهياماته
في التحدُّثِ عَنِّي.
كان ممدوحه

شخصه الغامض الآخر.
هكذا، كان يمضي بعيداً في الكلام عليه
ليزدادَ علماً بأحواله.
وكثيراً تساءلتُ: ماذا سيفعل لو كان في
موضعي؟
أُتري، كان يَنْشَقُّ نصفين، مثلي: يعيشُ
مباذِلَ أيامه،
ويخسرُ أحلامه وغواياتها؟

(١) المعروف أن سيف
الدولة أعاد الصلة بالمتنبي بعد
تركه مصر، ومجيئه إلى
الكوفة. فقد أرسل سيف
الدولة ابنه من حلب إلى
الكوفة ومعه هدية، فكتب إليه
من الكوفة سنة ٣٥٢هـ،
قصيدته المشهورة اللامية،
والتي يقول فيها:

وسوى الزوم خلف ظهرك
روم

فعلى أي جانبك تميل؟

(...)

من عبيدي، إن عشت، لي
ألف

كافور، ولي من نذاك ريف
ونيل.

وكثيراً، تمنيتُ لو قال لي مرّة
خطأي، والتباسَ النظَرُ
في أمور البشر.

وكثيراً تساءلتُ:

لكن،

أترى كان ذلك يلقي لديّ القبولُ

أم تُراني كنتُ أجاهرُ: كلاً،

باطلٌ ما تقولُ وتجهلُ ماذا تقولُ^(١)؟

بلد - بركة من دم:

هل أقول - تعهدتها، وأشرعتها

للملأ

كي تزول عن الأرض نار الظمأ؟
(لغة لا أحب اللجوء إليها).

*

تفتح الحرب للموت بخرأ
وللحب تغلق بيتاً،
وتشاء الذي لا نشاء.

بخطاها، لا بألفاظها
تكتب الحرب تاريخ هذا الفضاء.

*

سيسمونني خائناً - ولكن
هل أخون المدينه
إن جلبت إليها - في تباريحها ومراريتها
ما يرد إليها السكينه؟

*

عاليًا،

في ينابيع حرّيتي -
أشعرُ الآنَ أني وحيدٌ،
ومَنفّاي في بدئه.

✱

قلت للشمس، أمس، اغفري لي
نمتُ أكثر من عادتي،
وسهرتُ بلا حكمة.

ومددتُ يديّ إلى شعرها،
وصلّيتُ في حضنها.

✱

فيّ ضعفٌ يُهيمن حيناً، فأصرخُ:
«قَرعُ الحوافِرُ
يتقدّمُ عندي رنينَ المزاهر.»

✱

ليس هذا صباحاً،

إنّه قشرةٌ من صَبَاحٍ
جَرَفَتْها إليّ الرّياح.

✱

أهنالك حُبُّ

شَيْخٍ وَفَتًى فِي آنٍ؟

✱

عَرَقُ يَتَحَدَّرُ مِنِّي - لَكِنْ

مِنْ أَيْنَ؟ ثِيَابِي

ثَلَجٌ؟

وَالْأَنْجُمُ فَوْقِي تَرْجَفُ بَرْدًا.

✱

رُومِيَّةٌ عَاشِقَةٌ أُسْرِهَا، وَعِشْقُهَا آسِرِي،

تَأْخُذْنِي، تَسْكُبُ أَحْزَانَهَا

فِي جَسَدِي فِي دَمِي،

تَقُولُ فِي غَبْطَةٍ - وَالْذَّمْعُ مَرَاتِهَا:

«يَأْسِرْنِي أَنَّنِي

حَرَّرْنِي حُبُّهُ

يَأْسِرْنِي أَنَّنِي

أُحِبُّ حَبِي لَهَا.»

أَقُولُ: «رُومِيَّةٌ - حَرٌّ أُسِيرُ بِهَا

يَأْسِرْنِي أَنَّنِي

أُحِبُّ حَبِي لَهَا.»

✱

كيف، من أين أصلح نفسي
وأعيد الفضاء الذي كنته
لمداراته،
والذي كان فيّ وما كان عندي،
ضَيَّعْتُهُ؟

✱

تحدّث أُمِّي عن آخرِ
فيّ. من أين جئتُ إليه،
ومن أين يأتي؟ غيوبٌ
توهّجُ في صدرِها:
«ذاك من أمرِ ربّي».

لا أجادل أُمِّي، ولا أتساءلُ. أحنو عليها
وأفوض أمري إلى أمرِها.

✱

حُلُمي في اتّجاهِ، جسدي في اتّجاهِ، وفكري في
آخرِ:

لا تناقضَ،

بل وحدة الضوء والظل في هذه الحياة -

وحدة الساهر المشرد

في غابة الكلمات .

✱

سَايزَتْ نَهْرَ قَوَيْقٍ : ضِفَّةٌ لِبَسْتُ
وَجْهَ التَّرَابِ ، وَأُخْرَى تَلْبَسُ الْأُفُقَا
فِي صَوْتِهِ قَلَقٌ - أَقْفُو تَمَوَّجَهُ
فَأَحْضَنُ الصَّوْتِ ، لَكِنْ أَعَشَقُ الْقَلَقَا .

✱

جَسَدِي خُبْرَتِي ، -

لَيْسَ لِي غَيْرُ مَا قَامَ أَوْ نَامَ فِيهِ ،
مِنْ بَهَاءِ الْمَسِيرَةِ
فِي عَتَمَاتِ الْكِفَاحِ .
لَيْسَ لِي غَيْرُ هَذَا الْمَبَاهِجِ ، هَذَا الْجِرَاحِ .
جَسَدِي خُبْرَتِي -

أَخَذَتْهُ إِلَيْهَا سَمَاءُ الْغَيُومِ ، وَتُرْجِيهِ فِي فَلَكِ
الرَّضْدِ ، هُوَجُ الرِّيحِ .

✱

كنتُ أقولُ: أحسَّ بآئي أولدُ كلِّ صباحٍ،
واليومَ أقولُ:

الموتُ أمامي والموتُ ورائي .
الشُّبَّاكُ شُبَّاكُ

والمقعدُ، حولي، خالٍ .
أحدسُ: ضيفي، هذا الليلُ، شهابُ أعمى .

✱

قال يتابعُ أفكاراً، كنا نتحاوَرُ فيها:
«كنتُ أسألُ عقلي عَمَّا كانَ، وعَمَّا
يتكوَّنُ - مِن أشياء الغَيْبِ، ومن أشياء
الدُّنيا .

لم أسأل يوماً حِسِّي،
أل هذا لم أعرف شيئاً
وأموثُ غريباً عن نفسي؟» .

✱

حولي أشياء كنتُ أراها
كلَّ صباحٍ .
واليوم أحسَّ كأني لم أعرفها

وكأنني لم ألمحها، قَبْلُ - تُرانا
نُولَدُ في لحظات الموتِ،
أم الأشياءُ تحوُلُ:
الطُّفْلُ يراها في ثوبِ
والشيخ يراها في ثوبِ؟
طِفْلٌ في جُبَّةِ شيخٍ،
شيخٌ في طَلْعَةِ طِفْلٍ -
لا أزمَنَّة، لا أعمارُ،
بل أحوالٌ ومواجيدُ.

✱

لو تيسَّرَ لي أن أعودَ كما كنتُ طفلاً،
وَحُيِّرْتُ، لاخْتَرْتُ
ألاً أفكّر، ألاً أحاربُ،
لاخترْتُ حِسِّي
ولأغرقتُ في الحبِّ، في فتنةِ الحياةِ،
وفي فطرةِ الطَّبيعةِ نَفْسِي.

✱

أَمْسِ حَيْثُ نَهَرَ قَوَيْقِ

عند مفرق بيتي

وتحدثت مع وردة.

لم أفكر، قبل حبي لها،

أَنِّي قَادِرٌ أَنْ أَحْيِيَ نَهْرًا

وَأَنْ أَتَحَدَّثَ مَعَ وَرْدَةٍ.

✱

أَحْبَبْتُ دُونَ حَنَانٍ دُونَ عَاطِفَةٍ

وَمَا تَشْهَيْتُ إِلَّا مَا أَلَامَسُهُ

فِي عُزْلَةٍ عَشْتُ: لَا ضِدٌّ يُشَاطِرُنِي

تُبَلِّ الصَّرَاحَ، وَلَا يَنْدُ أَنْفِيسُهُ.

✱

كَانَتِ الْحَرْبُ حِينًا عَزَاءً

لِي عَنْ وَخْدَتِي، وَحِينًا هُرُوبًا.

مِنْ صَغَارَةِ هَذَا الزَّمَانِ

وَالَّذِينَ يَمُوتُونَ فِي الْحَرْبِ، كَانُوا

لَعِبَةً أَوْ رِهَانًا.

✱

أَتَعْجَبُ مِنِّي

كيفَ أَمْضَيْتَ عَمْرِي فِي الْحَرْبِ -
حَرْبِ السَّيُوفِ، وَحَرْبِ الْكَلَامِ،
كيفَ لَمْ يَرْفَعْ الشَّعْرَاءُ الْبَيَارِقَ
لِلْحَبِّ أَوْ لِلسَّلَامِ.

أَتَعْجَبُ مِنِّي وَمِنْهُمْ

كيفَ كُنَّا نَغْنِي لِتَحْطِيمِ مَنْ لَيْسَ مِنَّا
وَنَزْهِو بِهَذَا الْفَنَاءِ وَهَذَا الْحُطَامِ.

✱

رَبِّمَا لَمْ تَكِ الْحَرْبُ إِلَّا ثُوبِي الْمُسْتَعَارَ
كِي أَغْطِيَ عَجْزِي عَنِ الْفِكْرِ، أَوْ أَتَجَرَّأَ حَتَّى
أَقُولَ لِهَذَا الْغَبَارِ الْإِلَهِيِّ: أَنْتَ
الْفَرِيسَةُ وَالْوَحْشُ
يَا آدَمَ الْغَبَارِ.

✱

لِلْأَشْيَاءِ كَلَامٌ أَبْهَى، وَدَمٌّ أَغْلَى:
تُقْتَلُ أُمُّ
كِي تُؤْخَذَ مِنْهَا مِرَاةٌ.

يُقتل طفلٌ
كي تُؤخذَ منه لعبتهُ.

يُقتل شيخٌ
ليُجربَ نضلٌ.

ما لي أتذكر هذا؟ ... جسدي واهٍ ... أصواتٌ؟
أصغي: حشدٌ ملائكَ فوقِي في طبقات الغيمِ وفوقِ
سريري؟

هل يُنذرني؟ هل يسخرُ مني؟

✱

جالِسٌ في سريري، أسأِلُ نفسي:
ما الحربُ، ما الحبُّ،
ما الحكمُ، ما حَلَبٌ؟

كلماتٌ

تتخاصمُ فيَّ،
وتعلو وتهبطُ،
تأتي وتمضي،
وأجهلُ ماذا أقولُ.

جسدي في مكان،
وفراشي في آخر،
إنها لحظة الدُخولِ إلى غِيَهَبِ الأفولِ.

✱

أقولُ الآنَ لِسيفِ الدولة؛
لستَ عليّ؟
أُسأِّلُهُ: مَنْ أنتَ؟ ولكن،
مَنْ كانَ عليّ قَبْلَهُ؟

سِرُّ مكنونُ،
لا، لن أسأله: مَنْ سيكونُ؟

✱

المكانَ سَريرُ
يَتَشَعَّتْ في رِيحِ هذا الزَّمانِ، -
إنه الوقتُ: وَجْهِي يَرْدُ إلى الشَّمْسِ
ما كان فيه،

مِنْ تقاسمها،
ويَدَايَ إلى الموتِ مَمْدُودَتَانِ.

✱

مِن غبار المعارك، فوق ثيابي

جمعتُ الكثير،

وسَوَّيْتُهُ لِبَنَّةٍ،

وأوصيتُ صَحبِي:

«عند موتي^(١)، ضَعُوهَا

مُسْنَدًا تَحْتَ خَدِّي».

✱

(١) يُروى أن سيف الدولة
عُجِّلَ، لِمَآمَات، تَسَعُ
مَرَّاتٍ: بِالماء، والزَّيْتِ،
والنيلوفر، والصَّنْدَلِ،
والعنبر، والكافور، وماء
الورد، والماء المقطَّر،
والزَّعْفَرَانِ. وبلغ ثمن كفنهِ
ألف دينار، ودفن في مَيَّا
فارقِبين، سنة ٣٥٦هـ، بعد
مقتل المتني بستين.

أوراق خولة

أوراق خولة*

[كتبت هذه الأوراق بين ٣٤١ - ٣٤٨هـ]

في الشمسِ، اليومَ، رأيتُ لجسمك ظلاً
فوق فراشي.

✱

ألوقت يصيرُ تراباً، يا ماءَ حياتي
هل ستمرّ؟ رجاء، مرّ. البابُ سيبقى
مفتوحاً.

خراسي؟ عُشاقُ أيضاً.

ولهم أسرارٌ ومواعيدٌ ولقاءاتٌ...

✱

للسرير الذي سألاقيك فيه،

العشيّة، بُوخ

تتمارّج فيه روائحُ وزدٍ ومِسكِ،

وروائحُ نَدٍّ. وفيه

ألقٌ من بهاءِ النخيلِ، وفيه

واحةٌ رسمتها

* الأخت الكبرى لسيف
الدولة، وهي التي كانت بينها
وبين المتنبي علاقة حبّ، في
رأي بعضهم. توفيت في
ميفارقين، سنة ٣٥٢هـ.
وكان المتنبي آنذاك في
الكوفة. ورثاها بقصيدته
المشهورة، والتي جاء فيها:
طوى الجزيرة حتى جاءني
خبرٌ

فزعت فيه بأمالي إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لي صدقه
أملأ
شرقت بالدمع حتى كاد يشرق
بي.

ويُعلّق الواحدي على
أحد أبيات هذه القصيدة في
شرحه قائلاً: «أساء في ذكر
حسن مبسم أخت ملك».
ودافع عنه ابن جني، قائلاً:
«كان المتنبي يتجاسر في
الفاظه جداً».

وفي هذه القصيدة،
يقول:

قد كان كلّ حجابٍ دون
رؤيتها

فما قنعت لها يا أرض
بالحجب

وهل سمعت كلاماً لي ألم بها
فقد أطلت وما سلّمت من
كُتب.

بالحنين وأيامه
خواصِرُ غَزَلَانِهَا .
في السرير الذي سألَاقِيكَ فيه ، العشيّة ، هذي العشيّة ،
ميثاقُ غاباتِنَا
ومُحيطَاتِهَا .

✱

أَعْطِ لِلْحَرْبِ وَقْتاً أَقْلَ وشِعْراً أَقْلَ . عَذَابُ
أَنْ أَرَاكَ إِلَى جَنْبِهِ^(١) :

أَنْتَ فِي حَيْرَةٍ ،
وَتُكَابِدُ مَا لَيْسَ مِنْكَ ، وَمَا لَسْتَ مِنْهُ .
وَهُوَ مُسْتَبْسِلٌ

واضِعُ رَأْسَهُ بَيْنَ سَيْفٍ وَسَيْفٍ ،
ضائعٌ بَيْنَ بِيْزَنْطِيَا وَدِمَشْقٍ ، -
تلك قُدَّامَهُ تَكَرَّرْتُ ، وَهَـذِي
خَلْفَهُ : كِيدَهَا عَظِيمٌ .

✱

(١) الإشارة إلى أخيها سيف
الدولة .

في الفراش الذي ضَمَّنَا
يكتبُ الحبُّ والحلمُ والرَّغباتُ صحائفَ أيامنا،
مثلما تكتبُ الحقولُ
ما تقولُ الفصولُ .

※

كلُّ تلك العوالم في جنة الوعدِ،
في وهمي الأثوي، حياةٌ
أثقلُ فيها

بين أحضانه الخالقة -

أين أنت؟ اغترفني

أعطني ماء قلبك، خُذني إليك،
إلى نار شهوتك الخارقة .

※

لا دم في عروقي

غيرُ ذاك الدَّم المتفجّر منه إليّ . وهذي

غرفتي تثقلُ في نارها

وتهامسُ جذرائها :

لا أصدق - لئلي، وحلمي

والتوافدُ، والبَابُ: هذا

كلُّه، مِثْلُ ضَوْءٍ

يتبجّس مِنْه،

ومن ذِكْرِهِ،

آسِرِي، وَأُصْلِي

كِي تَضِيقَ عَلَيَّ عُرَى أَسْرِهِ.

✱

آهٍ طَعْمَكَ! مَا زَالَ رِيقِي يُسَافِرُ فِيهِ:

لِسَانِي سُكَّرَ،

وَفِي شَفْتِي جُنُونٌ.

✱

طَوَلَ اللَّيْلُ، أَثْقَلَ خَطْوِي

فِي الدَّارِ، هُنَاكَ - حَيْثُ . . .

وَحَيْثُ الْمَاءُ انْسَكَبَتْ.

✱

الْمَوْتُ أَسِيرٌ

وَالْحَارِسُ أَنْتَ وَحْبِي.

✱

قَلْبِي جُزُرٌ

سُفُنُ الْحَبِّ الْأُولَى تُرْسِي فِيهِ،
وَرِيَّاحُ الْحَبِّ الْأُولَى تَغْدُو وَتَرْوُحُ إِلَيْهِ،-
لَا رُبَّانَ إِلَّا أَنْتَ،
أُبْحِرْ فِي إِلَيْنَا، كَيْفَ تَشَاءُ، وَأَتَى شِئْتَ.

✱

كُلَّ يَوْمٍ،
أَقُولُ لِهَذَا السَّرِيرِ، لِهَذَا الْغَطَاءِ
جَسَدِي نَاجِلٌ،
وَيُحِبُّ التَّمَوَّجَ بَيْنَ يَدَيْهِ،
وَيُحِبُّ الْعِرَاءَ.

✱

أَمْضَيْتُ لَيْلِي أَسْأَلُ اللَّحْظَاتِ عَنْكَ،
أَشْمُ جِلْدَكَ فِي الْغَطَاءِ،
وَفِي الْوَسَادَةِ،

صَدَّقْتُ: كُلُّ غَوَايَةِ
رَبِّ، وَكُلُّ هَوَى عِبَادَةٍ.

✱

لِيَفْعَلُوا مَا أَرَادُوا، لَنْ تُفَارِقَنِي
جَنِّي، وَلَنْ أَتَخَلَّى عَنْ شَيَاطِينِي
وَكَيْفَ أَكْتُمُ حَبِّي، أَوْ أَقْنَعُهُ
حَتَّى ثِيَابِي وَأَحْلَامِي تُعَرِّينِي.

✱

أَلْقَصَائِدُ - تِلْكَ الَّتِي كُنْتَ تَكْتُبُ فِي دَفْطَرِي
بَيْنَ ثَغْرِي وَنَحْرِي،
يَتَقَافَزْنَ، يَأْتِينَ لَيْلاً إِلَيَّ،
يَدَاعِبُنَّ ثَدْيِي فِي لَيْلِكَ السَّاهِرِ،
أَوْ يَا سَاحِرِي.

✱

قَمَرُ اللَّيْلِ جَوَّعَانُ،
وَالْوَقْتُ مِثْلُ السَّوَاظِ
هُزَّ جَذْعِي إِلَيْكَ، اخْتَضَيْتَنِي -
مَلَأْنِي بِحَبِّي،
مَلَأْنِي بِأَشْهَى الثَّمَارِ.

✱

اليوم، حصاني
لم يعرف كيف تجيء الشمس
لينهض كي يلقاني،
داعبتُ سوادَ قوائمه،
والعُنُق، الرأس، وغُرَّتُه
بردائي - بالأزرار، وبالأزدان.

✱

بين تذيي طيف:
رأسه مثل طفلٍ
وادِع، دافئ.

✱

أنتَ فضاءٌ وأنا تيه -

ما أبهى تيه الإثنين،
يا قَمري الأبهى ما بين القمرين.

✱

ليس لي أجنحة
كي أطيّر إليك، وهذا
شغفي: أن أكون كأرض
وتجيء إليّ، وتهبط في ظلماتي
أن أكون كبابٍ على سُرّة الزمان،
وأن تفتحه.

*

هوذا بصري - طائرٌ، سابحٌ، غارقٌ
عالقٌ بطريقك أنى توجّهت، أو كنت.
ماذا،

تفعل الآن، يا سيدي؟
خذ يدي، خذ يدي.

*

آه من فكرة الحریم،
ومن ملكوت الحریم
جسدي، مثلُ فكري، جحيمٌ
جسدي، مثلُ فكري، رجيمٌ، -
تبارك شيطاني الرجيم.

*

أَلْكَرْسِيُّ يَجْرَ خُطَاهُ سِرًّا
لِيرَى: هل ثوبُكَ هذا المَرْمِيّ، إزاء سَرِيرِي؟
وَأَنَا لَمَّا أَسْتَيْقِظُ.

✱

وَخَدِي - لَا طَعْمَ لِهَذَا الشَّايِ، وَمِنْهُ شَرَبْنَا
أَمْسٍ، وَكَانَ لَذِيذًا.

✱

أَمْسٍ حَلَمْتُ. رَأَيْتَكَ نَهْرًا
وَأَنَا فِيكَ أَغْوَصُ وَأَنْزِلُ حَتَّى الْقُعْرُ
صَوَّبَ الْبَحْرُ.

✱

مَا لَجَسْمِي غَرِيبٌ -
لَا عَلِيلٌ، وَلَا خَالِصٌ
مِنْ عَذَابَاتِهِ،
لَا مُقِيمٌ وَلَا رَاحِلٌ.
أَلْقُ فِي خَلَايَاهُ، لَكِنْ
قَلَقُ فِي خُطَاهُ.
امزُجِي عِطْرِي، الْيَوْمَ، يَا حَيْرَتِي
امزُجِيهِ بِشَعْرِ حَبِيبِي وَأَنْفَاسِهِ.

✱

الستار، البلاط، البساط، الحصير
كل شيء يقول: انهضي،
وأعدي السرير.

*

من صندل حبي، من مجمرتي
يخرج ليل آخر يمشي حول سريري
ويخالط ضوء البيت ويبيكي
ويذوب حنيئاً في حنجرتي.

*

لا أصدق، لكن
جسدي غار مني
حين قلت لفكري:
زُرْه ليلاً، وسله، وأخبره
واخضنه عني.

*

طُولَ هذِي الشُّهُورِ

لَمْ أَنْتُمْ مَرَّةً

دُونَ أَنْ أَتَغَطَّى

بِالْغَطَاءِ الَّذِي لَقْنَا

وَعَرَفْنَا أَوَائِلَ أَسْرَارِنَا تَحْتَهُ.

هُوَ لِي لَوْنٌ وَجْهِي وَجِسْمِي وَعَيْنِي،

وَالْأَرْضُ فِي مَا تَكُونُ، وَكَأَنْتِ.

وَهُوَ لِي مَائِي الطُّهُورُ.

✱

فِي شَهْرِ الصَّوْمِ

غَيَّرْتُ ثِيَابِي

غَيَّرْتُ غِلَائِلَ نَوْمِي

غَيَّرْتُ بَيَاضَ سَرِيرِي، وَوَسَائِدَهُ،

كِي لَا أَنْقُضَ صَوْمِي

كِي لَا أَلْمَسَ إِلَّا نَارَكَ فِي أَثْنَاءِ النَّوْمِ.

✱

ما أحبُّ وأغربَ هذا المساءُ :
مِنْ شبَّابيكِه تتدلَّى نجومٌ
لابساتٍ غلائلٍ مِنْ ورقِ الآسِ ،
والليلُ يرسمُ أفخاذهنَّ
على شُرَفاتِ السَّماءِ .



ها هنا ، حول بيتي
فوقَ خَدِّ تَوَسَّدَهُ لازَوْرُدُ المدينةُ ،
يكتبُ رَبُّ الكواكبِ أشعارَهُ -
غرفتي ، وهي تقرأُ تلكَ الكتابةَ ، تقتصِرُ آثارُهُ
وسريري ، رموزُ

تفتَحُ في ضوئِهِ ،
وتعلِّمُ أسرارَها
كيفَ تجلُو ، متى جاء ، أسرارُهُ .



مَرَّتِ الرِّيحُ بِيضَاءَ، واشتعلَ اللَّيْلُ أبيضَ،

في ذُرُواتِ الشَّجَرِ،

كنتُ أقرأ ما يكتب الحبُّ بيني وبين النُّجومِ -

صديقاته،

وأهتَيْءُ أطفالَ حُزني لرسم القمرِ.

*

لم يكن عادلاً عليَّ^(١)

حين أضغَى لحساده^(٢)، -

كيف يقدر أن يسمع الشعرَ من غيره؟

يهرعون إليه

لا ولاء، ولا فتنةً

بالجمال، ولكن

يهرعون إلى ماله وإلى زاده.

*

إقْتَرَبَ إقْتَرَبَ

أَلَملائُكُ من فوقنا في هَوادِجِ أعراسِها،

سأقول لحُرّاسِنا أن يُعدّوا الخيامَ لحُرّاسِها.

*

(١) أخوها، سيف الدولة.

(٢) الإشارة إلى المتنبي.

أَلْمَآذِنُ فِي شَفَتَيْكَ، عَلَى كَتْفَيْكَ،
وَفِي نَظْرَيْكَ... سَوَارٌ،
أَمْ حَصَارٌ؟
وَدُرُوبُ السَّمَاءِ تَوْدِي إِلَيْكَ. تَلَفَّتْ،
رَبِّمَا...
مَا أَقُولُ؟ لِمَذَا
أَتَذَكَّرُ هَذَا؟

فَاطِمَةُ
أُطْفِئِي شَمْعَةَ السَّرِيرِ، وَأَعْطِي
لِلْهَيْبِ الْمُنُورِ فِي ذَكْرِيَّاتِي،
فَرَاشَاتِهَا الْهَائِمَةَ.

*

أَلْحَبُّ بِلَادٌ
تَتَرَحَّلُ فِي أَثْنَاءِ اللَّيْلِ،
بِدُونِ حُدُودٍ
وَبِلَا حِرَاسٍ.

*

عندما ينظر الآخرون إليّ،
أُحسّ كأنّ لَوْجَهي غطاءٌ
نَسَجْتَهُ تَجَاعِيدُهُمْ.

عندما لا يراني سِوَاهُ، أُحسّ كأنّي
فَلَكٌ بين أَفلاكِ الحَانِيَاتِ عليه
أَتَنقَلُّ بين يديه.

*

السَّمَاءُ تَغَطَّتْ

بغبار المدينة، هذا الصَّبَاحُ. غيومٌ
تأسِرُ الشَّمْسَ - تخرج منها، وتهبط
في حِينَا
مَطَرًا سَاخِنًا.

كَانَ جِئُ الْمَسَاءِ قَدْ اسْتَيْقِظُوا بَاكِرًا
وَمَضَوْا، بَعْدَ أَنْ حَمَلُونِي رِسَائِلَ مِنْهُمْ
إِلَيْهِ.

...

سَأَقُولُ لَهُ: وَاحِدٌ
بَيْنَهُمْ، يَتَشَكَّى عَلَيْهِ.

*

أَيَكُونُ الْفَرَاتُ سَرِيرَ تَبَارِيحِي
الشَّارِدَةُ،

أَتَكُونُ الْجِبَالُ شَبَابِيكَهَا؟
يَا ظَبَاءَ الْفَرَاتِ الَّتِي لَمْ تَزْرَنِي
مِنْ زَمَانٍ - (وَقَالُوا:

إِنَّهَا الْآنَ تَقْفُو ظَبَاءَ الْحِجَازِ
وَتَغْنِي لِأَطْلَالِهَا الْبَائِدَةَ)

يَا ظَبَاءَ الْفَرَاتِ الَّتِي لَمْ تَزْرَنِي
مِنْ زَمَانٍ، خَذِينِي
سَاعِدِينِي، سَلِي كَيْفَ أَشْفَى -
دَوَائِي

مِثْلَ دَائِي، رَحِيلُ
فِي سُهوبِ الْمَجَازِ.

*

أكتبُ الآنَ ما يُشبه الرسالةَ

لا إليه، ولكن

لِلطريق التي سَلَكتها خُطاهُ،

بعد ذاك اللقاء الذي ضَمَّننا -

لِخُطاهُ، لاضطرابِ خُطاهُ في الزقاقِ

الذي يَنْتهي عند بابي، لِصمت التلهُّفِ

وهو يدقُّ على البابِ. يدخلُ - جسَـمِي

وردةً في يديه، هلالُ

حول أجفانه،

وَحَبِّي هالَةٌ،

أكتبُ الآنَ ما يُشبه الرسالةَ.

✱

هاهنا نحن في البابِ، في ظِلِّهِ واقفانُ

أنتَ ماضٍ. أنا؟ نتردَّدُ:

كيف نقولُ: الوداعُ،

وجسَـمِي وجسَمكَ لا يقبلانِ،

ولا يُصغيانُ؟

✱

كان أجدادنا يقولون :

قيسُ بدايةً -

لا بدايةً للحبِّ، كلَّ عشيقين بدءً.

أتراها النهاية لفظً، لا لوصفِ الوجودِ، ولكن لوصفِ
الكلام،

البدايةُ في الحبِّ والخلقِ،

لا تعرف النهاية.

※

أتذكرُ. لا غيمَ. كانت سماءُ المدينة أضفى منَ

الدمع. قلنا

نارُ أعضائنا فراشَ

والتجومُ غطاءً لنا.

※

لا أصدقُ ما قال بعضُ المحبينَ : «ما كان في الحبِّ

أوهى وأوهنُ ممَّا يكونُ»،

لا أصدقُ ما قال بعضُ المحبينَ : «ما كان في الحبِّ

أبقى وأكملُ ممَّا يكونُ».

كلُّ حبٍّ جنونٌ بهيُّ

لا تفاضلَ في مثل هذا الجنونِ.

※

رُزْتُ آثَارَنَا

بَيْنَ بَيْتِي وَبَيْتِكَ . فَوَضْتُ أَمْرِي إِلَيْهَا ،
وَتَسَنَّمْتُ عِطْرَ الطَّرِيقِ وَعِطْرَ الْمَكَانِ ،
وَتَخَيَّلْتُ أَنِّي
بِاسْمِهَا ، رُحْتُ أَخْتَطُّ تَحْتَ السَّمَاءِ سَمَاءً
كَيْ تُظِلَّ عُشَّاقَ هَذَا الزَّمَانِ .

✱

دَاخَلَ نَفْسِكَ تَمَاضِي ، تَتَوَعَّلُ . خَارِجَ نَفْسِي
أَمَاضِي ، أَتَوَعَّلُ : أَنْتَ مَقِيمٌ
حَيْثُ الشَّعْرُ ، وَأَنْتَ
لَا حَذَّ لَوَجْهِكَ . وَجْهِي
فَلَكَ دَوَارٌ
يَتَّبِعُ وَجْهَكَ أَنَّى كُنْتُ .

✱

أُضغِ . هذي خُطانَا

تتقدّم خلفَ السّياحِ ،

أُضغِ - هذا هو الجرسُ المتموّجُ

في عُنقِ الرّيحِ ،

هذا غناء المفاتيحِ ،

هذا رنين الرّتاجِ .

أُضغِ - لا شيءَ إلّا

جَسَدانَا ،

وإلّا السُّراجِ .

✱

ليتك الآنَ عندي ، قُربَ السّيرِ ،

تَرى اللّيلَ كيفَ يَجيءُ إلينا

ساكباً جِبره في الفراشِ كموجِ ،

راسماً فوقه جَسَدَينا .

✱

(١) الإشار إلى بينلوب.

أَعْطِهَا، سَيِّدِي

أَعْطِ أَعْضَائِي الْأَسِيرَةَ، أَعْضَائِي الْعَاشِقَةَ،

أَنْ تُسَافِرَ فِي هَذِهِ اللِّغَةِ الْمُسْتَسِيرَةِ،

فِي أَبْجَدِيَّةِ

أَعْضَائِكَ الْخَالِقَةِ.

✱

مِثْلَهَا أَنْسَجُ^(١) -

غَيْرَ أَنَّ عُرُوقِي سَدَاةٌ وَدَمِي لَحْمَةٌ.

عَالِيًا - أَتَرَصَّدُ أَنْوَارَهُ

وَالِى سَاعِدِيهِ، إِلَى عَرْشِهِ،

جَسَدِي يَعْزُجُ.

✱

لَا أَحِسُّ بِأَنِّي أَنَامُ، وَلَوْ كُنْتُ أُوغِلُّ فِي النَّوْمِ،

يَقْظَى

أَبَدًا بِأَنْجَذَابَاتِهِ

وَبِأَنْوَارِهِ وَدِيَا جِيرِهِ.

هُوَذَا رَأْسُهُ بَيْنَ نَهْدَيَّ،

وَالْأَرْضُ تَجْرِي إِلَى رَبِّهَا.

✱

أقرأ الآن، تلك الغصون التي تتكسرُ

في غابة الوقتِ،

عُريانةً، نديّة

والتي تتراكمُ في حقلِ أيامنا.

لم أقل مرةً إنها ذكرياتُ

لم أقل إنها غيومٌ -

قلتُ: هذي رياحٌ خفيّة.

*

باسمِهِ لِاسْمِهِ

كم أُغَيِّرُ مَسْرَايَ، كم أُنْقَلُ، كم أرحلُ

وأنا هاهنا بين جدران بيتي

خطواتي كقلبي - عالمٌ مُقْفَلٌ.

*

(١) عاش بعدها.

غالباً، أَتَخَيَّلُ أَنَّكَ بَعْدِي^(١)،

لن تعرفَ النساءَ

وَأَسْرُ بِهَذَا التَّخَيَّلِ، لكن

فَجْأَةً، تَتَوَهَّجُ فِيَّ، كَأَنَّكَ

تلمس تلكَ النِّوَاةَ التي أَتَوَهَّجُ فِيهَا،

فَأَصْرُخُ: كَلَّا،

ليكن، وَلْيَعِشْ

مثلما شاءَ، لا مثلما أشاءَ.

✱

أُتْرَاها حَيَاتِي

لا تقولُ سِوَى مَوْتِهَا؟

✱

ستكونُ لنا بعدَ ليلِ الهبوطِ
إلى آخرِ الهاويه،
في مداراتِ أخبابنا وأخلائنا
دَارَةٌ للإقامة: للشعر والعشقِ أبوابها
وأساطيرُها،
وللعاشقين وللشعراءِ نوافذُ أشواقِها
وأسرةُ أفراحِها،
ومقاماتها.

سيكونُ لنا موطنُنا
في معارجِ أسرارنا الآتية
لغةً ثانية.

✱

وَحْدَهُ مَالِكٌ لِسَانِي
واللغات التي تتفجّرُ من تحته.
وحدهُ عالَمٌ بصدري وما فيه من نعمةٍ وضيقٍ،
وحدهُ أوّلُ الطريقِ إلى صَبَوَاتِي،
وحدهُ آخرُ الطريقِ.

✱

في زُرْقَةِ الأفقِ، أسري خلفَ كوكبه
وأقرأ النَّارَ والآلامَ والمِحنَا
بَحْرٌ فَتَحْتُ له صَدْرِي، وَطُفْتُ به
أعانِقُ الأرضَ والأفلاكَ والزَّمانَا.

✱

بين عُنْقِي وصَدْرِي فراغٌ.

فراغٌ

بين دِفءِ اليدينِ ودِفءِ الهلالِ الذي يَتَمَرَأى
في مياهِ المُثَلَّثِ - أنَّى، وكيف
أقولُ لأعضائِكَ القمريةِ هذا الفراغُ،
وكيف أُهدِّمُ أسوارَهُ،
والجِواريَّ أنتَ، وأنتَ الذي يَتمَلِّكُ أسرارَهُ؟

✱

ما الذي خلفَ عينيكَ، ماذا يُسرُّ التَّغَضُّنُ
في وجنتيكَ؟ تُريدُ المُضِيَّ
إلى آخرِ التَّخومِ

أم تُريدُ التَّراجُعَ؟ قل لي،
أيُّها القمرِ المتألَّى في وَجْهِهِ،
كيف أقرأ فيه النجومَ؟

✱

زَمَنٌ مِثْلُ غَنِيمٍ يُحَوِّمُ كَالطَّيْرِ فِينَا
وَنُحَوِّمُ فِيهِ، -

حَبْنَا غَابَةً لَطِيوْرٍ

صَالِحَتْنَا مَعَ الرِّيحِ أَشْجَارُهَا.

✱

جَسَدَانَا

يَمْلَأَنِ الْمَسَاءَ بِفَوْضَاهُمَا -

يَحْفَظُ اللَّيْلُ إِيقَاعَهَا، وَيُغْنِي

لِلسَّرِيرِ أَنْاشِيدَهَا.

✱

فِي تَقَاطِيعِنَا، فِي خَطَانَا

يَقْرَأُ اللَّيْلُ سِفْرَ الدُّخُولِ إِلَى حَبْنَا

مِثْلَمَا كَتَبَتْهُ أَقَالِيمُنَا.

✱

فَكَتَبَتِ الشَّمْسُ أَزْرَارَهَا

لِلْمَغِيبِ، رَمَتْ ثَوْبَهَا

فِي يَدَيْهِ،

وَتَغَطَّتْ بِوَرْدٍ.

✱

أَتَقَاتَلُ فِي الْبَيْتِ مَعَ خَطَوَاتِي
وَأَعَاتِبُ ثَوْبِي عَلَى صَمْتِهِ .

أَتَمَدَّدُ فَوْقَ سُرِيرِي ، وَأُضْغِي :
صَوْتُ نَافُورَةٍ مِنْ عَذَابٍ
يَجِيءُ وَيَذْهَبُ فِي زَفَرَاتِي .

✱

دَعْ صَدْرَكَ ، افْتَحْهُ ، قُلْ لِي كَيْفَ يَتَّسِعُ
لِذَلِكَ الْقَلْقِ الْأَكْأَالِ يَمْخِرُهُ
لِلرَّعْدِ يَقْصِفُ ، لِلْأَمْوَاجِ تَضْطَرِعُ
وَلِلصَّحَارَى ، وَلِلرَّمْلِ الَّذِي امْرَقَتْ
فِيهِ الرِّيَّاحُ ، وَنَاءَ الرَّاحِلُونَ بِهِ
فَاسْتَسْلِمُوا ، وَانْثَنُوا يَأْسًا ، وَمَا رَجَعُوا ،
وَكَيْفَ تَجْتَرحُ الإِعْصَارَ يَلْقِفُهَا
وَكَيْفَ تَسْمُو عَلَى الدُّنْيَا وَتَبْتَدِعُ -
أَلْصَّاعِدُونَ إِلَى آفَاقِكَ انْحَسِرُوا
وَالسَّائِرُونَ عَلَى آثَارِكَ اتَّضَعُوا
دَعْ رَأْسَكَ الْآنَ يَسْتَسْلِمُ لِخَاصِرَتِي
دَعْ صَدْرَكَ ، افْتَحْهُ ، قُلْ لِي كَيْفَ يَتَّسِعُ ؟

✱

مِثْلَمَا عَلَّمْتَنِي رَوْأَهُ

أَنْ نَوْرَ الْقَصِيدَةِ يَأْتِي إِلَى الشَّيْءِ،
يَفْتَحُ أَحْشَاءَهُ وَيَسَافِرُ فِيهَا،

هَكَذَا، بَعْدَهُ

سَوْفَ أَبْدَأُ فِي شَقِّ أَحْشَاءِ هَذِهِ الْحَيَاةِ
الَّتِي تَتَرَاءَى كَمِثْلِ الضَّبَابِ
ثُمَّ أَمْضِي، أَرْدَ إِلَى الْأَرْضِ ذَاكَ الْهَبَاءِ الَّذِي
أَخَذْتَهُ رِيَّاحِي مِنْهَا،
وَأَصْعَدُ نَحْوَ الْأَقَاصِي
عَلَى سُلَمِ الْغِيَابِ.

*

أَخَذْتَنِي الْوَسَادَةُ بَيْنَ يَدَيْهَا
حِينَمَا رَحْتُ أَبْكِي،
وَأَرْسُمُ بِالْذَّمْعِ حُلُمِي عَلَيْهَا.

*

رَبِّمَا آثَرَ السَّفَرُ

وَتَشَرَّدَ كِي يَتَعَزَّى

حَبَّهُ عَاصِفٌ

وَأَقَالِيْمُهُ

شَرُّ يَسْتَشِيرُ الشَّرَّ.

*

قُلْ لِي: تِلْكَ الْغَابَاتُ الْمَمْتَدَّةُ

فِي عَيْنِكَ

مِنْ أَيْنَ أَتَاهَا غَيْمُ الْحُزْنِ؟ وَقُلْ لِي:

هَلْ وَصَلَ النَّبْعُ الطَّالِعُ مِنِّي

فِي أَهْدَابِ الْفَجْرِ إِلَيْكَ؟

*

طُرُق - ما أكثرها، ما أقربها،
ما أوسعها
وأراها قفرًا، وكلّ مكانٍ فيها
سجنٌ أو ضيقٌ.
إلا واحدة -

تأتي منك إليك
ما أبهى أن تتماذى، وتطول، وتناهى بين يديك.

✱

أمس، لما التقينا على النهر، ثم أتينا إلى البيت،
أحسستُ أنك تهبط من كوكبٍ
في قصيدة
قُلْتَها في شبّابك، -

أوغلت فيّ،
وأسلست جسمك للحب. قل لي:
هل كنت نصفك، منذ الطفولة؟ هل كنت
تبحث عني؟ قل لي:
أأنا منك أول أيامك الشريدة،
آخر أيامك الشريدة؟

✱

لا أريدُ لحلمي أن يتحققَ،
كي لا يكونَ لناري فيكَ انطفاءً،
كي أظلَّ انتظاراً،
كي أظلَّ كأني على طرفِ الجمر، أخياً
وكأني أضُمُّ شفا هُوّةٍ.
لا أريدُ لحلمي أن يتحققَ فيكَ،
لكي لا أسافرَ مِنْكَ، لأبقى
في أقاليمِ نوعي وجِنسي
أسيرةَ نفسي.

*

كلّما غابَ في وجهه ناظري
لكي أتنوّرَ أبعادهُ
والهمومَ التي تتزاحمُ فيها -
حسبْتُ كأني أَلَمُ المساءِ، أَلَمُ الصّباحِ
موجةً موجةً
مِن خليجِ الجِراحِ.

*

أنكرته المدينة -

هي في نَوْمِها
وهو في فَجْرِها
يُوقِظُ الحَبَّ فيها
والشَّموسَ الدَّفينَةَ في أرضها الدَّفينَةَ.

✱

أين يمضي، إذن؟
نَهَرٌ من جراحٍ لا مَصَبٌ له،
يتدقّق في فلواتِ السَّماءِ
جارفاً حَلَباً والفراتَ ومَيّاً فارقين، بأمواجِهِ.
أين يمضي، إذن؟
شَجَرُ الحِبرِ نَكَسَ أغصانَهُ -
أين يمضي، إذن؟
لم يعد بيننا غير تَرْحالِهِ - وخطأهِ، ووَقعِ خُطأهِ،
وطَيفِ اللِّقاءِ

لم يعد بيننا
غيرُ أنْ أنْسَلَ الوَقْتَ كالخيطِ من طيفِهِ،
ومن ذكرِهِ،
وأخيطَ الهَوَاءِ.

✱

جسدي - كم أُحِبُّ شياطينه
أَسْتَضِيءُ بِوَسْوَاسِهَا
وأفوض أمري إليها.



كيف لي أن أُمَيِّزَ بيتي بين البيوت
أو أفاضِلَ ما بين رُوحٍ وناي،
عندما لا يكون أمامي، في هذه اللحظات،
سوى بُغْدِهِ،
وسوى أن أموت.



دفاتر

(أوراق خاصة عُثِرَ عليها وأُلحقت بالمخطوطة)

«كان يستغرق في الدّرس، حتى
يمضي من اللّيل أكثره. وقال وكيل
داره: «ثم جُنّ اللّيل، فقدّمت له
شمعة، وأمرَ برفع دفاتر، وكانت
تلك عادته، كلّ ليلة».

(الصّبح المنبي: ٨٠ / ١)

1 / VIII

دفتر أيقونات

- أ -

غَيَّرَ الْحَبْرُ أَقْلَامَهُ
غَيَّرَ الضُّوءُ أَبْوَابَهُ وَقَنَادِيلَهُ
غَيَّرَ الظِّلُّ مَسْرَى خُطَاهُ، -
كَلَّهْمَ يَكْتُبُونَ تَابِينَ بِيْزْنَطِيَا
وَأَنَا عَاشِقٌ لِأَسْرَارِهَا -
أَتَبَطَّنُ أَيْقُونَةَ
وَأَسَافِرُ فِيهَا.

- ب -

يُولَدُ اللَّيْلُ فِي وَرْدَةٍ . مَرَايَا
تَتَلَاَّى بَيْنَ الظَّلَالِ . سِيَاحُ
خَلْفَهُ ، أَتَلَمَّسُ أَقْرَأَ أَيْقُونَةً ،
وَكَانَتْ
وَرْدَةٌ مِنْ جِرَاحِ
تَتَفَتَّحُ فِيهَا (أَوْ تَخَيَّلْتُ هَذَا) ،
رَأَيْتُ الْكِتَابَةَ حَمْرَاءَ زَرْقَاءَ
تَرْفُلُ فِي بُرْدَةِ الطَّبِيعَةِ
كَيْ تَكُونَ ، كَمَا يَحْدُسُ الشَّعْرُ ، لَيْلًا
لَأَيْقًا بِنَجُومِ الْفَجِيعَةِ .

أَيْقُونَةُ صَلْبٍ:

كَدْتُ أَمُوتُ . جِرَاحِي

تَتَمَشَّى تَحْتَ نَوَافِذَ . مِثْلِي

تَتَوَهَّجُ حَبًّا

لِكَنَائِسِ أَنْطَاكِيَّةٍ،

جَسَدِي بَيْتٌ لِلْأَسْرَارِ، وَحُزْنِي

جَبْرٌ أَيْقُونِيَّ .

أزُنُو إِلَيْهَا - تُرَى مِنْ أَيْنَ جِئْتُ إِلَى
أَغْوَارِهَا،

وَسَرْتُ فِيهَا خِيَالَاتِي؟
هَذِي - هُنَا صُورٌ مِنِّي، وَذَا أَثَرُ
وَهَذِهِ بُرْكَ مِنْ مَاءٍ أَغْنَيْتِي
مَحْفُوفَةٌ بِطَيُورٍ مِنْ صَبَابَاتِي،-

ذَكَرْتُ أَيْقُونَةَ كَانَتْ تُعَلِّمُنِي
أَنْ أَصْقَلَ الْأَرْضَ مِرَاةَ لِقَافِلَتِي
حُبًّا، وَأَنْ أَتَمَزَّأَى فِي مَرَارَاتِي.

في الظلال الخفيفة، عبر التوافد
تظهر أشياءها -
ما أقول لأشياء أيقونة؟

ما أقول عن الشيء، والشيء يبدخ في صمته،
وأنا المفرغ الشيء مما له
وأنا المالىء؟
ما أقول، وتحت لساني
ناطق ناصح:
كل صمت بريء
والكلام هو الخاطيء.

ربّما كانَ هذا الفراغُ مليئاً بأيقونةٍ
هي نفسي وأشياؤها .
ربّما كانَ هذا الفراغُ الخيوطَ التي
نسجت ثوبَ أحلامها .
ربّما كانَ ضوءاً عليها وضياءُ لها ،
ربّما كانَ جِسْرَ التّألّفِ
ما بينَ أوهامِها وأيامِها ، -
ربّما كانَ هذا الفراغُ طريقي إليها .

- ز -

يَوْمٌ يَلْبَسُ ظِلًّا

يَوْمٌ يَلْبَسُ خَطًّا

يَوْمٌ بَيْنَهُمَا،

يَوْمٌ عَارٍ.

أَيَّامٌ

بِشْرَارِ الْمَعْنَى، وَبِكُلِّ رَمَادٍ

مَعْجُونَةٍ،

أَيَّامٌ

تَتَطَايَرُ فِي صَمْتٍ - فِي هَذِي الْأَيْقُونَةِ.

- ح -

تَسْرَحُ الْأَزْمَنَةُ
بَيْنَ خَطِّ وَظَلِّ
تَتَقَدَّمُ فِي الضَّوِّءِ ، بَيْنَ تَعَارِيَجِهِ
وَتُمَازِجُ بَيْنَ هَوَى الْأَمَكْنَةِ
وَهَوَى الْعَاشِقِينَ .

تَلِكُ أَيْقُونَةُ
تَهْتَدِي بِتَأْوِيلِهَا
طُرُقُ التَّائِهِينُ .

(١) سبعين: قرية بباب
حلب، وكانت إقطاعاً له من
سيف الدولة. إضافة إلى
الصف، وهي ضيعة بالمعرة،
منها هرب المتنبي إلى دمشق
ومصر. أشار المتنبي إلى هذا
الإقطاع قائلاً:

«أسير إلى إقطاعه في ثيابه
على طرفة، من داره
بخسامه».

ما لنا اليوم:

لا الليلُ وشوشٌ قنديلهُ

الكلمات التي بيننا

مثلما اعتاد. ريحُ

وسبعين^(١) تهتزُّ تحت أعاصيرها،

وأنا لا مُبالٍ.

وجهُ أيقونةٍ

أتشرد في ضوئه

أبعثر، أسألُ، أحزمُ أمري

وأحاورُ في صمته ظلماتي.

- ي -

سُفُنْ مَازَجَتْهَا جِرَاحِي تَمَاهَتْ بِهَا
زَوَّجَتْ عِطْرَهَا
لِرِيَّاحِ جَرَّتْ، مَرَّةً،
بِمَا تَشْتَهِيهِ.

فَاتِنَا

أَنْ يَكُونَ لَأَمْوَاجِنَا
شَاطِئُهُ وَاحِدٌ -

كُنْتُ أَقْرَأُ أَيْقُونَةَ
وَأَعْلَمُ شَعْرِي
كَيْفَ يَأْتِي إِلَى بَيْتِهَا.

- ك -

بستانُ طيوفٍ مَفْتُونَةٌ

بوقائع - لا تتذكّر منها

إلا أشجاراً دافئةً

وسياجٌ وُرودٍ.

بابٌ محروسٌ

إِسْمُ البابِ العالَمُ واسْمُ الحارسِ

نِسيانٌ:

هل تعرفُ كيف ستقرأ هذي الأيقونة؟

(١) جاء في شروح ديوان
المتنبي أن العرب كانوا
يجترئون «على استعمال
الأسماء الأعجمية، فإن أمكن
نقلها إلى أوزانهم نقلوها».
وإن لم يمكن نقلها حذفوا
بعض أحرفها. مثلاً:
أرسطوطاليس، صارت عند
المتنبي رسطاليس، وأبرواز
أصبحت أبرويز... إلخ.
فالعرب «تتصرف في الأسماء
الأعجمية ما شاءت». (شرح
البيازجي، ص ٢٧٧،
و٢٨٧).

لا تُحاربُ. جَاءَتْ

مِنْ قُسْنُطِينَةٍ^(١)، وَمَدَّتْ

لِضَفَافٍ قَوِيٍّ يَدَيْهَا.

عَمَرَتْهَا يَدَاهُ

وَأَنَاخَتْ تَبَارِيحَهَا

بَيْنَ أَحْضَانِهِ.

تلك أَيْقُونَةُ

جَمَعَ الْبَحْرُ أَمْوَاجَهُ وَأَصْدَافَهُ وَمَرَكَبَ أَحْلَامِهِ

مِنْ شَوَارِعِ أَنْطَاكِيَّةَ،

وَأَتَاهَا إِلَى حَلَبٍ

كِي يَعَانِقَ أَحْزَانَهَا الْعَالِيَةَ.

مُصَوِّرٌ .

كأنما

مِنْ أَوَّلِ الزَّمانِ . كُلُّ ظِلٍّ
سَحَابَةٌ .

خُطوطٌ

مِثْلُ خِيوطِ مَطَرٍ مُخَيَّلٍ .

يَدَاهُ ، مَقْلَتَاهُ

مُسْتَوْدَعٌ مِنْ كُتُبٍ وَوَحْيٍ .

أَيْقُونَةٌ بَقَعَهَا بِحَبْرِهِ خِيَالِي

كأنما صَوَّرَهَا إِلَهُ ، -

هل المسيحُ لا يزالُ طِفْلاً؟

لا يُريدُ الفضاءُ الذي يتحدّث عنها
ويُوجّه فرسانه إليها،
أن يكونَ جليًّا
لا يُريد التجسّد:
لا يتمثّل في كلماتٍ، ولا يَزْتَسِم.

هي أيقونّة -
أفقٌ واسعٌ شاسِعٌ
والفضاءُ الذي أتحدّثُ عنه
مُغلَقٌ كالرّجَم.

- س -

جَبْرُهَا بَخْرُهَا

ولها أبجدية نارٍ ويايسةٍ وهواءٍ .

وبأقلامها

تتهجى أقاليمها .

يتفتح جبري

برعماً برعماً

في حدائق أيامها -

ربما، في غدٍ

يُحيطُ، رويداً رويداً، بأحلامها .

عَطَشٌ

يُجْلِسُ الشَّمْسَ فِي ظِلِّ غُضَنِ.

عَطَشٌ

يَجْعَلُ الْغَيْمَ إِبْرِيْقَ حُزْنٍ

وَيَدْلِيهِ مِنْ بُرْعَمٍ.

عَطَشٌ

مِثْلَمَا يَقْرَأُ الرَّمْلُ أَمْوَاجَهُ

وَتُخَطُّ التَّجَاعِيدُ فِي وَجْهِ نَبْعٍ.

عَطَشٌ،

أَيَّ أَيْقُونَةٍ

سَتُفَجَّرُ فِيَّ يَنَابِيْعُهَا؟

- ف -

فَاجِيءْ غَدِي، -

سَكِرْتُ عَيْنَايَ، أَيُّ رَوْيَ

تَجِيءُ، تَلْبَسُ أَهْوَائِي - مَدَى، وَصَدَى؟

ظِلَالُهَا، نَوْرُهَا مَوْجٌ وَأَشْرَعَةٌ

تَطُوفُ بِي أَمْدًا مُسْتَشْرِفًا أَمْدًا:

أَيَقُونَةٌ

ضِغْتُ فِي أَبْعَادِهَا وَلَهَا

وَرُخْتُ أَقْرَأُ فِيهَا اللَّهَ وَالْأَبْدَا.

هُودَا

سَأَوْشُوشُ بِيْزْنَطَةَ
أَنْ بَيْنَ النُّجُومِ الَّتِي تَتَوَهَّجُ فِي رَأْسِهَا وَبَيْنِي،
قُبَّةٌ مِنْ سَلَامٍ وَحُبٍّ.

هُودَا

سَأُجَاهِرُ أَنِّي أُعَاشِرُ أَيْقُونَةَ:
بِأَسَارِيرِهَا أَتَمْرَأَى
وَأُطِيلُ التَّوَعُّلَ فِي الْأَرْضِ، فِي مَا تَبَقَّى
مِنْ أَسَاطِيرِهَا.

هُودَا

سَأُجَاهِرُ أَنِّي أَعَانِقُ أَيْقُونَةَ،
وَسَأَكْتُبُ تَارِيخَ حُبِّي لَهَا وَتَارِيخَ نِيرَانِهِ
بِأَلْوَانِهَا.

- ق -

كيف لا أضطربُ
وأنا الشاهدُ يزوي ما رأى :
خَرَجْتُ أَيْقُونَةً مِنْ بَيْتِهَا
لِتَرَى النَّاسَ ، فَرَاخَتْ دَجَلَةً
تَتَغَنَّى بِهَوَاهَا
وَأَتَتْ تَحْنُو عَلَيْهَا حَلَبُ .
وَتَكْتَبُنَا لَكِي نَخْرَسَهَا
أَنَا وَالشَّعْرُ ، وَكَانَ التَّعَبُ
حَارِساً آخِرَ ،
كَانَتْ جَسْداً :
أَهَّةً نَارَ ، وَدَمْعَ ذَهَبُ
كيفَ لا أضطربُ ؟

أَلَسَّمَاءُ تَرْفُ هُنَا، بَيْنَ هَذِي الْأُظْلَةِ،
فِي شَكْلِ جَفْنٍ،

وَالنَّجُومُ لِقَاخٍ
بَيْنَ لَوْنٍ وَلَوْنٍ.

أَخَذْتَنِي، فِي دَرَجَاتِ الْفَضَاءِ،
طَيُورٌ.

وَمَشَيْتُ خَفِيفاً إِلَى غَابَةِ،-
بَعْضُ تِلْكَ الْقِيُودِ الَّتِي فِيَّ تُكْسَرُ،
وَالْأَرْضُ سَمْحَاءُ،
وَالضُّوءُ غَطَّتْهُ أَحْلَامُهُ.

سَمَنِي، أَيُّهَا الضُّوءُ، أَيُّقُونَةٌ.

- ش -

يُبْعَثُ الضَّوُّ،-

قَشٌّ وَدِيعٌ، سَنَابِلُ مُحْزَوْمَةٍ
بِأَشْعَةِ شَمْسٍ خَرِيفِيَّةٍ.
أَلْحَقُولُ صَحَائِفُ، وَالْكَلِمَاتُ بِذَوْرٍ.

يُبْعَثُ الضَّوُّ،

رُوحٌ تَرْفُ عَلَى الْحَقْلِ. نَجْنِي، نُعْبِيءُ -
مَالَ التَّهَارِ
كِي يَعُودَ إِلَى الْبَيْتِ. أَكْتَافُنَا
وَأَكْتَافُ جِيرَانِنَا
تَتَرَنَّحُ تَحْتَ الثَّمَارِ،
مِثْلَ أَيْقُونَةٍ.

تلك أيقونة:

مثل نهر عميق
حزنها مفرد بعيد تحت أمواجها.

وأريد لحزني
أن يعيش بعيداً مفرداً مثله
في قرارة نفسي.

ذهب اللون في ضفة النهر يفتح أبوابه
ويقول لمن طرّقوها: ادخلوا.
ذهب اللون عائق معراجة
ومضى يتدفق، في حزنه، باذخاً.

أَتَخَيَّلُ أَيْقُونَةً

يَكُونُ التَّخَيَّلُ فِيهَا

شَبَكًا مِنْ تَرَابٍ وَغَيْمٍ:

صُورَةً

تَتَحَدَّرُ مِنْ دُرُوَاتِ التَّخَيَّلِ

فِي لُغَةٍ وَالْهَمَّةُ، -

بَشَرًا لَا يَعِيشُونَ إِلَّا

فِي رُؤَى، فِي طُيُوفٍ

وَلَهُمْ شَهْوَةٌ الْآلِهَةِ.

- خ -

أَتَخَيَّلُ أَيْقُونَةً

لَا كَنَائِسَ فِيهَا، لَا مَسَاجِدَ، لَا هَيْكَلٌ.

أَتَخَيَّلُ أَيْقُونَةً: شُرَفَاتِ

ضَوْءُهَا دَهْرُهَا

وَعَلَى رَأْسِهَا

قَمَرٌ عَاشِقٌ، وَبَيْنَ يَدَيْهَا

شَمْسٌ حَرِيَّةٌ وَانْخِطَافٌ.

أَتَخَيَّلُ أَيْقُونَةً

لَهَا الشَّعْرُ بَدْءُ الْمَطَافِ،

وْخَاتِمَةٌ لِلطَّوَافِ.

- ذ -

ذَهَبْتُ عَلَى ذَهَبٍ، نَثَرْتُ كَأَبْتِي
فِي الضَّوءِ، وَافْتَرَشْتُ مَدَاهُ خَوَاطِرِي
تَتَلَمَّسُ الْأَلْقَ الْبَعِيدَ وَتَرْتَجِي
أَنْ يَسْتَجِيبَ مِدَادُهُ لِدَفَاتِرِي
وَفَرِحْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ مَا شِئْتُ
وَفَرِحْتُ أَنِّي كُنْتُ أَسْعَدَ خَاسِرٍ:

أَيَقُونَةُ -

أَعْطَيْتُ نَظْرَةَ وَاثِقٍ
لِفَضَائِلِهَا،
وَأَخَذْتُ نَظْرَةَ حَائِرٍ.

- ض -

- كلاً، ليس المعنى بيزنطياً

أو عربياً.

مَنْ قَالَ الشَّمْسُ تَمَدَّ يَدَيْهَا

لِلْقَيْدِ،

وَمَنْ سَيَقُولُ الرِّيحُ تَصِيرُ حَصَاةً؟

- أَأَقُولُ الْمَعْنَى نَجْمٌ حَائِزٌ

فِي فَلَكٍ دَائِرٍ؟

- ظ -

ييسطُ الصَّمْتُ جناحيه . شهابٌ

واضِعٌ أهدابُهُ تحت غيومٍ .

- ما الذي تقرأ في أيقونة؟

ما الذي تبحث عنه

في خَفَايا لغةٍ مُلتَهَبَةٍ؟

عن شرارٍ آخرٍ؟

عن دَمٍ يَسْخَرُ مِنْ سافحهٍ؟

بيتُ ألوانٍ على تَلَّةٍ عُشْبٍ:

سِرْبُ طَيْرٍ يرسم البيتَ، قناديلٌ

تَخْطُ العَتَبَةَ .

- غ -

(١) الإشارة إلى سيف
الدولة .

مِثْلَ أَيْقُونَةٍ أَرَاهُ^(١)، -

لا أَمَجَّد فِيهِ

مَا يُرَادُّ لَهُ أَنْ يُمَثَّلَ : فَارِسَ تَغْلِبَ،

أَوْ بَطْلَ الْمُسْلِمِينَ

فِي الْقِتَالِ مَعَ الرُّومِ . هَذِي

تُرَّهَاتُ

لا يُصَفَّقُ شِعْرِي لَهَا

(لَمْ يَكُنْ لِيُصَفَّقَ مِنْ قَبْلُ، لَوْلَا هِنَاتُ)،

بَلْ أَمَجَّد فِيهِ

حِسَّهُ بِالْجَمَالِ، بِفَنِّ الصَّدَاقَةِ، بِالشَّعْرِ،

وَالْغَوْصِ فِي لُجَّةِ،

وَأَمَجَّدُ فِيهِ الصَّدِيقَ الْأَمِينَ .

2 / IX

دفتر ملائكة الحبر

(١) هو الزاهي علي بن
إسحاق الذي وُصف، ولا
أعرف سبب ذلك، بأنه
«الخارج على إجماع
المسلمين». شاعر وكاتب،
كان عضواً في حلقة أدبية
حول المتنبي. من أعضائها
الشاعر علي بن دينار وابن
نباة الخطيب. ويقال إنهم
كانوا يتدارسون قصائد المتنبي
في حضرته. مات سنة
٣٥٢هـ - ٩٦٣م.

أَجْمَعَ ضَوْءٌ فِي الْمَحْرَابِ وَضَوْءٌ
يَأْتِي مِنْ أَبْوَابٍ وَهِيَ كُلُّ أُخْرَى
وَانْضَمَّتْ لَهَا

أَضْوَاءُ كَوَاكِبَ تَسْهَرُ بَيْنَ خِيَامٍ
لَا نَشْهَدُ مِنْهَا

إِلَّا مَا يُشْبِهُ لَوْنَ التَّفَاحِ عَلَى الْعَتَبَاتِ، وَقَالَتْ
لِلزَّاهِي^(١) الْخَارِجُ: أَنْتَ

صَفِيٌّ تُخَوِّمُ
لَا تَتَوَعَّلُ إِلَّا فِيهَا،
أَنْتَ قَرِينُ أَعَالٍ
سَنَنْظِلُ نَفِيءٌ إِلَيْهَا.

(١) الإشارة إلى الشاعر أبي الحسن، علي الشمشاطي (السميساطي)، نسبة إلى سميساط التي ينتمي إليها لوقيان.

كان مؤدب الأمراء الحمدانيين، واختار مع أبي محمد الفياضي من مدائح الشعراء لسيف الدولة عشرة آلاف بيت، كما يروى. مات سنة ٣٧١هـ.

نَحْوِيَّ^(١) في بستان الشعر

يَتَلَو شَجَرًا

وَيُرَتِّلُ عُشْبًا،

ويقول لسيف الدولة: أنتَ الحِجْرُ.

ويقول لماء قويق:

سيف الدولة نرجسُ هذا الدهر.

- ج -

(١) الإشارة إلى الشاعر أبي الحسن السري، الرقاء (كان في صباه يرفو ويطرز في دكان). وكان من أعداء المتنبي، ومن المتأثرين بشعره. ويقال إنه حُم حسداً من المتنبي، وتحامل إلى منزله ومات بعد ثلاثة أيام. (الصباح المنبي: ٥٦/١ - ٥٧).

كان يَرْفُو^(١) الثياب، ويرفو الكلام:

يُطرز هذا،

يزركش تلك. اشتكاني

مراراً،

ولكنه كان عدلاً،

ويُخسِنُ، فيما وراء الخصومة، ألا يُسمي

فَجَرَ القصيدة ليلاً، وألاً

يَخسَبَ القشَّ وزداً.

كان يَسكن في ظل شجري،

عاصياً، ووفياً.

(١) الكلام بلسان الشاعر
الوأواء الدمشقي، مشيراً إلى
سيف الدولة. واسم الوأواء
محمد بن أحمد أبو الفرج،
وهو مولود في نصيبين. كان
موضع ثقة سيف الدولة،
وصديقاً للمتنبّي. مات سنة
٣٩٠هـ - ٩٩٩م.

غَمَرْتَنِي^(١) عَطَاءَاتُهُ

غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَتَغَيَّرْ، بَقِيْتُ كَأَنِّي

وَرْدَةٌ فِي أَصِيصٍ.

يَعْشَقُ الْمَاءَ تَرْتِيلَ عِطْرِ

يَتَقَطَّرُ فِي خَفَرٍ وَاتِّضَاعٍ

مِنْ هَيَادِبِ أَرْدَانِهَا.

صِرْتُ خِلًا لَهُ:

كُنْتُ فِي دَارِهِ

مَوْضِعًا آمِنًا أَمِينًا

لَأَسْرَارِهِ،

وَحُبَايَا هَوَاهُ.

(١) الإشارة إلى الشاعر
كُشاجم، أبو الفتح،
محمود بن محمد. كان طبّاحاً
لسيف الدولة، كما يُروى.
مات سنة ٣٥١هـ - ٩٦١م.

طَبْنُحُ أَكْلٍ عَلَى نَارِهِ،
وَعَلَى نَوْرِهِ طَبْنُحُ شِغْرِ^(١):

ضِفَّتَا نَهْرٍ

يَتَحَدَّرُ مِنْ سُرَّةِ الْمَدِينَةِ، حَيْثُ الْمَكَانُ

جَسَدُ عَاشِقٍ

يَتَقَصَّى سَرِيرَ مِلْدَاتِهِ

فِي مَبَاذِلِ هَذَا الزَّمَانِ.

(١) هو أبو الحسن علي بن
عبد الله، المعروف بالناشيء
الأصغر. كان من علماء
الكلام، إلى جانب كونه
شاعراً. مات سنة ٣٦٥هـ -
٩٧٥م.

ماذا قال الناشيء^(١) أمس؟ وماذا
سيقولُ غداً غدٍ؟
يتكلم؟ أسأل:

هل للأسود حبٌّ أزرق؟
أترى، يَرثُ الوردُ؟ وهذا الزُّنبقُ
هل يتوضأ دونَ حجابٍ؟
والتفاحُ، أيفتَى فيه، إن قال الشاعر عنه:
هذا نَهْدٌ لم يعرفْ آيةً أفعى؟
والترجسُ؟ هل يتزوج، أم يكفيه
أن يستمتع، أو أن يعشق؟

قُلْ، يا ناشيء. ماذا؟ حسناً،
سنراك غداً غدٍ،
وسنُضغي.

(١) الإشارة إلى عيسى
الرَّقِيّ، الطبيب المنجّم،
وأحد مشاهير المترجمين من
السريانية إلى العربية.

أَعْطَنِي وَرْدَةً، وَقَلْ لِي^(١):
مَا الدَّمُ الْمَتَسَرَّبُ مِنْهَا إِلَيَّ،
وَمَنْ أَيْنَ لِلشَّعْرِ أَنْ يَتَقَرَّى
تُؤَيِّجَ هَوَاهَا وَأَنْ يَفْهَمَهُ؟

لَا فَصَاحَةٌ. لَيْلُ الْعِبَارَةِ عِبَارَةٌ مُبْهَمَةٌ
وَالَّذِي قَالَه الشَّعْرَاءُ وَمَا سَيَقُولُونَهُ،
تَرْجَمَةٌ

مَا تَبَقَّى غِيُوبٌ
تَتَلَعَّثُمْ، أَوْ تَمْتَمُهُ.

(١) الإشارة إلى الشاعر ابن
نباتة السعدي، (أبو نصر،
عبد العزيز بن عمر). مات
سنة ٤٠٥هـ - ١٠١٤م، وكان
ممن تأثروا بشعر المتنبي،
تأثراً قوياً.

لمواعيدها

تخرج الكلمات فرادى إليه^(١)

من بيوتاتها، -

موعدٌ لقراءة ما رسمته

في الدروب التي قطعتها،

موعدٌ لأسرة أهوائها،

موعدٌ للتنزه بين الحقول التي تصطفها

لنبات الصور،

موعدٌ لاقتصاص الأثر.

(١) هو أبو بكر الخوارزمي،
محمد بن العباس، كان
عالماً، وجاء من تركستان إلى
حلب، لمزيد من العلم. مات
سنة ٣٨٣هـ - ٩٩٣م.

تركستانُ إناءً

لورودِ لا تبلى
وأبو بكر^(١) فيه
أغنى لون،
وهواه أطيّب وزد.
أعطته حلب ما لم تقدر أن تُعطيه
مدن أخرى في ذاك الوقت: حدوس
تجسّد في أدوات،
أدوات
تدخل في الأشياء كمثل النبض
كي تنقضى
سرّ الكون ووجه الأرض.

- ي -

(١) الإشارة إلى علي بن
دينار، الخطاط والشاعر،
وكان عضواً في حلقة أصدقاء
المتنبي.

ماءٌ عَذْبٌ - فلماذا
لا يُنتج إلا عطشاً
لمزيدٍ منه؟
لُغَةٌ تَرْقُصُ بين يديه^(١) :
قَلَمٌ يَكُرُّ وكَلَامٌ
جَسَدٌ عَارٍ -
لَيْلٌ يَتَمَدَّدُ في أَحْضَانِ الفَجْرِ.

وتَحَارُ: أَتَلَكَ شَطِوْطُ
أَمْ تَلَكَ وَسَائِدُ مُدَّتْ
لِمَلَاكِ الْحَبْرِ؟

(١) الإشارة إلى أبي عبد الله
محمد بن علي، الشاعر،
الملقب بالشيخ الخليع
الشامي.

أيهذا المطوّقُ بالنّار - نارِ التّشوّقِ
والوَجْدِ، يا شيخنا الخليع^(١)،
ما أجَلَّكَ، أشعلتَ للشّهواتِ قناديلها،
وأجّجتَ بركانها.

ما أبرّكَ، أعطيت للأرضِ،
حقَّ السّماءِ،
وللدّهْرِ حقَّ الرّبيعِ.

(١) الإشارة إلى ابن نُباتة الخطيب أبو يحيى عبد الرحمن بن محمد، وكان خطيب سيف الدولة. مِنْ أهل مِيفارقين. ويقال إن خطبه تُتلى حتى اليوم في المساجد، أيام الجمع. مات سنة ٣٧٤هـ - ٩٨٤م، وكان عضواً في الحلقة التي أنشئت لدراسة شعر المتنبي.

لم تكن نافخاً^(١) في زجاج الكلام،

تَبَصَّرَتْ،

كالعطر يَأْرَجُ، كالعضفِ يَجْتَثُّ،

عينُ البصيرة فيك،

وعينُ الشهادةِ نجمانِ: فَنُّ وحبٌّ.

طَبَّقَ مِنْ نَبِيذٍ وَخُبْزٍ

كلماتك،

والشعر بيتٌ لها.

(١) حوار بين سيف الدولة
والشاعرين اللذين كانا يغاران
من المتنبي كثيراً، ويحاربانه،
وهما عثمان وأبو بكر،
المعروفين بالخالدين.

- غَالَيْتَ^(١) كثيراً،

أَفْسَحَ لِسْوَاهُ

كي يَكْتَبَ شعراً أَفْضَلَ مِنْهُ.

- حَسَنًا. هَذِي وَاحِدَةٌ

ليست بين قصائده، الْفُضْلَى.

هل عندكما أَفْضَلُ منها؟

...-

صَغُرَا، صَغُرَا وَأَنْهَارَا

خَرَسَا وَاسْتِخْدَاءَ.

(١) هو أبو عبد الله الحسين بن خالويه كان مؤدباً لأولاد سيف الدولة، ويغار من المتنبي ويحاربه. وقصته معه في بلاط سيف الدولة مشهورة. مات سنة ٣٧٠هـ - ٩٨٠م.

قال له المتنبي:
«ويحك، أيها الأعجمي لم يبق إلا أنت تخوض في العربية». فلم يحتمل القول وضربه بمفتاح في يده. لم ينتصر له سيف الدولة، ولم يحرك ساكناً. كان ذلك آخر يوم من تسعة أعوام أمضاها مع سيف الدولة. وكان عمره اثنين وأربعين عاماً.

عَجَباً! خَالَوِيهِ^(١) تَخَيَّلَ أَنِّي غَرِيمٌ لَهُ!
يَتَجَرَّأُ، يَرْمِي جِبِينِي بِمِفْتَاحِهِ
وَعَلَيَّ يَرُوزُ وَيُضْغِي.

لَمْ أَحْرَكْ لَهُ سَاكِنًا:
رَاسِخٌ مِثْلَ طَوْدٍ.
سَيُقَالُ الْبُغَاثُ يَنَاطِحُ صَقْرًا
وَالْبَعُوضَةُ حَطَّتْ عَلَى وَجْهِ نَبْعٍ.
سَيُقَالُ الْمَدْرُ
دَبَّ كِي يَتَسَلَّقُ جَذَعَ الْقَمَرِ.

(١) هو عبد الواحد بن علي
الحلبي، وهو الذي انتصر له
المتنبي في نقاشه اللغوي مع
ابن خالويه في بلاط سيف
الدولة. قتل في دخول
الدمشق إلى حلب، سنة
٣٥١هـ - ٩٦١م.

لأبي الطيّب^(١) اللّغوي
يتداعى الكلام، يجمع أزهاره
من حقول الروايات، يأتي إليه
وينزل في روضه البهي.

هو مِمَّنْ أحدث عنهم وأكني
بهم عنهم، أحاربُ أكشفُ وجه الزمانِ الصّغيرِ
وأدوّن أهواله
ببروقٍ تخيّرتها وتعهدتها
كي تكونَ التّفيرَ التّذيرَ.

(١) الكلام بلسان الفلكي أبو
صقر عبد العزيز بن عثمان
القابسي، الذي عاش في
بلاط سيف الدولة.

كَانَ ظَنِّي^(١) أَنِّي أُسِيرُ إِلَى فَلَكٍ
أَتَخَلَّصُ فِيهِ

مِنْ سَلَاسِلِ أَوْهَامِي الْبَارِدَةِ.
كَانَ ظَنِّي أَنِّي أَنْضَمُّ لِلْوَافِدِينَ الضِّيُوفِ
عَلَى الشَّمْسِ، فِي بَيْتِهَا
وَأَجْلِسُ ضَيْفًا إِلَى الْمَائِدَةِ
كَانَ ظَنِّي سَجَنِي،-

صِرْتُ أَضْحَكُ مِنِّي، وَأَنَا جَالِسٌ
وَأَنَا سَائِرٌ. وَقَالُوا:
فِيهِ مَسٌّ. وَقَالُوا:
هُوَذَا! فَلَكِي مِنَ الْجَنِّ يَهْذِي!

- ف -

(١) عبد الواحد بن نصر
المخزومي، من شعراء سيف
الدولة، وكتابه. كان صديقاً
للمتنبى. ولد في نصيبين،
ومات سنة ٣٩٧هـ -
١٠٠٧م.

الصديق أبو الفرج البغاء^(١)

ينسج الفجر ثوباً

للصداقة ما بيننا

ويقول: سأكسو به الكلمات،

وأكسو النهار، وأكسو المساء.

ويقول: غداً،

سوف أنسج ما لا أقول،

وما لا يقال،

لغير الأحبة والأصفياء.

(١) الشاعر والثحوي أبو
العباس أحمد بن محمد
الدارمي المصيصي، المعروف
بـ النامي يُخاطب سيف
الدولة. كان من خواصه
ومداحيه، وكان له تلامذة
كثيرون في حلب. وهو من
أعداء المتنبي. مات سنة
٣٧٠هـ - ٩٨٠م. وقيل في
رواية، سنة ٣٩٩هـ -
١٠٠٨م.

جاءه، مرّة،

وجهه، غضباً، مرّجلاً:

- كيف، يا سيدي^(١)

تحتفي بإبن عيدان أكثر ممّا

تحتفي بسواه، وبـي أولاً؟

- لم تقل قوله،

لم يقل أحدّ قوله:

«يعود من كلّ فتح غير مفتخر

وقد أغدّ إليه غير مُحْتَفِلٍ.»

إنه الشاعر الأوّل.

لم يكن ضغنُ الدارميّ

غير أمثولة:

كان فرعاً تفتّق مني وسيفاً عليّ.

- ق -

(١) الإشارة إلى أحمد بن فارس (أبي علي الحسن بن أحمد الفارسي)، العالم اللغوي المشهور، وأستاذ ابن جني، مات سنة ٣٧٧هـ - ٩٨٧م.

يَسْتَضِيءُ^(١) بِمِراثِهِ،

يَتَبَصَّرُ، نَحْوًا وَصَرْفًا

قارئاً عَتَمَاتِ الحُرُوفِ، وَأَصْوَاتِهَا،

وَالنِّظَامَ.

هوذا يَتَنَوَّرُ تَارِيخُهَا، -

يَرُوحُ وَيَعْدُو

فِي أَقَالِيمِهَا وَمُنَاخَاتِهَا،

وَيَقُولُ اهْتَدِثْ لِسِرِّ الكَلَامِ.

(١) الحارث بن أبي العلاء، سعيد. اغتيل أبوه أمامه، وهو في الثالثة. عامله ابن عمه سيف الدولة كاتب له، وعلمه. ولأه على منبج وهو في السادسة عشرة من عمره. قتل سنة ٣٥٧هـ.، وكان في السابعة والثلاثين من عمره (٩٦٨م). وقيل: قتله ابن سيف الدولة. كان المتنبي يشهد له، ويخشاه في الوقت نفسه، كما يروي المؤرخون. قبل أسره، كان أبو فراس يعيش كإقطاعي، موزعاً وقته بين الصيد، واستطلاع البدو، والشعر.

(٢) قال أبو فراس يوماً لسيف الدولة: «إن هذا المتشذق كثير الإدلال عليك. وأنت تعطيه، كل سنة، ثلاثة آلاف دينار عن ثلاث قصائد. ويمكن أن تفرق مثني دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره». (الصبح المنبي).

لأبي فراس^(١)

دَيْنُ عَلِيٍّ - أنا الوفيُّ، أقولُ:

شِعْرُ أَبِي فراسٍ

شُهْبٌ، ولكن لا فضاء لها، ودَمْعٌ

يحلّو إذا ذرَفَتْهُ ثَاكِلةٌ، وماءٌ

لا ماءً فيه. أبو فراسٍ

طِفْلٌ بَكَى.

وأنا الوفيُّ، شكوتُ - أحضن حُزْنَهُ

لَمَّا شَكَا^(٢).

(١) سبقت الإشارة إليهما.

في شرح العكبري
(١: ٤٣٤): «أنَّ الخالديين أبا
بكر وأخاه عثمان قالا لسيف
الدولة إنك لشغالي في شعر
المتنبي. اقترح علينا ما شئت
من قصائده حتى نعمل أجود
منها. فدافعهما زمناً، ثم كزرا
عليه فأعطاهما القصيدة التي
مطلعهما:

لعينيك ما يلقي الفؤاد وما لقي
وللحب ما لم يبق متي وما
بقي.

فلما أخذها قال عثمان
لأخيه أبي بكر: ما هي من
قصائده الطنانات، فلأني شيء
أعطاناها؟ ثم فكرا، فقال
أحدهما لصاحبه: والله ما أراد
إلا هذا البيت:

إذا شاء أن يلهو بلحية أحمق
أراه غباري، ثم قال له الحق.
فتركها القصيدة، ولم
يعاوداه، ولم يعمل شيئاً.

ربما يعرفُ الخالديان^(١)، أنَّ التوافدَ
ليست رياحاً.

ألهذا، إذن، يجهلانُ

أنَّ وجه المكانُ

زمنٌ آخرٌ لشعري؟

كتب الخالديان شغريهما

فوقَ خَدَيِ بساطٍ،

والقوافي كما ورثاها

والدروبُ إليه، كما مُهدت.

(١) هو ابن جَنِّي المملوك، من كبار أئمة الأدب والنحو وعلوم العربية، تتلمذ على ابن فارس وحين فارقه، وأخذ يعلم، قال له: «زَبَيْتَ وَأَنْتَ حَصْرَم»، فترك التعليم وتبعه حتى أتقن العربية وعلومها. سئل المتنبي مرة عن إعراب بيت له، فقال للسائل: «لو كان ابن جني هاهنا، لأجابه». وروي أنه كان يقول: «ابن جني أعرف بشعري مني». شرح ديوانه وسمّاه «الْقُسْر». مات سنة ٣٩٢هـ - ١٠٠٢م.

كان أبوه جَنِّي^(١)

مملوكاً من أبناء الرّوم - وما أكرمه

أعطانا

ملكاً في النّحو، وفي آداب اللّغة العربيّة

كان محيطاً

بفنون القول، ويعرف شعري خيراً مني.

يؤسفني

أنّ لساني

لا يقدر أن يفصح عني

لأحييه

وفقاً لأصول اللّغة الرّوميّة.

- ث -

(١) مات سنة ٣٣٩هـ -
٩٥٠م، قتله لصوَصٌ في
الطريق. صُلِّي عليه سيف
الدولة، ودفنه في دمشق.
صلب قاتلوه حول قبره.

هوذا الفارابيُّ^(١) أميرٌ
في ملكوت الفكر، وفي بستان الموسيقى
والشعر، يُواخي
بين ضفاف العقلِ ومَوْج القلبِ،
وينطقُ حَدْساً
كي يكتبَ رَمْزاً.

أفكر أخٍ للشعر، وكلُّ مقالٍ
صورةٌ خَلِقَ للأشياء، وطِينُ ثانٍ
لخلائقٍ أُخرى.

- خ -

(أُسْئَلَةُ إِلَى الْفَارَابِيِّ)

أَعْرِفُ : «الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي» ، وَلَكِنْ
ضَائِعٌ ،

بَيْنَ رُوحِي وَرَبِّي - لَا هَذِهِ تَتَرَاءَى
وَلَا ذَاكَ يَدْنُو .

كَيْفَ أَحْيَا ضِيَاعِي ؟
كَيْفَ لِي أَنْ أَقْطِرَ مِنْ ظِلْمَتِي شِعَاعِي ؟
أُتْرَانِي - أَكْتَفِي أَنْ أَلَامِسَ هَذَا الْحَجَرُ
وَأَسْأَلُ أَتَى ، لِمَاذَا ، وَكَيْفَ انْفِطَرُ ؟

أَمْ تُرَانِي أَظِلُّ أَوْشُوشَ نَفْسِي :
مَعْنَاكَ مَوْجُ
يَتَمَزَّقُ فِيهِ شِرَاعُ الصُّوَرِ ؟

- ذ -

(١) الإشارة إلى الخليفة
العباسي الواثق.

(رسالة إلى الفارابي)

أَمْرٌ

أَسْأَلُ رَأْيَكَ فِيهِ:

«بين يديه»^(١)

رجلٌ مضروبُ العُنُقِ، وكان الضَّارِبُ

يمسحُ بالمضروبِ السَّيْفَ. ذُهِولٌ:

- يا مولانا، مَنْ هذا؟

- كان يقولُ: «القرآنُ كمثُلُ العالمِ، مَخْلُوقٌ.

قُرْبَى لِلَّهِ، أَمَرْتُ بِقَتْلِهِ،

لا عَفْوٌ عَنْ شَخْصٍ مِثْلِهِ».

- هل كنتَ سَتَقْتُلُهُ،

أم كنتَ سَتَعْفُو عَنْهُ؟

- ض -

(رسالة إلى فيلسوف آخر،
بوساطة الفارابي)

السَّماءُ التي قلتَ عنها

إنَّها أنهرٌ وبيوتٌ

وعقولٌ تفيضُ الملائكُ منها

بعضها جامدٌ باردٌ

بعضها عاشقٌ مُستَهامٌ،

والتي قلتَ: فيها نساءٌ

هُنَّ فاتحةُ الفاتحينَ فضاءَ الوجودِ،

ومِسْكُ الخِتَامِ

كلُّ هذا الذي قُلْتَهُ

ليس إلاَّ طيوفاً

تَنشأُ تحتَ جفونِ الكلامِ.

- ظ -

(رسالة إلى الفارابي)

لا تقل لي من أين جئت، ولا كيف؟
لا أتوقع من غيم هذا السؤال المطر.
هل يقول الأريج لماذا
يتفتق عنه الزهر؟
هل يدلك جرح
على كنزه المدخر؟
والنجوم التي تتراءى
مرة من غبار
مرة من شرر،
لا تقول سوى صمتها.

أنبيئ تری بعد هذا وذلك، يمكن أن ينتظر؟

- غ -

(رسالة إلى الفارابي)

حَلَبٌ عَلَّمْتَنِي،

أَنَّ بَغْدَادَ مَسْكُونَةٌ بِدَمَشْقٍ.

هكذا، مثلك الآن، أبنِي

وطناً لأثينا

بين شِعْري وبَيْنِي.

3 / X

دفتر لِّلَّيل الأعضاء

«أخبرني أبو الفتح عثمان بن جني
أنَّ المتنبي أسقط من شعره الكثير،
وبقي ما تداوله الناس».

(نزهة الألباب: ٣٦٦)

«شوهدت بين يدي بعض العلماء
نسخ من الديوان (ديوان المتنبي)
بخط المتنبي وتصحيحه».

(العكبري ٢: ٣٠٦، ١٢٣، وذلك
أثناء وجود المتنبي في بلاط سيف
الدولة.)

(١) كان المتنبي فيما يرى
بعضهم يحبّ خولة، أخت
سيف الدولة. ويعلّق
الواحدي على بيت له في
قصيدته التي رثاها بها،
وهو في الكوفة سنة
٣٥٢هـ قبيل مقتله
بسنتين: «أساء في ذكر
حسن مبسم أخت ملك،
وليس من العادة ذكر
جمال النساء في
مراثيهن».

وقال ابن جني، في هذا
الضدد: «كان المتنبي يتجاسر
في ألفاظه جداً». وقد سبقت
الإشارة إلى ذلك.

والبيت المشار إليه هو:
«يَعْلَمَنَّ، حين تُحْيَا حَسَنَ
مُبَسِّمَهَا
وليس يعلم إلا الله بالشئ». ^١
وفي القصيدة يقول:
«أَرَى العِرَاقَ طَوِيلَ اللَّيْلِ، مُذْ
نُعِيتُ...».

كيف لي أن أصوّر حبي لها^(١)،
كيف لي أن أسمى ما لا يُسمى؟
ولهي أن أذوق،
وحين أُعبرُ، أوميءُ
لا شيء غير الإشارة.
هكذا، سأظلُّ أحيي الغموض -
غموض العلامات ما بيننا
وغموض العبارة.

- ب -

«يا معلّم أحشائنا . . .»

هكذا تسكب اللّيل في صدرها

وتسائلُ وجه القمر:

هل سألت الكواكب عن آخر الكلمات

التي همستُها له؟

هل كتبت إلى المدّ والجزر

أني فوّضتُ جسمي

ومحيطاته وأمواجه

إلى السيّد المُتَظَرِّ؟

- ج -

لم يكن مرّةً ليلنا
يتفكر، أو يذكرُ
كان يَسْهَرُ، يأتي، يَروحُ كما يتلألُ نجمٌ،
وكما يَسْهَرُ.

كان ينسى - دائماً يَبْدَأُ الطَّرِيقَ
ويَبْدَأُ أَهْوَاءَهُ،
ويُشير، وَيَسْتَنْفِرُ،
ويقول لنجم الطَّرِيقِ اهْدِنِي
أيها السَيِّدُ الجَسَدُ النَّيرُ.

أَغْرَقْتَنِي ، وَمَلَكْتَ الْمَوْجَ وَالْغَرَقَا
يَا مَالِي غِبْطَةً ، يَا مَالِي قَلْقَا
أُغْوِي بِكَ اللَّيْلَ - يَزْهُو بِي ، وَيَأْخُذْنِي
أَخْذَ الْعَزِيزِ ،
وَأُغْوِي بِاسْمِكَ الْأَفْقَا

لَبِستُ وَجْهَكَ أَسْتَجْلِي بِهِ طُرْقِي
وَرِيحَهَا ، وَلَبِستُ الرِّيحَ وَالطُّرْقَا.

(١) شَمِيلَة هي، كما يروي المؤرخون، أول امرأة في الإسلام لبست المصْبِغات وعملت الشفوف وعبأت الطَّيب، تزوجها ابن عباس.

لِشْمِيلَةَ^(١) يَأْرُجُ فِي مَهْدِ عُشَاقِهَا

طَيُّهَا، كُلَّ لَيْلٍ.

(٢) هو سليم بن عمرو الخزاعي وكنيته أبو غبشان، كان سادناً لخزاعة على مكة. يروي أنه باع لقريش مفاتيح مكة، ببيعير وزق من الخمر.

لِسُلَيْمِ بْنِ عَمْرِو^(٢)

لِمَفَاتِيحِ مَكَّةَ يَبْتَاعُهَا قُصَيٌّ

بِبيعيرٍ، وَزِقٌ مِنَ الْخَمْرِ،

أَزْرَعُ فِي جَنَّةِ الْجِرَاحِ

وَرْدَةً، بِاسْمِ هَذَا الصَّبَاحِ.

بِضَفَائِرَ لَمْ يَعْرِفِ الصَّبَاحُ
كَيْفَ يَجْمَعُ أَطْرَافَهَا،
يَتَوَشَّى الطَّرِيقُ إِلَى بَيْتِهَا،
مَا الَّذِي فِيَّ يَعْلُو وَيَسْقُطُ، يَمْضِي وَيَأْتِي؟
خُطَوَاتِي أَدْغَالُ طَيْرٍ -
يَتَقَدَّمُ نَحْوِي جَنَاحُ
وَيَنْفِرُ مِنِّي جَنَاحُ.

(١) «كان المتنبي إذا شُغِبَ في مجلس سيف الدولة، ونحن إذّاك بحلب نذكر له هذا (أي قرآنه) وأمثاله، ممّا كان يحكى عنه، فينكره ويجحده، قائلاً: «إنّما يدعوني بالمتنبي من يريد الغضّ مني، ولست أقدر على الامتناع». (أحد ظرفاء تلك العصبة ضده، تاريخ بغداد: ١٠٤/٤).

تلك حَرْبٌ (ونعرفُ أسرارها)

لم تكن مرّة حَرْبِنا.

حَرْبُنا وَردّة نُحرّر عِطْر اللّقاحِ الذي يتوَّثَّبُ فيها،

وينابيعُ نُفِلَتْ أُمَواجُها

وخمائِرُ وَجَدِ وشوقِ

ندلّ عليها، ونُغري بها.

حَرْبُنا أن يكونَ الجَسَدُ

أبداً آخرّاً لِلأَبَدِ^(١).

لَا، لَا مَكَانَ يُؤَاخِيهِ سِوَى دَمِهِ
يَشْطُ فِيهِ، وَإِلَّا خِيْمَةُ الْأَرْقِ
يُرَاقِصُ الثَّلَجَ - فِي أَطْرَافِهِ لَهَبٌ،
وَيَحْضُنُ الْفَجَرَ - مَرْسُومًا عَلَى الْغَسَقِ.

قُلِ الرِّيَّاحُ صَوَارِيهِ، وَقُلِ غَدُهُ
سَفِينَةٌ مَزَجَتْهَا الشَّمْسُ بِالْأُفُقِ.

أَلْعَزِيزُ الْمَشْرَدُ يَشْكُو لِأَوْرَاقِهِ :

«قَاعِدٌ، وَقَمِيصِي لَيْلِي، أَعْلَمُ لَيْلِي

أَنْ يُخَيَّلَ حَالِي قَمِيصاً لَهَا

يَتَحَوَّلُ فِي كَيْمِيَاءِ مَدَارَاتِهَا،

وَيُلَابِسُ أَسْرَارَهَا.

كَأَدَ نَجْمٌ يَجْرُ خُطَاهُ

فِي الْمَدِينَةِ، تَحْتَ الْقَنَاظِرِ، فِي الشُّرَفَاتِ الْحَزِينَةِ

كَأَدَ أَنْ يَتَغَنَّى كَمَثَلِي :

«مَا أَمْرُ الْمَسَافَاتِ بَيْنِي وَبَيْنَ الْمَدِينَةِ،

مَا أَبْعَدَ الْمَدِينَةُ».

(١) كان أعداء المتنبي
يشيرون في تهجمهم عليه إلى
قضايا فلسفية في شعره،
ويتخذون منها دليلاً على
إلحاده - كالسوفسطائية،
والتناسخ، والشيوعية،
والمناوية، وإنكار البعث... إلخ.
ويعزون هذا إلى تأثره
باليونان وفارس، والفرق
المنشقة.

قِيلَ عن رَجُلٍ تَتَعَشَّقُ أَعْضَاءُهُ:

كَافِرٌ، مَارِقٌ^(١).

خَشِيتُ، أَنْ تُصَلِّيَ

بَعْدَ ذَلِكَ، أَوْ أَنْ تَمُدَّ يَدَيْهَا إِلَى شَعْرِهَا

أَوْ إِلَى صَدْرِهَا.

خَشِيتُ أَنْ تَسَافَرَ فِي صَوْتِهَا

نَحْوَ أَعْضَائِهَا.

بَيْنَنَا، حِينَ يَمْضِي كَلَانَا، وَيَفْتَرِقُ الْعَاشِقُونَ،

عَدُّ عَاشِقٍ

أَيُّهَا السَّيِّدُ الْمَارِقُ.

- ك -

طُوبَى لِمَدَاهُ
لِلرَّيحِ تَجَرَّ خِيُولَ هَوَاهُ،
وَلَيَتَغَيَّرُ، مَهْمَا شَاءَ.

سَأَجَانِسُهُ
وَتَصِيرُ خُطَايَ خُطَاهُ
وَأُوَافِقُهُ
فِي مَا سَرَّ، وَفِي مَا سَاءَ.

- ل -

كيف أتيت، وكيف وصلت؟
من أيّ جسرٍ للظنّ عبرت؟
ما أشهى هذا الثوبَ عليك،-
أغمُرني فيه، خُذني
خُذ أعضائي، خُذ آهاتي
أين رحلت، وأين حللت.

في جراحي، جراحيك، ما لا يُقال وما لا يُضَاء،
غير أن الشموع التي عرفتنا، روثنا
لأَيامها ولأحزانها،
والوسائد واللُّحَف البيض والزُّرَق،
والعَتمات التي خانت الشموع، روثنا
لأَيامها ولأحزانها - فلماذا
تتركين الجنون يفرّ ويهجر أعضاءنا،
ولماذا البُكاء؟

لم أكن مثلما شئتني

لم تكوني

مثلما شئت. كوني

بينَ هذا وذاكُ

ما تشائينَ -

أكرهُ فيكِ التَّحِيرَ،

أكرهُ فيكِ السَّمَاءَ، وَجَنَاتِهَا،

وأكرهُ فيكِ الملاكَ.

- س -

تلك خيام، أم كُثبان؟
جُثث، أم أطلال؟
مَنْ أسأل؟ أَيْةُ لفظه
تتقصاني
وترجم حالي
في هذي اللحظة؟

لا، لا أحد
والوقتُ أنينٌ
والأرض جراحٌ تطردُ.

روميّة -

تركتّه هائماً دَنفأً
يحيا، يقولُ: «بلا شمسٍ ولا أفقٍ
أحيا، كأنّ لا يدي مِنّي، ولا كِبدي».
مَضَى إليها، سرى ضوءاً، سرى نَسْماً
ومات، مِنْ شَغَفٍ عالٍ وَمِنْ كَمَدٍ

لم يَشْكُ،
لم يَبْكُ،
لم يُومِئْ إلى أحدٍ.

(١) قال الثعالبى في «يتيمة
الدهر» (٥٤/١): «كان لسيف
الدولة جارية من بنات الزوم
لا يرى الدنيا إلا بها، ويشفق
من الريح الهابة عليها،
فحسدها سائر خطاياها على
لطف محلها منه، وأزمعن
على إيقاع مكروه بها من سُم
أو غيره. وبلغ سيف الدولة
ذلك، فأمر بنقلها إلى بعض
الحصون احتياطاً على
روحها».

هي رومية^(١)

تذوق في الشرق أغواره،
وأنا؟ من أسائل عمن أنا؟

يلتقي عاشقان: التواضل بينهما لحظتان

لحظة كل شيء حضور

كأن المكان

لجة في جسد،

لحظة لا أحد.

وَضَعْتَ آخِرَ اللَّيْلِ فِي قَلْبِهَا، وَكَانَتْ
وَضَعْتَ أَوَّلَ اللَّيْلِ فِي سَاعِدَيْهَا.
أَيُّهَا الْحَلَمُ، رَفْرِفْ بِرَفْقٍ
طَوِيلًا طَوِيلًا عَلَى مُقَلَّتَيْهَا.

شَعْرَهَا مُرْسَلٌ فَوْقَ وَجْهِهِ
وَلَمِيعَادُهَا شَكْلُ ظَنِّي - مَمْتَزَجًا بِالْجِرَاحِ:
إِنَّهَا شَمْسُ هَذَا الصَّبَاحِ.

- ق -

رُؤْسُهُ فِي يَدِ

سَيْفِهِ فِي يَدِ،

وخطاهُ إِلَى بَلَدِ آخِرِ.

غَيْرَ أَنَّ هَوَاهُ، رَوَاهُ، وَأَشْوَاقَهُ

تَتَكَبَّبُ فِي مَوْضِعِ آخِرِ

وَتَكَبَّبَ عَلَى جَسَدِ آخِرِ

لِغَدِ آخِرِ.

عَادَ مِنْ غَزْوِهِ

رَجُلُ الْحَرْبِ، يَجْثُو

فِي مُحَارِبِ زَوْجَتِهِ الْعَاشِقَةِ

يَتَطَهَّرُ فِي نَارِهَا الْخَالِقَةِ.

أتخيل ذاك المساء، وأشرُدُ:
منديلك الآن عند الوسادة حيث جلسنا.
مُخدَعٌ - كنتِ تأتين، تروين فيه لليلي
أسرارَ ليلى. منديلك، الآن،
يرشح بالعطر، عطر اللقاء، وعطر الغطاء،
وعطر العراء.

أتخيل: منديلك الآن يُصغي لما كان جرحي
يوشوش جرحك، ذاك المساء.

- ش -

لو كان اللّيلُ كمثلي
لَتَنَوَّرَ جِسْمُكَ عَضُوءاً عَضُوءاً
وَلَمَّا أَغْمَضَ عَيْنَا
إِلَّا بَعْدَ مَرُورِكَ فِيهَا
وَلَقَالَ لِكُلِّ جُزْيَةٍ فِيكَ وَفِيهِ:
لِلْهَذْيَانِ الضَّارِبِ فِي أَعْضَائِكَ، أَمْنَحْ عَقْلِي.

لو كان اللّيلُ كمثلي.

- ت -

نامتِ المرأةُ العاصِفةُ
نامتِ الشُّرُفاتُ العصيّةُ في قَصرِها،
ونَوَمَ حَرَّاسُها
والمدائنُ نامَت، ونامت ميادينُها
وأفراسُها.

وحده، ساهِرٌ
عاشقاً، يرصدُ اللَّحْظَاتِ، ويزرعُ ما حوله
بتباريحه الجارِفة.

- ث -

تحلم، تُعطي نَهْدِيهَا
لأصابع ليلٍ لا تعرفهُ.
تعطي رثيها
لهواءٍ لم تعرفهُ.
تحلم، تعرف أنَّ أثيرَ هَواهُ
كونٌ طيارٌ.

تحلم، توقن أنَّ الحلمَ سيأتي
وسيلبسُ هذا الجسدَ المنشورَ كَقَمَحٍ،
في حَقْلِ اللَّهِ.

- خ -

هِيَ، مِثْلَ الْيُنَابِيعِ، تَرْفُلُ فِي مَاءِ تَرْحَالِهَا
وَتَلَمَّ طَيُورُ مَسَاءَاتِهَا
حَوْلَهُ،

وَتَلَمَّ الزَّهَرُ،
وَتَقُولُ الْجَنَاحُ
لُغَةً وَطَرِيقٌ وَوَعْدٌ.

وَهُوَ، مِثْلَ الْجِبَالِ وَمِثْلَ الشَّجَرِ،
لَا يِعَانِقُ إِلَّا الرِّيحَ.

- ذ -

فاطمة

جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ

طَافَ فِي ظِلِّهَا

وَتَزَوَّدَ مِنْهَا قُبَيْلَ الرَّحِيلِ .

فاطمة

زَوْجَةُ الْفَارِسِ الَّذِي مَاتَ فِي غَزْوِهِ :

السَّمَاءُ عَلَى وَجْهِهَا تَتَمَرَّقُ ،

وَالْأَرْضُ فِي صَدْرِهَا هَائِمَةٌ .

- ض -

لم نَشِخْ، شاختِ السَّمَاءُ -

السَّمَاءُ التي سَرَقَتْنَا

وكَسَتْ غُزَيَّهَا

بِلُهَاثَاتِنَا .

السَّمَاءُ التي مِنْ وَرَقْ

السَّمَاءُ التي تَتَمَزَّقُ في رِيحِنَا .

لم نَشِخْ . شاخَ فينا المدارُّ، وشاخَ المسارُّ،

وشاخَ الأَرَقُّ -

شاختِ الأرضُ : قُلْ لِي، يا أَيُّهَا الطِّفْلُ،

يا خالِقَ الحَبِّ، هَلَّا غَضِبْتَ،

وغيَّرْتَ هذا الفضاء!

- ظ -

أَتُرَاهُ التَّعَبُ

كَانَ إِرْثًا لَنَا وَحَدَنًا؟

أَتُرَى الرِّيحُ أَتَتْ، وَحَنَّتْ

مِثْلَنَا، وَبَكَّتْنَا وَأَعْطَتْ

لِمَلَائِكِ أَحْزَانِنَا كُلِّ نَايٍ

صَنَعَتْهُ الطَّبِيعَةُ

مِنْ بُرْحَاءِ الْقَصَبِ!

- غ -

لم تقل إنها نَسَمٌ لا يقول اسمُهُ، -
يتوسدُ زَنَدَ الفضاءِ، يجرّ على الزَّهْرِ
أحشاءَهُ،

لا يقول اسمُهُ.
يَلِجُ اللَّيْلَ، يقرأ لِّلَّيْلِ أحلامَهُ
لا يقول اسمُهُ.

لم تقل إنها نَسَمٌ
لا تقولُ الرِّياحُ الغصونَ التَّوافدُ
إِلَّا اسمُهُ.

- غ - ٢

(استطراد)

- أ -

النَّسَاءُ يُطَوَّقْنَ حُبًّا خَدِيجَةً فِي قَوْلِهَا:
«جاءني مرّة

وعلى رأسه، مثل ظلّ، غمامة
قلتُ: هذي علامة -

أنّه السيّد الذي شئتُه،
لأكون له زوجة.

كنتُ في الأربعين ولي ما أشاء
وتزوّجتُ شخصين من قبله.
أولُ امرأة صدّقته - نبيّا، أنا،

فأنا أولُ المؤمنات -» / «خديجةُ خيرُ النساءِ».

هكذا قال عنها النبيُّ

(رواهُ مسلمٌ والبخاري).

النَّسَاءُ يُطَوَّقْنَ حُبًّا خَدِيجَةً فِي حُبِّهَا.

كيف لا نتقضى كلام النبي ومعناه - «لم ينزل الوحي يوماً

وأنا في لحاف امرأة،
غيرها».

وعنى عائشة.

كيف نسي حديثاً لها:

«لم أغر من نساء النبي، ولكنتي
غُرْتُ منها (وتعني خديجة)، كانت
عجوزاً.

حين ماتت، رأيت النبي حزيناً يخفّ وينزل في قبرها.

أذكر الآن موت النبي كأني أراه:

مات في نوبتي،

بين رأسي ونخري،

خالطاً ريقه بريقي».

4 / XI

دفتر الليل الأشياء

- أ -

مَرَّتْ . هل أَتَبَعُهَا؟

هل أَتَلَفْتُ؟ نَائِي الحَبِّ عَتِيقُ،

وَيَدَايَ بِلَا قَيْثَارٍ .

مَرَّتْ . مَرَّ الضُّوءُ، وَمَرَّ اللَّيْلُ، وَمَرَّتْ

غُرْفُ وُوسَائِدُ،

بَيْنَ يَدَيْهَا -

مِنْ أَيْنَ، وَكَيْفَ أَجِيءُ إِلَيْهَا؟

- ب -

في مدار الغروب، دخلنا -
نتأمل في آخر الشمس، لا شيء إلا
آخر الشمس: وزد
متعب، داخل في الغسق.

خذ يدي، ترفق
أيها المفترق.

وردة. كل شيء يؤلف ما بيننا
وجْهها واسمها وشذاها
وأوراقها الدامية،
هي ذي تتكسر في ربح أيامها.
لا أريد لعطرك أن يتقفى رياحي، قالت.

صُورٌ ولغاتٌ
في الجهات التي واكبتها،
في التراب الذي عرفته
تتبعس من عطرها
في معاجم آثارها الباقية.

كم تخيلتُ أني
أَتَأَرْجَحُ في عُنُقِ الموتِ ،
لكنَّ عُنُقَ التَّخِيلِ ،
كان كمثل الأمومة -
يجذبُ رأسي إليه .

- لَسْتُ طفلاً ،
وأحاول ألا أعودَ كما كنتُ طفلاً .

نَجْمَةُ الموتِ
تسطع في الظلِّ ،
بين طريقي وبينني .

ترى بلیلِ مراياها، أَرى بدمي
كأننا شرُّ يُسري به شرُّ
يقودنا، إن شَطَطنا، حَبْرُ أُغنيةٍ
الأرضُ دفترها والشاعرُ المطرُ -

لا تَجْهَلُ الرِّيحُ أنا من لواقِحها
فليس يُثمرُ، إن لم نَعشِقِ، الشَّجَرُ.

هُوَذَا دَهْرُنَا -

لَا غَدَّ، لَا مَعَاذُ

قَبْلَ أَنْ تُزْرَعَ الْحَقُولُ، يَحِينُ الْحَصَادُ.

وَأَنْجِيَّاهُ،

أَيْنَ النُّجُومُ الَّتِي وَشَوَّشْتُكَ،

مَتَى، كَيْفَ، أَتَى

سَتَقَطُّرُ فِينَا

مِنْ عَقُولِ سَمَاوَاتِهَا،

عَقْلُهَا الْمُسْتَفَادُ ؟

- ز -

نَزَلَ اللَّيْلُ مِنْ تُقُبِ نَجْمٍ
وَأَتَى حَافِيَاً

كي يزور السرير الذي نمتُ فيه -
مرّةً،
ويجسّ الغطاء.

لم يجد غير خنيط
نسجته الطفولة حتّى
توقظ الشمس من نومها،
وتجرّ السماء.

ضَوَارِ نفوسِ النَّاسِ يَزْحَفُ بَعْضُهَا
على بَعْضِهَا، مِنْ شِرَّةٍ، وَيُغِيرُ
حُرُوبُ تَذَوُّبُ الرُّوحِ فِيهَا مَرَارَةً
وَيَسْمُنُ فِيهَا صَاغِرٌ وَصَغِيرٌ

أَحِبُّ كَلَاماً لِلأُحَيْمِرِ^(١)، عَالِياً
وَيَأْسِرُنِي فِيهِ هَوًى، وَنَذِيرُ:
«عَوَى الذَّئْبُ فَاسْتَأْنَسْتُ بِالذَّئْبِ، إِذْ عَوَى،
وَصَوَّتَ إِنْسَانٌ فَكُذْتُ أَطِيرُ».

- ط -

ادخل لا تدخل.

تلك الغابة

أعطى كلُّ فضاءٍ فيها للرَّمْلِ كتابه.

ادخل لا تدخل.

هل بين الصَّخر وبينك خيطٌ؟

هل هذا السَّائلُ في خطواتك جرحٌ؟

تلك الغابة

جُزِرَ للريح، طيورٌ

من كلِّ غبارٍ،

ودُمى جوابه.

لا تدخل ادخل.

- ي -

نَاعِمٌ، مُتَرْفٌ

وَبَعِيدُ الْإِشَارَاتِ هَذَا الشَّرْكُ -

يَتَمَوَّجُ، يُلْتَفُّ

حَوْلَ الْعُقُولِ وَحَوْلَ النُّفُوسِ وَأَهْوَائِهَا.

شَرْكٌ - أَصْلُهُ عَشْبَةٌ

فِي السَّمَاءِ، وَشِعْرٌ

غَمَسَتْهُ جِرَاحَاتُنَا

فِي عَبِيرِ الْفَلَكَ.

- ك -

يحتفون بموتاهم . سيوف
تحمل النعش . رقص
والبكاء كما تشهق الرياح . أكفانهم
حرير ، والقبور قصور .

يُكملون الحياة - دروب
تطاولُ حيناً ، تتكرر حيناً ،
ولا مخرج .

معهم يجلس الفقر سكران - من ملل أو غضب
ويُصلي كما علّموه
للشقاء الذي ألفوه -
لينايع الآمهم
تدققُ خرساء من ذُرّواتِ التعب .

وُلِدْتُ مِنْ طِينَةٍ لَمْ يَرَوْكَ حَاجِلُهَا
مِنَ الْغُبَارِ، وَلَمْ يُكْشَفْ لَهَا نَسَبُ
أَدْوَرُ فِي فَلَكِ الْمَعْنَى - يرافقني
رَمْلُ الْكَلَامِ، وَجَبْرُ الرَّفْضِ، وَالْغَضَبُ
وَجْهِي فَضَائِي، خُطَايَ الْيَأْسُ تَكْتِبُهُ
بَوَارِقِي، وَمَدَايِ التَّيِّهِ وَاللَّعِبُ.

هو الحلم - يكسوني - بعفو سمايه،

ودربي،

والأرض التي باسمها أبني.

مُصادفةً،

أعطاني الموج شكله

وعلمني أن أستقي ولهي مني

فصرنا كأنا واحد متعدد

أسأله عنه، ويسألني عني.

قُلْ لهذا التراب اضْطَجِعْ، وَتَخَيَّلْ
أَنَّ وجهَكَ وَجْهُ امرأَةٍ -

قل لها علّمني

كيف أهبط أدراج هذا الظلام إليك،

أسافر في حُفْرَةٍ

وأشبه نفسي بظُلٍّ،

أو بقطرة ماءٍ،

وأغني مقاصير عُرْيِكَ - أبهاءها

وأشياءها،

وقناديلها المطفأة.

- س -

تلك أيامنا

جاريات كمثّل الجدول،

حيناً تفيض،

وحيناً تشحّ -

وتصفّر أحشاؤها وتقاطيعها.

تلك أيامنا -

الثلوج مصباتها

والغيوم ينايعها.

إِنَّهَا الرِّيحُ تَعْتَقِلُ الْآنَ خَطُوكَ،
وَالْأَفْقُ يَسْجُنُ عَيْنِكَ،
وَالْجَرْحُ أَعْمَى:
سَلَابِلُ سُودَاءَ فِي زَمَنِ مَيِّتٍ.

نَزَلَ الضُّوءُ، فِي كَسَلٍ وَارْتِخَاءٍ
مِنْ أَعَالِيهِ فِي الشَّمْسِ، وَارْتِطَمَتْ رُكْبَتَاهُ
بِبَقَايَا شَمُوعٍ،
فَهَوَى فَوْقَهَا، مُوجِعاً،
وَالصَّبَاحُ أَضَاعَ مِفَاتِيحَهُ.

لَمْ يَعِذْ مَكْرُ تِلْكَ السَّمَاوَاتِ سِرّاً.

لَيْتَ هَذَا الْأَلَمَ
جَاهِلِيٍّ، يَجْرُ النُّجُومُ عَلَى ظَهْرِهِنَّ،
وَيَرْتَاخُ فِي حَجَرٍ أَسْوَدٍ،
وَيَصْلِي
لِلصَّحَارَى وَوَاحاتِهِنَّ وَغَزَلَانِهِنَّ
وَيَضْنَعُ مِنْ سَعَفِ النَّخْلِ
كُوخاً يَفِيءُ إِلَيْهِ،
وَصَحَائِفَ حُبِّ يَفِيءُ إِلَيْهَا الْكِتَابُ،
وَمَحْرَابُهُ، وَالْقَلَمُ.

كيف لم أَتَنَبَّهُ لماء قوِيَقٍ
وَهُوَ يَقْرَأُ مَا تَكْتُبُ الصَّحَارَى؟

أَلْهَذَا،

لم أَقْلُ إِنَّ بَيْنَ الصَّحَارَى وَالْقَصَائِدِ جِنًّا
يَمَزْجُونَ الرِّيحَ بِأَنْفَاسِهِمْ؟
صُورٌ فِي خَيَالِي لِلْجَنِّ، مِنْذِ الطُّفُولَةِ، مَنْقُولَةٌ
عَنْ كِتَابِ السَّمَاءِ - تَقْفِيْتُ آثَارَهَا
فِي ثُقُوبِ الْمَسَافَاتِ، سَاءَلْتُ مَجْرَى قَوِيَقٍ
وَعَدْرَانَهُ،

وَتَقْصَيْتُ مَاءَ الْجَرَارِ، سَأَلْتُ الْجِرَارَا
وَأَصْغَيْتُ - شُبَّهُ أَتَيْ أَصْغِي إِلَى الْجَنِّ،
تَقْرَأُ أَشْعَارَهَا

وَشُبَّهُ أَنَا

نَتَكَاشَفُ: تَأْخُذُ سَرِّي، وَآخُذُ أَسْرَارَهَا.

أَثَرٌ - غِزْلَانُ مَرَّتْ؟ أَمْ تِلْكَ قَوَافِلُ رِيحٍ؟
لَمْ يَتَغَيَّرْ

شَيْءٌ فِي الْبَيْتِ: الشَّمْعَةُ فِي الْمَشْكَاةِ، وَكُلُّ
كِتَابٍ
فِي مَوْضِعِهِ،

وَالدَّفْتَرُ، ذَاكَ الدَّفْتَرُ، يَرْقُدُ فِي صَنْدُوقٍ

حَيْثُ اعْتَادَ. وَلَكِنْ

مَاذَا قَالَتْ لِلْبَيْتِ؟ لِمَاذَا

لَمْ تَخْتَرْ وَقْتًا آخَرَ أَقْدَرُ أَنْ أَجْلِسَ فِيهِ

مَعَهَا، وَأَحَادِثُهَا؟

وَلِمَاذَا مَرَّتْ؟

أَصْوَاتُ أُوشِكٍ أَنْ أَلْمَسَهَا

وَأَحَارُ: لِمَاذَا لَا أَفْهَمُهَا؟

في مساءٍ مضييٍّ، أنستُ لنهرٍ قويقٍ
مشينا معاً،
ورأيتُ إلى القمرِ الطَّفلِ، يَجري مع النهرِ،
يُمسكُ بالماءِ - يسألُ عن وجهه.

وجهه حَجَرٌ - قالتِ الضفتانُ.
أفلتَ الماءُ من بين كَفَّيه، نامَ،
ونامتْ على صدره مُقلتانُ.

- ش -

غَنِّ، يَا أَيُّهَا الشَّيْخُ فِيَّ، الطُّفُولَةَ - وَزِدَا، خُزَامِي
حَبَقًا، نَرْجِسًا، وَأَزْهَارِ دِفْلِي،
وَأَبَارِيقَ مِنْ كُلِّ خَمْرِ.

ويا أَيُّهَا الشَّيْخُ،
مَا زَالَتْ الْأَرْضُ تُطَوِّي كَثُوبَكَ، وَالنَّاقَةُ الْحَائِرَةَ
لَمْ تَصِلْ بَعْدُ، وَالشَّعْرُ
كَالْحَبِّ: كَفَاهُ مَغْلُولَتَانِ،
وَحَطَوْتُهُ عَائِرَةً.

- ت -

خِلْتُ نفسي مراراً
في طريقي إليها
أنني أتحدّث مع كل شيءٍ
وأرى كل شيءٍ
يتفتح، يُصغي، ويفتح أحضانه
ويوشوش جيرانه
أنّه، مثلي الآن، يُطبق أجفانه عليها.

مُدُنْ لَا تَزَالُ كَمَا أُنْشِئْتُ، ضَحِيَّةً
تَتَغَنَّى بِجَلَادِهَا
وَتَصْقِلُ أَسْيَافَهُ
وَتَوَزِّخُ: تَابِعْ أَسْلَافَهُ
وَتَشَبَّهْ بِالسَّيْرِ النُّبَوِيَّةِ.

مُدُنْ لَا تَزَالُ، كَمَا أُنْشِئْتُ، خَرَابًا:
بَشَرٌ يَسْكُبُونَ الْوَطْنَ
فِي قِصَاعٍ، يَصْفُونَ أَجْنَادَهُمْ حَوْلَهَا -
طَائِفٌ يَتَشَى،
أَكِلٌ يُفْتَنُّ.

- خ -

كَتَبَتْ تَسْأَلُ عَنْ حَالِي، قَالَتْ:
«خُذْ يَدِي، هَاتِ يَدِكَ
عُدْ إِلَى وَجْهِي، أَعِدْ وَجْهِي إِلَيْكَ».

لِلَّذِينَ يَقُولُونَ لِلصَّمْتِ أَوَّلَ أَنْشُودَةٍ،
لِلْحِجَارَةِ سَوْدَاءَ فَوْقَ الرُّؤُوسِ، لِلَّيْلِ
تَتَقَصَّى الْكَوَاكِبُ أَحْلَامَهَا مِنْ شَبَابِيكِه، لَذَكَرَى
حَمَلَتْ نَارَهَا بَيْنَ أَهْدَابِهَا،

أَتَنْسَمُ هَذِي الْقَصَائِدَ مِنْ جَوْفِ حَوْتِ
وَأُهَيِّئُ لِلصَّمْتِ آخِرَ أَنْشُودَةٍ.

- ض -

سَلَلْتُ خَطْوِي مِمَّا خُطَّ فِي حَلَبٍ :
هذي دروبي وهذا آخرُ البلدِ، -
أروحُ، أوغل في جرحي وفي لغتي
كأن بيتي محمولٌ على كبدي.

هَوَايَ فِي فَلَوَاتِ الرَّفْضِ مُعْتَقِلٌ
وَتِلْكَ نَارِي تَوَاسِيهِ، وَتِلْكَ يَدِي.
أَجَرَ دَهْرِي مَنَقُوعاً بِخِمْرَتِهِ
مُزْمَلاً بِرِيَّاحِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ، -
هذا مُقَامِي وَهَذَا أَوَّلُ الْبَلَدِ.

- ظ -

في وجهه مِنْ بقايا حلمه دَمَنْ
وفي أغانيه مِنْ أشلائه مِرَقُ
ضاقت على قدميه الأرض وانكَمَشَتْ
عنه، وضاقَ على أهدابه الأفقُ.

- غ -

أُضْغِي -

تَقُولُ لِي الْقَصِيدَةُ وَالْمَدِينَةُ وَالطَّرِيقُ:

لا ، لا يَلِيقُ بِي الْمَقَامُ ،

وَلَيْسَ لِي مَنَقَى يَلِيقُ .

باريس - برينستون

(١٩٩٥ - ١٩٩٧)

منتدى مكتبة الاسكندرية www.alexandra.ahlamontada.com

علي مولانا

ISBN 1 85516 740 9

